الدكتور: عمر بن قينة

شظايا ..

وتصدعات !

شركة دار الأمة ©

للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب 109 برج الكيفان

16 120 الجزائر

E- Mail : Dar-el-Oumma @ mail . com

الطبعة الأولى 2002

إيداع قانوني : 578 / 2002

ردمك : 2-142-067-9961

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــــداء

– إلى الجزائر العملاقة أبدا.. بتاريخها وصمودها،

رغم أنف الأعداء.. ورغم الشظايا والتّصدّعات!

– وإلى الدوحة الوارفة.. مودة وتقديرا.

– مع كل الحب.. للقلقين في القرب مثل البعد:

زوجة وبنين، وأصدقاء أيضا، من دون أن أنسى نفسي

بجدّها الزائد، وحظّها العاثر

عـــمـــر

المقدمة

هذا جزء آخر من سلسلة (مقالات) وجدت متنفسا لها في صحافتنا العربية عموما، وفي مقدمتها (الراية) العربية القطرية، في (الراية) القطرية وحدها نشرت مقالات هذا الجزء تعبيرا عن مرحلة عشريتين اثنتين آخر القرن العشرين، العشرية السوداء في (الثمانينات) والعشرية الحمراء في التسعينات التي تجد امتدادا لها في مطلع الألفية الثالثة .

(شظايا) من التفخيخ الاستعماري لحياتنا في الجزائر، وما أنجبته العشريتان من انفجار وطني، وتصدعات مختلفة لم يسلم منها موقع، نجمت من عوامل عديدة متداخلة متناقضة، ممتدة في كل اتجاه، في العمق وعلى السطح: سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا.

برز الشرخ التمزيقي الكبير في هذه الجوانب، لتتوارى قيم الخير في مواقع وتهزم في أخرى، وتطلّ قيم الشر بكل رؤوسها الأسطورية من الجحور، في كلّ الزوايا و(التكايا) فعلا البهتان، وغدا (أشباه السياسيين) صناعة رخيصة مجهرية، وقطعا شطرنجية، حتى باتت (الجزائر) أقرب إلى الاستسلام للسماسرة من جماعات ضغط، وتجار سياسة، وفجار مال، لتغدو بين أيدي معظمهم جارية في سوق نخاسة، يجرؤ على تاريخها المجيد نفسه الأوباش، ويعيث في قيمها القردة والخنازير وعملاء الاستعمار، لتغدو من جانب آخر في النهاية كسفينة أصيب ربّانها بدوار، ثم بالسكتة القلبية، في عواصف بحرية تتقاذفها الأقدار ذات اليمين وذات الشمال، وأهلها في حال ضياع تائهين ومخلصوها مقموعون، ولا يدرون ما عساهم يفعلون، وبأية إمكانات يواجهون واقعا متعفنا صنع صناعة بإرادة استعمارية حاقدة، وتنفيذ عملاء جادين شرسين في عبوديتهم للغرب مستبسلين: في

(السياسة) و(الثقافة) و(الاقتصاد) و(الإعلام) حيث تدق طبول الحرب على (الجزائر) المجاهدة (الشهيدة) بعمقها الإسلامي العربي، الصامدة بإذن الله رغم المحن في زمن (القردة) وأبناء جيوش الحلف الأطلسي، وأحفادهم، ومخلفاتهم الذين أنجزوا التشوه التدميري الكبير في عشريتي السوء المذكورتين، مما عكست ملامح منه هذه الكلمات.

هي زفرات قلم وأشواقه، احتضنتها (الراية) العربية القطرية كفضاء لم تحتبس فيه أنفاسنا، بل جاءت ملء الفؤاد حبا وأملا وتوقا.. على قلم لا يملك صاحبه أداة سواه، فهو الصوت وهو الملاذ في فضاء من الحرية المتزنة، من دون هوى شخصي غير هوى (الجزائر) المطعونة في تاريخها وكبريائها، الصامدة رغم جراحاتها ونزيفها، ونصال العملاء فيها.

من أجلها دون سواها كانت هذه الكلمات، فلتقبلها عربون حب، وتحية وفاء، في السراء والضراء، رغم أنف الأعداء والعملاء.

الجزائر – عمر بن قينة

2001/10/08 م

(ولائـم) الثقـافة
و (مغانـم) الإدارة ..

عدة عناصر اشتركت فربطت في ذهني العلاقة بين صوُر (لولائم) في عالم الثقافة، وصور (لمغانم) في عالم الإدارة الجزائرية،انتظمت جميعها في عنصر (الانتهازية) بكلّ الخلفيات: أنانية وأثرة ووضاعة أخلاقية وتفكيرا أعوج.

ولا أكتم القارئ أنّني حين سجلّت عنوان هذا الموضوع: شرعت تتجاذبني صور شتّى تداخل قديمها بحديثها في عالم (الولائم) الثقافية، و(المغانم) الإدارية، ومظاهر جمة ممّا استعملت فيه (الثقافة) و(الإدارة) مطية لتحقيق مطامع غير شرعية، تتّسم بالشرّه وحبّ السيّطرة، والاستهبسال زحفا نحو مساقط الضوء، توقا إلى أعلى! ولو كان فِكْرٌ مَعْنِيٍّ.. مَا مثِل قدَميه في عمق الوحل بمضمونه المادي والمعنوي: فهو في كلّ (وليمة) موجود من دون إمكانات غير إمكانات القضم والهضم، ونحو كلّ منصب إداري زاحف، فإذا وصله – بعد الركوع والسّجود! – نهضت في أعماقه كلّ عيوبه الإنسانية، فتستيقظ فيه الرّوح البوليسية والديكتاتورية، لينتقم لوضعه في حياته، من كلّ محيطه: الخاص والعام.

أكتب هذا من وحي معاناة في (الجزائر) تكابدها الثقافة من عشاق (الولائم) ومعاناة سقطت فيها الإدارة منذ زمن، بفعل الزّاحفين إلى (المغانم) وعليها، من دون مؤهّلات في فكر وعلم، ولا أخلاق، ولا قيم إنسانية حضارية.

لكلّ ذلك أسباب ومظاهر ونتائج لا تتّسع لها هذه المقالة المتواضعة التي تكتفي هنا بإعلان انطباع عن آفة اجتماعية فكرية ثقافية استشرت، ففرّخت من الأمراض ما بات اليوم مستعصيا عن الحصر، وربّما العلاج: فأتلفت هذه

الأمراضُ (الآفةُ) كلَّ قيمِ العلمِ والخير والفضيلة والنّبل؛ والعطاء في الثقافة، كما أبادت بشراسة كلّ قيم الكفاءة والإخلاص والولاء للوطن، قبل العشيرة و(الإيديولوجية) كي تفسح المجال لبروز قيم الاستهلاك اللفظي، والديماغوجية الفكرية في (ولائم الطعام) إلى جانب قيم الولاء القبلي والجهوي زحفا إلى (مغانم) الإدارة على أكتاف (وصوليين) انتهوا إليها بالطريقة نفسها.

من هنا لا تستغربن حين ترى صفة (كاتب) تلتصق بشخص ما هنا وهناك همّه (الولائم) من دون أن يكتب كتابا واحدا، كما ترى صفة (مدير) في مؤسسة عمومية لا يدير إلا مصالحه، وشهادته الوحيدة في ملفه (الإداري) هي (شهادة الميلاد) الشخصية، لهذا السبب كانت حرب هؤلاء على الإطارات الجامعية كخطر ما حق، يجتثّ الزّيف ويبيد الظلام.

لذا من السّهل أن تدرك سرّ (التّصحّر) الثقافي، والقحط الأدبي الفظيع، وسرّ الفساد الإداري: فلم تعد الثقافة والأدب: تضحية وعرقا وجهدا يفتّت الأعصاب وقد يتلف البصر رغم رضى الضمير، بل هو الزّحف إلى (بناء أسماء) تُلمّع وهميا، من دون مضمون، كما صارت الإدارة ميدان صراع حقيقي ضار يدور يوميا في ساحة معركة، لا من أجل بناء وطن والإعداد لمستقبله ومستقبل أجيال لاحقة، بل من أجل توسيع دائرة (المغانم) لزرع (المغاني) في الداخل وفي الخارج من دون جهد فكري ولا عضلي، واختلاق (مهمّات) صورية تحشو حسابات المعني بأموال عمومية، إضافة إلى كون هذه الإدارة تتحولّ إلى نقطة (توجيه) وتسيير للمصالح الجهوية والقبلية، وخدمة (إيديولوجية) لجهات أو عصابات.

لقد أعدّ رجال النّهضة الثقافية والأدبية والفكرية والإصلاحية في (الجزائر) منذ عشرينات هذا القرن قاعدة جيدة واسعة لتثمين قيم العلم والعمل والجهد والإخلاص، ومن خلالها تُقيّم العناصر المثقفة حقّا، الوطنية

الجادة الوفية لأمتها الكبرى لا للعشيرة أو الحزب، لكن الأيدي الكائدة الماكرة لم تلبث حتّى امتدّت لتعيث فسادا في النّاس والأرض: فبدأت الثقافة تتحوّل منذ أواخر (الستينات) إلى أسابيع ومهرجانات للطبل والمزمار، في هذه الولاية أو في تلك، مادتها (الولائم) و(الموائد الممدودة) و(الفرش المبسوطة) وصارت في (الثمانينات) مهرجانات «وطنية» !؟ للعربدة (تستورد) فيها الماجنات من (أوروبا) والوطن العربي و(إفريقيا) للرقص والطرب، في الشوارع، والقاعات (الثقافية) والمسارح، وجرى ذلك حتى في ليالي (رمضان) المعظمّ في نفوس الجزائريين، وهذا ممّا غذّيى الرّوح الإسلامية في الجزائريين – كرد فعل – غذّاها بطاقة جديدة ورصيد من الشباب حين ارتفعت درجة التذمرّ الشعبي الوطني، ففقد النّظام هيبته، على أكثر من جبهة، كما عكست ذلك أحداث (5 أكتوبر 1988) – المؤامرة – وقد رفضت كتاباتنا – حينئذ – في الداخل، في صحافة عمومية (ميتة) تحتكر الساحة الإعلامية لتزييف وعي المواطن، أي حرم الكاتب والصحفي الوطني من فرص الاستنكار لهذه الظاهرة وسواها ممّا يجلب الدّمار المادي والمعنوي لوطن وأمّة، لا تساوم في قيمها الإسلامية.

كما قد ورثنا من جهة أخرى عن الاحتلال الفرنسي إدارة سليمة بتقاليدها في التّسيير علميا، لكنّه أورثنا معها إداريين أوْكَلَ إليهم – سرا – العمل لإفراغ الإدارة من محتواها الحضاري، ودورها التّقني، كي ترسو على حافة دمار شامل على مستوى التّسيير والعلاقات البشرية، حتى صار الطريق إليها ميسورا من دون مؤهّلات: فمضت تستقطب الانتهازيين الباحثين عن (البريق) الظرفي الاجتماعي، والمغانم العاجلة، فيضيع بينهم الشرفاء الرّاغبون في العطاء عن حبّ وإخلاص: فصارت هنا الدّسائس والمؤامرات من بين (أدوات العمل) في هذه الإدارة التي كثيرا ما باتت في مواقع عديدة: (مقاطعات) جهوية، في (وزارات) و(مؤسّسات) عمومية يُرحّل إليها (المسؤولون) مداشرهم، و(شللهم) كما كاد المسؤول فيها نفسه يتخلّى تماما عن وظيفته

متفرّغا للسياحة، في (وفود) و(بعثات) و(مهمات) فردية مموّلة من خزينة الدولة، لقضاء مآرب شخصية، أو إعدادا للمستقبل الغامض.

فانطلق الخراب في كلّ اتّجاه، وهو ما خطّط له أعداء (الجزائر) ومحتلّوها بالأمس، ولا يزال العمل مستمراً فهل في مقدورنا اليوم أن نصلح ما أفسده عبث السنّين، ممّا عاد بالوطن إلى درجة الصفر في انطلاقته، بل ربّما دون هذه الدرجة أو أدنى منها، وهذا موضوع آخر،من زاوية أخرى: فأيّة إرادة وطنية في مقدورها اليوم أن ترمّم ما أصاب الوطن من خراب، أو تعيد بناء ما هدم، من فعل فاعلين، بعضهم معلن وبعضهم أو أغلبهم مستتر.

من هو الجزائري الوطني (الفولاذي) الذي قد يُؤْتِيى الحكمةپ في الفهم وحسن الإدراك، كما يؤتي كثيراً من الحزم والعزم والحب والإخلاص من دون غرور ولا كبرياء للإمساك بمبضع الجراح لبتر الأورام الخبيثة، واجتثاث الآفات المزمنة في العمق التي قعدت بالجزائر العظيمة، فجعلت منها وطنا جريحا.. ينزف، ووراء النّزيف: – جوهريا – تشويه اجتماعي ثقافي بشع، شاعت فيه قيم التفتيت والاستهلاك والصراع، وفساد إداري متفسّخ امتدّ فيه سرطان الرشوة والمحسوبية، والجهل والجهوية، وكلّ قيم الفساد والإفساد في الأرض وبين النّاس، ممّا شوّه وجه الحياة في كلّ مناحيها.

ومهما يكن من شيء، فعند بروز الرجال المخلصين من ذوي الكفاءة الفكرية والحسّ الحضاري: نعتقد أنّ الجزائر بقوّة الإرادة الشعبية في القاعدة والتماسك الروحي اجتماعيا: قادرة على سحق (ثقافة الولائم) و(إدارة المغانم) واستعادة كلّ توازنها وخروجها مرفوعة الرأس مظفّرة، رصيدا وسندا في جبهة أمّة عربية وإسلامية مقاومة، لأخذ موقعها المتقدّم في عالم لا يرحم ضعفاءه، والكلمة فيه لأقويائه.

الجزائر، 10 /10/1995.

صورة .. الوطن !

كانت لحظة خاطفة، هي لحظة انسجام جزئي مع الطبيعة وأجواء (المعرض الدّولي) بالجزائر منذ بضعة أسابيع، وقد تموّجت في أرجائه وسماواته أعذب الألحان.. فطفقت أعانق الشوق والحنين إلى فضاءات صفاء وحبّ إنساني، في محاولة التّجاوز لبؤر من دخان يكاد يخنق الأنفاس، ونار توشك أن تلتهم كلّ شيء.. هشيما ومرجا وزهرا.

كنت أمارس ضربا من الاسترخاء.. أو أستدرجه بعبارة أصحّ.. لتجاوز واقع مادي ونفسي طاحن.. في انتظار أفراد الأسرة.. يغادرون أجنحة المعرض.. بعد إشباع فضول فيهم أو اقتناء ما قد يكون راق لهم.. واستجابت له جيوبهم.

في تلك اللحظة انطلق فيض من الصوّر.. تتلاحق في الذّهن فتتداخل وتتلوّن.. بين ماض زاخر اندثر، وحاضر يعجّ بالآلام الملتوية المتلوّنة، ومستقبل تبدو ملامحه غارقة في الضّباب.. حتّى أحسست أنّني ضائع في تلك الدوامة وقد تداخلت فيها مختلف العناصر.. بانسجامها هنا وتناقضها هنالك، ممزّق النّفس بين وضع سلبي نحن غارقون فيه (جزائريا) خصوصا و(عربيا) عموما و(إسلاميا) بشكل أعم.. ووضع إيجابي زاخر نطمح إليه فتبدو لنا صعوبة إدراكه.

في تلك اللّحظة والجموع المتدفقّة تلج البوابة الكبيرة لأحد الأجنحة أو تغادرها.. برز من بين الأمواج البشرية (سفير) بلد إسلامي وفي (ذراعه) زوجته وقد حثّا الخطى – بطريقة خاصة – نحو السيارة (الرسمية) وقد أرخى السّائق عنانها.. بمجرّد إطلالة (السّفير) وحرمه.. لتقترب من بوابة

الجناح.. اختصارا للمسافة.. ومن أجل راحة (السّفير) و(وقته)! لكنّ (السفّير) أمعن في حركاته التي كانت أقرب إلى النزق.. والخيلاء في الوقت نفسه.. ليُعرض عن السيارة وسائقها بعد ما برق في ذهن حرمه شيء ما.. ربمّا.. في الجناح المقابل.

في تلك اللحظة نفسها شرعت صورة ذلك (الوطن الإسلامي) وطن (السفّير) تنهار في ذهني انهيارا فظيعا، أحسست وقعه بين الضلوع.. وفي الوجدان، حتّى كدت أشعر بدويّ تلك الانهيارات كهزّات زلزالية مادية مباشرة.. متتالية تتجاوز أرقام «ريشتر» التدميريه.

هنا لاح لي سؤال: أيجوز لي أن أحكم على بلد أو (وطن) من سلوك واحد من أبنائه؟ حتّى ولو كان (مسؤولا) ساميا! أيجوز أن يكون هذا الشّخص هو (صورة الوطن) ولو كان ممثّله (الرسمي)؟ أيجوز؟؟ أمن حقّي؟.. أيعقل؟ هكذا توالت الأسئلة.

حاولت أن أقنع نفسي.. أنّه لا يجوز لي ذلك، وأنّ التّفكير بهذا المنطق خاطئ تماما، ومع ذلك فالصورة التي أحملها عن البلد – الذي لم أزره – لا تتوقّف انهياراتها في ذهني متغذية من عناصر يقدّمها الإعلام الأوروبي.. رغم صراخ عقلي: إنّ (السفير) ليس (صورة الوطن) بالضرورة، لكنّ صراخا آخر في أعماقي يصرّ: بل هو (صورة الوطن).

وأصدق القارئ الكريم أنني في تلك اللحظة لم أحسم أمرا في هذا الجدل الذي نشب بين عقلي ووجداني.. وخيالي.. حتى اقتحم رتيل آخر.. من صور.. ما.. تلك اللحظة، هو حشد من خارجها، في سلوك (رسمييها) ابتداء من ذلك (الدبلوماسي) الجزائري في (الشرق) أو غيره في (الغرب).

ولطالما تأذّيت من ذلك.. وأبيح لنفسي – مستسمحا القارئ – أن ألمّح لنموذج في الوطن العربي وآخر في (أوروبا) ففي عاصمة عربية لاحظت

سلوك (دبلوماسي) في الحياة العامة، وفي علاقاته بالجالية الجزائرية وصلاته الرسمية: فأدركت أنّ الرّجل مؤهل لكلّ شيء إلاّ أن يمثّل بلدا عظيما كالجزائر دفع مليونا ونصفا من الشهداء: من أجل أنفته وعزّته وكرامته، فهو سفير (مشاريعه) المموّنة من خزينة الدّولة، خزينة الأمة، سفير مصالحه الخالصة جدا وخططه الرخيصة، وعلاقاته التي ينسجها على أشلاء أمة تمزّقها قوى التآمر التّدميري الداخلية والخارجية، التي هيّأت لذلك بخطى مدروسة متقنة.

أمّا النّموذج الثاني ففي (أوروبا) من العاصمة الفرنسية (باريس) وقد بدا الرجل سفيرا فعلا، لكن لفرنسا بين (الجزائر) و(باريس) في سلوكه وقيمه.. ولغته طبعا، هو فرنسي أكثر من الفرنسيين أنفسهم، ولا تشعر حين تشاهده (يحظى) باستقبال الرئيس الفرنسي أنّ الرجل يمثل بلدا عربيا مسلما له قيمه وتقاليده في اللباس نفسه قدّم مهرا للحرية: قوافل الشهداء تحت راية (الله أكبر) شهادة واستشهادا.

فهل من حقّي – أيضا – بعد هذا أن ألوم مواطنا (مصريا) وضع قدميه ذات يوم على الرصيف الباريسي فنطق باسمه (الثلاثي) العربي متوّجا بكلمة (أنا فرنسي).

كان الموقف في ناد ثقافي دولي.. منذ إحدى عشرة سنة خلت حيث شرع كل واحد يقدّم نفسه، فقال صاحبنا: «أنا محمد عبد الله أحمد... ولدت بالدقهلية في مصر، أنا فرنسي» فضحك بعض.. من الفرنسيين أنفسهم.. لأمر هذا الذي وصل (باريس) فتزوج (فرنسية) على عجل.. التقطها من الرصيف.. كي يحصل على جنسيتها.. لحقوق في ذلك.. ولم تستقم الكلمات الفرنسية على لسانه.. ومع ذلك أعلن أنه (فرنسي) فهل يجوز أن يكون هذا (المخلوق).. هذا (الآدمي) هو (مصر)؟

ويبدو أن ذلك المواطن (الجزائري) في تلك المناسبة نفسها لم يفكّر قطّ في الصيغة قبل النّطق بها، حين سئل، فقال: «أنا... عربي من الجزائر».

هذه الصيغة أعجبت بها أستاذة فرنسية، فانطلقت تتحدث في أحد الأروقة بالنّادي.. فتضمّن كلامها قولها ملخّصا: من أخطائكم.. أنتم العرب: تشر ذمكم.. فتسهلّون مهمّة أعدائكم.. وتتخلفون مسافات.. في ركب حضاري لا يرحم صغارا.. وضعفاء.. ومتنابزين، فليس هناك معنى للانتماء القُطري الضيق، كلمة (عربي) على (جواز السفر) نفسه لها عمق دولي، بعد حضاري.. عليكم مراجعة أنفسكم!

فحار.. قلبي.. وعقلي.. وتوقّف لساني.. ولم أجد ما أجيب به تلك الفرنسية الرائعة غير نظرات مودة.. والقلب يعتصر ألما.. ولسان الحال يقول: «شكرا يا حرة!»

إذن أعود إلى الخصام الناشب بين عقل ووجدان.. وقد وجب الوقوف إلى جانب ذلك.. من دون غياب هذا: فإن لم يكن الفرد بالضرورة صورة لبلد أو وطن.. فإنّه يبقى جزءا من الصوّرة.. سواء أردنا أو لم نرد.. خصوصا حين يكون مسؤولا سياسيا، وهو ما ينبغي الإقرار به..

لذا فمن.. باب «من كتم داءه قتله» ينبغي (البوح) أنّ مسئولينا السياسيين بالدرجة الأولى.. من مصادر التّشويه لهذا البلد أو ذلك، من وطننا الإسلامي، ومنه العربي في (عيون الآخرين) وفي أذهانهم..

ومهما كان صوت العقل جبّارا.. أتجدني مذعنا إلى هذا الإحساس الذي يقول: إن المسؤول الأول عن الصورة السلبية لوطننا (الإسلامي – العربي) هو رجل السياسة، أي نعم.. رجال السياسة، أولا وأخيرا: فمعظم السياسيين (الرسميين) يسيئون تمثيل أقطارنا داخل الوطن الكبير (الإسلامي والعربي) وخارجه، لانعدام حسّ حضاري، نلمسه في مظاهر شتّى، ومنها الكثير البارز.. في حياة (الرسميين) العامة لا الخاصة، انعدام هذا الحسّ حتى في أخلاق الحكم، وأسلوب التسيير.

فمتى رأينا مسؤولا كبيرا في أقطارنا يقدم على استقالة (طوعية) أو يعلن توبته منسحبا حين تطوّقه الأخطاء السياسية، والفضائح المالية أو سواها؟ مع أنّنا أمة يفتح دينها دائما أبواب التوبة النّصوح في وجه بنيه، ولكنّهم لا يفعلون، بينما يفعل غيرهم، فرئيس أعظم دولة في العالم: يهزّه الشعور بالخزي والعار لاكتشاف مخالفاته، في «وترغيت» فيعجّل بالرحيل من السلطة، مطأطئ الرأس، ويقدم لا حق له في دولة أوروبية على (الانتحار) لمجرد ذيوع مخالفة مصرفية، هي من أصغر (الصغائر).. جدا.. جدا.. بوطننا «الإسلامي» الكبير.. لكنّه الشقي ببنيه.. وقصورهم.. وتقصيرهم.

ما أعظمك يا وطناً للعروبة امتدّ من خليج إلى محيط! وما أعظمك يا وطن الإسلام وقد تغلغل في معظم القارات.. لكن ما أشدّ قصورنا في خدمة ذلك الوطن وهذا!

كم من أذىً وتشويه لحق صورتك.. أيّها الوطن العزيز.. لا بفعل موقعك.. ودورك.. وتاريخك.. ولكن.. ومهما يكن.. بفعل بنيك (الرسميين) أولا.. وأخيرا.

الجزائر، 1996/01/01.

(الرّسول).. و(ابن سينا).. وأشياء أخرى !

في يوم جمعة حضرت باكرا إلى المسجد: فكان يلفت نظري من حين إلى آخر بعض مما يقول إمام الجمعة في درسه الأسبوعي قبل الخطبتين والصلّاة: فكان من ذلك جزء من حديثه عن (ابن سينا) كطبيب وعالم، وعلاقته بالحكام ومعاناته، كما عانى عظماء الأمة الإسلامية: متاعب جمّة في مجتمعاتهم، مشيرا في حديثه إلى (مسلسل تلفازي) كويتي عن (ابن سينا) عرضه (التلفاز) الجزائري.

وسرعان ما صكّ الأسماع خلال ذلك صوت مدوّ، في الصفوف الخلفية يخاطب الإمام المدرّس، بصيغة: (ما هذا الكلام الذي تقول هنا يا شيخ؟.. نحن في الجامع لا في مقهى أو كوري [إسطبل] لقول التوافه..) هكذا نطق الصّارخ وقد نهض.. نطق بعنف من دون لياقة ولا أدب: فلم يحترم المكان، ولا منصب الإمام ولا شخصه: فسكت الشيخ المدرّس قليلا، ثم تابع حديثه ليتوقف هنيهة كي يقول: «الذي لا يعجبه التلفزيون يغلقه، أمر سهل، تعبنا من هؤلاء الدّخلاء» واستأنف درسه.

وبعد الفراغ من الصلّاة مكث الإمام كعادته في (المحراب) حتى انصراف جميع المصلّين: فمررت به نتبادل التحية والمصافحة، حيث أقبل عليه (مناصر) لذلك المحتج (الصارخ) عن ذكر (ابن سينا) و(التلفاز) في المسجد، وأخذ مكانه (بوقار) أمام (الشيخ) ويده اليسرى تداعب شعيرات لحيته المبعثرة وتمسدها وهو أشبه بحال (ديك رومي) ثم نطق (منبها) الإمام المدرس إلى (أخطائه): «يا شيخ ألا تعلم ما قال الرسول (ص) في ابن سينا؟.. هل تعلم؟»

هكذا قالها!.. نعم.. قالها في هيأة المعتدّ الواثق، العالم.. بعلوم الدين والدنيا، وتاريخ الأمم والأشخاص، والمذاهب والحركات: العلمية والفكرية

والدينية والفلسفية وسواها، ولم يعتره أدنى خجل وهو يتلقّى التّنبيه إلى خطئه التّاريخي الفادح، وتقوّله على الرسول (ص) ظلما وعدوانا: حتى جعل (ابن سينا) المسلم سابقا في حياته عن صاحب الرسالة الإسلامية محمد (ص) فانصرف ولا تزال يده تمسد لحيته، يا للعجب من جاهل لا يخجل ومن جهل لا حدود له، وقد طغا واستشرى.. و(استغول) ناشرا الظلام في كلّ مكان.. حجة على الإسلام والمسلمين.

سلوك (الغوغاء) بزادها الديني الضحل، واندفاعها ومنطقها وجهلها المركب يجعلها تعمى عن حقائق نفوسها ودينها ورجالها: فتنسب إلى الدين ما ليس منه، من دون خجل، كما تنتسب إليه إفكا وبهتانا، وقد اختلطت في فكرها وأمام بصائرها حقائق الأشياء: فذكّرني هذا الموقف بما ورد على قلم كاتب جزائري ساخر عن سياسي لدينا سمع أن الأديب (عبد الله بن المقفع) فارسي فبادر هذا (السياسي) لاتّهام (ابن المقفع) بالعمالة (للخميني).

وهل كان في المقدور إقناع هذا (الآدمي) بالقرون التي تفصل(ابن سينا) في الآخرين عن صاحب الرسالة الحاث على طلب العلم من المهد إلى اللحد.. و.. (لو بالصين)؟ هل في المقدور إقناعه وهو الذي أغلق الأبواب في وجه كلّ علم وكلّ منطق إلاّ ما ينطق به (أنبياء) هذا الزمن قشورا.. وطحالب.. من (خلف) لسلف تمتدّ جذوره إلى (مسيلمة) مع التطوير والتّحوير في المنطق المسيلمي ومقاصده.

وظفر الشيخ باحترامي وهو يتجاهل الاستفزاز، ولم يفاجئه قول (الحريري) صاحب (المقامات) وقد طرق ذهني:

ولا تُمارِ جاهلا فتتعبا   وما عليك عتبه فتعتبا

لأنّ الرّجل فيما يبدو تعوّد على هذه المواقف في هذا الزمن الموبوء، الذي كثر أدعياؤه في كلّ شيء: سياسة، وعلما، ودينا، وفنا، وأدبا. ولا أزال أذكر له حادثة مماثلة لا تفصلها عن هذه إلا أسابيع معدودة، وقد كانت في صلاة يوم (جمعة) أيضا، في (رمضان) حين تحدّث هذا (الإمام) عن مستويات

الصّوم الثلاثة أو درجاته عند الإمام (الغزالي) في كتاب (الإحياء) لينطلق منها إلى واقعنا: فيضرب أمثلة من الحياة اليومية: فذكر أن المتجوّل في أسواقنا يدرك أنّ بعضا ليس لهم من الصوم إلا التّعب من جوع وعطش، لما يصدر عنهم من سلوك مناف للدين عموما، ويتناقض وآداب الصوم والصّائم، غشا في البضاعة والميزان، وسبابا وكذبا، وأيمانا باطلة، وانفعالات لا مبرّر لها، وارتكابا لمحرّمات واضحة شرعا.

بعد الفراغ من الصّلاة تقدّم إليه شاب يقول: يا شيخ ماذا يهمنّا نحن من الأسواق؟ أريد أن ترشدني إلى طريقي إلى (الجنة) لا إلى (السّوق) أو (الشارع) وما يقوله (فلان) وينطق به (علان). فقال (الشيخ): من هنا تبدأ طريقك إلى (الجنة).. كن صادقا في معاملاتك، أمينا مخلصا، طاهر القلب واللسان، نظيف الثياب والسلوك، دقيقا في عملك وفعلك.. دينيا ودنيويا، حيث كنت، مع الناس، أمام الله، أيّة جدوى من صلاة تنقضها بمخالفات دينية في الحياة اليومية، في (الشارع) وفي (السوق)؟!

ومع ذلك بدا على الشاب أنّه راغب عن السماع، لأنّه لم يألف طريقا إلى (الجنة) من (السوق) بل استقرّ في ذهنه: انطلاقا من (كهف) ككهوف الرّهبان وأديرتهم، لأنّ أدعياء الدين علّموه الفصل بين الحياة والدين: لذا تكثر الموبقات في دنياهم، ويسوء الفهم في (دينهم) في حضور المنطق (الغوغائي) الأعوج.. الأعرج..

ولم لا أذكر للقارئ موقفا آلمني، ولزمني الإحساس به يوما كاملا؟ وذلك في يوم (جمعة) أيضا، وقد كان (الإمام) فيما قبل الرّكعة الثانية الأخيرة: ففرغ من (الفاتحة) إلى (السّورة) حين حضر (مصل) ووقف في (الصّف) منتصبا: فبدل أن يبادر بتكبيرة (الإحرام) وإدراك (الركعة) راح يمسد لحيته في وضع مداعبة، ثم أخرج (عوده) وبدأ (يستاك) به. حتى خرج المصلّون من الركوع إلى السجود، فشاركهم في السّجدتين، وبعد السلام نهض ليضيف ركعة واحدة و(يسلّم).

فكانت النّصيحة الأخوية تفرض على أحدهم أن يقول له: إنّ الصلاة تدرك بالرّكوع وذلك قد فاتك، فوجب عليك أن تعيد (صلاتك) ظهرا.. لا (جمعة) فنظر ذلك.. إلى هذا النّاصح.. مستغربا.. وفي عينيه صيغة احتجاج:

- أعيدها ظهرا؟

- نعم.. الركعة تعقد بالركوع.. لا بالسجود..

- هذا خطأ، إدراك السجود كاف.

- لا يا أخي! يحسن أن تراجع الإمام.

الراجح أنه لم يفعل!

وإن لم يزعم كاتب هذه السّطور في يوم ما.. علما ما بدين أو سواه، فإنّما يذكر هنا ظواهر سلبية، من خلال أمور بديهية: لاحظها، ويعرف أمرها كلّ مسلم عملي بسيط، يؤدّي فرائضه بشكل عاد في أدنى المستويات، يذكرها وقد بات ادّعاء العلم بالدين (موضة) مغرية، وإسناد (الأقوال) إلى الرسول (ص) عملا عشوائيا، والحديث عن سيرته من دون ضوابط، إلاّ كما يحلو لدعيّ أو أحمق مغرور، وهو ما يؤذي شعور المسلم، ويسوء حتى المسلم (غير العملي) إن صحّ التّعبير، خصوصا في حضور(سلطة الغوغاء) وغياب (سلطة العلماء) والمصلحين.

تلك المظاهر ممّا يعطي الشباب الطموح صورة شوهاء عن دينه وقد بات (مزرعة) مستباحة للدخلاء.. (المعززّين) بالجهل والغرور والخيلاء.. والمذهبية العجيبة.. هؤلاء من الحجارة المدمية.. في طريق الصّحوة الإسلامية الناضجة الواعية: صحوة البناء الحضاري الشامخ، لا الصخب الغوغائي المدوي «وأما الزبد فيذهب جفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض».. ويبقى الأمل كبيرا.. في رشد.. وترشيد ليعود للحياة رونقها.. وللدّين رسالته ودوره في العالم الإسلامي وخارجه.

الجزائر، 1996/03/15.

(التكريم) .. في (المستشفى) !

هل الظاهرة التي برزت إلى السطح (عربية عامة) أو هي ظاهرة (جزائرية خاصة)؟ ظاهرة تتعلق بتكريم (الكتاب) و(الأدباء) في (المستشفى) خلال الأيام الأخيرة من الحياة، وهو أسلوب يطوّر قليلا منطق (التمرة) و(العرجون) في (المثل الشعبي) الذي تقول صياغته العربية التفصيلية:«حين كان حيا كان يشتهي حبة تمر واحدة، وحين مات: وضعوا على قبره عرجونا» كاملا.

أوحت لي بهذه الفكرة صور عديدة تتقدمها صورتا: أديبين، جزائريين، كانا أيضا إعلاميين، كان لهما إسهامهما المعتبر، في الصحافة وبالشعر في (تونس) الشقيقة أثناء الثورة الجزائرية (54–1962). هما الأستاذان، الشاعر الصحفي (محمد البوزيدي) والشاعر الروائي (عبد الحميد بن هدوقة) توفي الأول (سنة 1994) والثاني أخيرا (سنة 1996).

فالرجلان كان لهما حضورهما الأدبي بعد الاستقلال، كما كان لهما إسهامهما إبان الثورة، لكن تثمين جهديهما: فكريا واجتماعيا وسياسيا بقي غائبا، فإن حظي الكاتب (ابن هدوقة) باهتمام نقدي كروائي، خصوصا أنّه أوّل من كتب في هذا النوع الأدبي في (الجزائر) روايته (ريح الجنوب) التي تحولت إلى (فيلم) وجلبت له بعض الشهرة، فإن (بوزيدي) (حظي) بحصار رهيب لحسّه القومي: العربي الإسلامي وروحه الثورية، وسط مناخ سياسي يضيق بالرجال الصادقين الأوفياء، ويأنس لأشباه الرجال، ممّن لا مبدأ لهم، ولا وفاء لديهم إلاّ لقيم التملّق والتزلّف، بعيدا عن صراحة الرجال المخلصين الصادقين: قولا وعملا.

قضى (محمد بوزيدي) زهرة شبابه، في (إعلام الثورة) الإذاعي خصوصا، في (صوت الجزائر) الذي كان يبث من (تونس) الشقيقة، وكان أحد الذين أنزلوا

(العلم الفرنسي) في (الجزائر) بعد إعلان الاستقلال من فوق (بناية الإذاعة والتلفزيون) ورفعوا العلم الجزائري، واستمرّ في نضاله خصوصا في حديثه المسائي التلفازي الذي كان خاتمه متاعبه، بفعل (سماسرة الوشاية) حول (بومدين) وكم كان شعوره بالإحباط رهيبا، وهو يحدثني عن ذلك في (طرابلس) بليبيا، سنة (1981) أثناء ملتقى (الأدب المقاتل)، أيام (24–28 جوان) وقد شرعت المتاعب الصحية تضغط عليه بعنف، حتى سقط منهكا ذات مساء يومئذ هناك قرب (فندق الشاطئ) في (طرابلس) ومع ذلك مضى الصمت يطوقه.

وحين تأكدت نذر رحيله عن دنيانا، تمّ (الإذن) للتلفاز بإجراء حوارات معه في (المستشفى) على شكل (تكريم) فكانت حوارات ساخنة، تلقى في أحدها وساما سلّمه له (وزير) صار بدوره في ذمّة الله، وقد كان ينسى آلامه المبرحة، في (الحوار المتلفز) فينتفض: بالرأي والشعر المرتجل، وعيناه تخترقان حتى ذلك الوزير الذي غمره الارتباك والخجل مع بعض من «إنّ».. في نفسه كما يقال أمام رجل تنبض شرايينه بانتماء أمته لكيان حضاري، تحاول قوى البغي ومنها الوزير سحبها منه.

هي التفاتة، حملت طابع(التكريم) فأثلجت صدر الرجل ورفعت من معنوياته، غير أن أهمّها لم يُبثّ (تلفازيا) إلا بعد وفاته، فكأنّما هناك خوف لدى أمثال ذلك الوزير من عدول (المنية) عن هدفها، أما حين انتقلت روحه إلى باريها، فلم يعد هناك خوف، فبثّ كلّ شيء، واكتشف بعض.. (شاعرا، فنانا، إعلاميا وطنيا) مات من دون أدنى حق له.. يبقى لأبنائه، حتى السكن الذي تركهم فيه: هو سكن وظيفي لزوجته، يؤخذ منها حين مغادرتها العمل، ليبقى أبناؤه في الشارع.

مع ذلك اعتبرنا (التكريم) في (المستشفى) خطوة متقدمة في (منح الاعتبار) لرجال الثقافة والفكر الذي سحبه منهم (صعاليك سياسة) أميون مغامرون.. وصوليون، متآمرون.

ولا أزال أذكر شكوى (ابن هدوقة) أمام (الجمهور) في (المركز الثقافي الجزائري) بباريس، سنة (1985) حين دعي لإلقاء محاضرة هناك، قائلا: إنه من دون حقوق، حتى أبناؤه حين تدركه الوفاة ينتظرهم مصير مجهول.

فالرّجل عمل في مختلف المواقع الإعلامية والثقافية، مديرا بالإذاعة الوطنية، ومديرا للمجلس الأعلى للثقافة، والمؤسسة الوطنية للكتاب، وهو روائي، لم يحصل حتّى على حقه في سكن، يكون ملكا له، وبقي (تحت رحمة) سيدة تؤجّر له بيتا، وتملي عليه شروطها، بينما كان (الصعاليك) ومنهم (زملاء) له، يحوزون (المغاني) و(الشقق) و(الامتيازات) المختلفة، وحين لقي ربه، ترك أولاده في البيت المتواضع المستأجر من تلك السيدة، تملي شروطها على أبناء أديب ذي شهرة دولية.

ولو لم تهيئ له علاقاته السياسية السفر للعلاج في (باريس) لاستسلم من اللحظات الأولى لمرضه قانعا بعذاباته السابقة من الحياة، هنا كان على (التلفاز) أن (يهرع) لحواراته مع (ابن هدوقة) على (سرير المرض) في (المستشفى الجامعي) بالجزائر (العاصمة) كما (انبرى) آخرون على (شاشة التلفاز) يشيدون به، لكن معظم ذلك لم يبث إلا بعد (دفنه).. تاركا أبناءه للمصير المجهول، بينما ضمن (الانتهازيون) مصائرهم– ماديا– ومصائر أبنائهم...وربما أحفادهم.

لقد كان تكريم (الرجلين) في (المستشفى) التفاتة طيبة لفتت (الأنظار) فعلا ببعدها المعنوي، شاء لها البعض مع ذلك أن تبقى (ناقصة) فلا يبث كل ما جرى من أحاديث مع الرجلين إلاّ بعد الرحيل، حينئذ تشرع (باقات الورود) تتلاحق: إعلاميا، ونقديا في ندوات، وموائد مستديرة.. لتجسيد منطق (التمرة) و(العرجون) في مختلف أبعاده.

هذا المنطق هو الذي جعلني أرفض ثلاث دعوات متلاحقة، للمشاركة في ندوات (التمرة) و(العرجون) التي مورست على (المثقف) وجعلت جهوده

مجحودة ماديا دائما في الداخل، بينما لها كل الاعتبار خارج البلد: عربيا، وأجنبيا، بفعل ممارسات سياسية كانت دائما تعاني (عقدة النقص) تجاه (الثقافة) و(المثقف) فتلجأ إلى أنذل الطرق، اضطهادا وحصارا، إلا ما يفلت منها غصبا، لعوامل مختلفة.

فإلى متى المضي في هذا المنطق الأعوج: الذي يمارس سياسة (التمرة) و(العرجون) المطورة في شكل (التكريم) في (المستشفى) بحذر شديد؟

من هذه الرؤية ساورني بعض الندم عن حديث منحته للتلفاز (في ديسمبر 1996) لم يبث بعد (اكتب هذا يوم: 1997/1/5) عن أحد أعلام حركتنا الأدبية، من الجامعيين الذين هم على قيد الحياة، لم أتردّد في استقبال (الفريق) الإعلامي وهو يحضر إلى الجامعة، ويطلب مني الحديث، ظنا مني أن المشروع ثقافي أسبوعي، أو شهري، لكن سرعان ما ساورني (الشك) في أن العمل يكرر السيناريو في الحديث عن (بوزيدي) و(ابن هدوقة) خصوصا أن أستاذنا – حفظه الله – يعاني متاعب صحية! فأين كان (التلفاز) و(الرجل) في (الجامعة) منذ (1965) تخرج عنه المئات، وغمر المكتبة بعشرات الأعمال: كتبا ومقالات؟ أمدّ الله في حياته، بالخير والصلاح!

مهما يكن من شيء، ورغم المتاعب، بل المصائب يبقى (التكريم) في (المستشفى) خطوة معنوية، ومع كل عيوبه فهو أفضل من منطق (عرجون) عند الممات بعد استحالة (التمرة) في الحياة.

الجزائر، 08/01/ 1997.

(الاستثمار)
في (الأبقار) أم في (الأفكار)؟!

قادتني قدماي في فترات مختلفة إلى عدة مناطق في (الجزائر) كانت مناطق جهاد واستشهاد، ومنها انطلقت الثورة المسلحة على الاحتلال الفرنسي عبر فترات مختلفة توّجت بالثورة العارمة الشاملة، في سنوات (1954–1962) وفي مقدمتها جبال(الأوراس) الصّامدة للابتزاز عزة وإباء.

لا أكتم القارئ الكريم أنني، حبست دمعة عنيدة، وأنا على (الحدود) الجزائرية التونسية ذات يوم، عائدا من (تونس) براّ: أشاهد بؤس هذا الريفي حتّى سفوح (الأوراس) يعاني شظف العيش، من دون ماء ولا كهرباء، في غياب الطريق المعبّدة، وهي المنطقة التي أعطت الوطن أكثر من سواها بسخاء تام: فضلا عن جحافل الشهداء التي قدمتها المنطقة قربانا على مذبح (الحرية) المصادرة لصالح فئات إدارية وسياسية اغتصبت النفوذ، كما اغتصبت السلطة في غفلة الحب الوطني العارم، فألحقت تلك الفئات المجرمة كلّ الإذلال بالوطن الذي لم يلبث حتى شرع يحصد ذلك جملة وتقسيطا.

مع ذلك يصمد هذا الريفي النموذج العربي الإسلامي الأبي، يصمد في كبريائه، من دون أن تنهار من بؤسه معنوياته، وهو الذي قال في صيفنا (الحار) المنصرم (1996): لا للمرتزقة وعملاء أوروبا وأذناب الاستعمار، حين قرروا «ندوة عالمية للأمازيغية» في ولايته (باتنة) رفع صوته عاليا، رافضا أي انتماء خارج مجاله الحضاري العربي الإسلامي، وفي هذه المرة وأنا أقرأ (صوته) أعطيت الحرية للدمعة كي تنسكب، سعادة بهذا الإباء رغم المعاناة، وهو الصوت الذي وجد صداه من دون شك في عقل (رئيس الجمهورية)

ووجدانه، فاستجاب، صامدا لضغوط (خفافيش) أوروبا وغربانها، وعملائها ولم تحد من إرادته نعاق (الصحافة الفرنسية) في (الجزائر) وحاضنتها المربية المحبة في (باريس).

من هنا أدركت كم نحن في حاجة إلى (إعلام) قومي، وموضوعي، قوي صادق ذي حسّ بالمسؤولية الحضارية، ينهض به رجال من ذوي الكفاءة والعزم والحزم، المقرون بالصدق والوفاء والحب: لإعلان الحقائق كي يراها الرئيس والمرؤوس: فحص الداء والأدواء، بحثا عن التمكين لقيم العدل، والإنصاف، إنصاف أولئك الذين يعطون كل ما عندهم لوطنهم وأمتهم العربية والإسلامية في النهاية، من دون مَنٍّ ولا أذى، بل يندفعون وهم في قمة بؤسهم لمواجهة خصوم وطنهم، في عقر (السلطة) ذاته و(دواليب النّظام) نفسه حين يرون هؤلاء الخصوم يعلنون نذالتهم للنيل من انتماء وطنهم الحضاري، أو القدح في ثورته التي أجلت أقوى قوّة احتلالية في العالم (فرنسا الاستعمارية).

إنها رموز الصمّود والإباء الأوراسي، التي مارست في النهاية حقّها الشرعي الدستوري في فرض إرادتها، في التمكين للغتها العربية لغة رسمية، ودينها الإسلامي دين الدولة، ممّا جعل الصحافة الفرنسية في (الجزائر) و(باريس) تعلن حالة الاستنفار: فحفز ذلك حتى (البرلمان) الأوروبي يا لسخرية الأقدار! لإصدار لائحة يوم 12/12/ 1996يتأسف فيها على وضع الجزائر وإقرارها في دستورها «اللغة العربية لغة رسمية وحيدة» و«الإسلام دين الدولة» متبوعا بقانون رفع (التجميد) عن ؛ قانون تعميم اللغة العربية + ممّا يوعز أن أقطاب هذا (البرلمان) جعلهم ولاء المرتزقة لهم في صفوف (النظام) الجزائري وخارجه يحسون أن الجزائر، لا تزال (فرنسية) لكنها تحاول التمرد على (باريس).

دور الشرفاء والأغلبية المؤمنة الصادقة كان كبيرا في معركة الجهاد، ويبقى صوتها اليوم فاعلا في المواقف الحاسمة، وفي المنعرجات التاريخية، ولكنّه

كثيرا ما خضع ذلك وهذا للتضليل، والتّحييد، والتغييب أولا وأخيرا في فترات غفلة وتيه، ما كان لها أن تحدث لو توفّرت تلك الأغلبية المؤمنة الصادقة على منابر تغوص في أعماقها، وتعلن همومها فتعلي صوتها وتقدم لها مادة إعلامية صحيحة قوية، كما تنقل مواقفها وآراءها بموضوعية وصدق، وهذا ممّا شغلني أيضا وأنا أنتقل بين مدن في جنوب (الجزائر) الذي (لوّحوا) له بمشروع (الجنوب الكبير) فسعت (الخفافيش) لإجهاضه، لحسابات (جهوية) ومآرب شخصية.. قد (تنجح) كثيرا، وقد (تنجح) قليلا، فالنجاح مؤكد، تبقى فقط نسبة ذلك، لأنها خفافيش عوّدتنا على «انتصاراتها» في جنح الظلام بأساليب التمويه، وخطط التضليل، حتى يسقط المسؤول الأول والثاني وغيرهما في حبائل خططها من حيث لا يدرون، فتنتهي قرارات هؤلاء إلى غير ما نووا، وإلى غير الطموح الوطني، بل إلى مآرب (خفافيش) السياسة والثقافة والاقتصاد.

خلال حفل (مشوي) حضرته صدفة بالجنوب الجزائري الذي يلوحون له بالنماء ويصفونه بصفات العظمة: «الجنوب الكبير» مساحة وعطاء: لفت نظري الحرص على الاستمساك بالأرض وخدمتها، وتنمية الثروة الحيوانية والتنويع فيها، لكن إلى جانب الشكوى المريرة من عناء الاضطهاد (البيروقراطي) الذي تمارسه الإدارة على الفلاحين ومربّي الماشية، دون تمكينهم من وسائل (الزراعة) و(الري) و(الأعلاف) وما أشبه ذلك.

وتلوح مني التفاتة إلى حضن هضبة وجنباتها تعجّ بقطيع (البقر) فأقول لمجاوري المرافق: تكفي بضع بقرات من هذا القطيع – زاد الله في عدده – لتأسيس منبر إعلامي أو مؤسسة ناشرة! وتصل الإشارة كالبرق إلى ربّ القطيع أمامي، كنموذج: فكنت كمن يفتح دفتر الألغاز والأحاجي، والفلاّح يؤمن بالمباشر الملموس، العاجل، المضمون العائد ماديا.

كان علي أن أشرح فكرتي(البدائية) التلقائية عن إمكانية «الاستثمار» الجزئي للثروة الحيوانية في الميدان الإعلامي، الذي يمكنه أن يخدم المنطقة خصوصا، والوطن عموما، وهموم الإنسان الخاصة والكبرى أولا وأخيرا.

فقال صاحبي: ناهضا لوضع حدّ للأحجية (السخيفة) معلنا أن (الاستثمار) إنما في البقر.. (الاستثمار) الحقيقي في (البقر)!

فقال لسان حالي:صدقت هذا هو واقعنا وذلك منطق التخلّف، حتى ذوو المشاريع الثقافية حولّوها إلى مشاريع (بقرية). وحين تكون لي قطعان (بقر) سأطرح الفكرة من جديد للمناقشة، لتكون (الثروة البقرية) في خدمة الثراء الثقافي والفكري.. والبناء الحضاري.

ومع ذلك سينتصر المواطن الشريف الكريم الطيب، الطاهر القلب والسريرة على واقعه المؤلم، كما كان ينتصر دائما على أعدائه من الخارج، ومن الداخل.

الجزائر، 1997/01/15.

(فريد الأطرش) و(السلطات الفرنسية)!

لعلّ ألعن احتلال أجنبي شوّه صورة بلد ما.. هو الاحتلال الفرنسي في (الجزائر) الذي تكفّل بجعل (الزائر) المستعجل يقع في أشنع الأخطاء، في فهم العلاقة المتوترة بين الاحتلال والأرض وإنسانها، مما أدّى إلى أحكام سلبية خاطئة، لدى المواطن العربي نفسه.

قضى هذا الاحتلال أكثر من قرن وربع قرن (1830–1962م) جاثما على صدر وطن، لكن الوطن بقي صامدا، متشبثا بشخصيته العربية الإسلامية، رافضا كلّ أشكال الاندماج معه، مما يسهو عنه كثيرون من الذين قد يعذرون في سائر الأوطان الأجنبية،لكنّهم لا يعذرون في وطن (العرب) و(الإسلام) ومن هؤلاء أمير الشعراء (أحمد شوقي: 1868–1932م) الذي حلّ بالعاصمة الجزائرية في رحلة استشفائية، وكانت أول ساحة استقبلته حين غادر (الميناء) إلى المدينة: الساحة التي حملت بعد الاستقلال اسم: (بورسعيد) وقد كانت تمتلئ بماسحي الأحذية من المعذبين، من أهل البلد، يعرضون خدماتهم على الوافدين والفرنسيين المحتلين، فيعوّدون ألسنتهم على الفرنسية في منطقة أوروبية، تعجّ بالأجانب، وأشباههم عادة، فحكم (شوقي) على بلد كله من انطباعه الأول عن (ماسح أحذية) خدمه في تلك الساحة، فرأى أن البلد انتهى إلى (المسخ): ماسح الأحذية فيها يضيق بالعربية ويتكلم الفرنسية فكان لحكمه المتعجل أبعد الأثر في المواطن، مع ذلك أشفق هذا المواطن على (شوقي) وغفر له خطأه القائم على انطباع قاصر.

وحين انتقل (حافظ إبراهيم: 1871–1932م) إلى ربه (سنة 1932) رثاه شوقي بمثل قوله:

«قد كنت أوثر أن تقول رثائي».

لكنه لم يلبث حتى لحق به في السنة نفسها (13تشرين الأول 1932) فأبنّتهما معا في الذكرى الأولى (1932م) لوفاتهما (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) في تجمّع أدبي، خطب فيه (ابن باديس) معاتبا (شوقي) عتاب الشفقة والودّ، لا ضيق فيه ولا تحامل، فقال عنه: لقد «قدر له أن يزور الجزائر في شبابه، وينزل بعاصمتها للاستشفاء، ويقول عنها: ولا عيب فيها سوى أنها مسخت مسخا، فقد عهدت مسّاح الأحذية فيها يستنكف النطق بالعربية، وإذا خاطبته بها لا يجيبك إلا بالفرنسية، فاعجبوا لاستدلال على حالة أمة بمساح الأحذية فيها، ولا يجمل بي أن أزيد في موقفي هنا، على هذا، ولعلّ فقيدنا العزيز لو رأى من عالم الغيب حفلنا هذا لكان له في الجزائر رأي آخر، ويعلم أن الأمة التي صبغها الإسلام وهو صبغة الله، وأنجبها العرب وهي أمة التاريخ، وأنبتتها الجزائر وهي العاتية على الرومان والوندال لا تستطيع أن تمسخها الأيام، ونوائب الأيام».

ثم تأتي زيارة الفنان (فريد الأطرش) في السنوات الأولى من (الخمسينات) قبل اندلاع الثورة بقليل، فيحل بمدينة (ابن باديس) نفسها (قسنطينة) فيهرع المواطنون للقاعة المعدّة للحفل الفني، فتكتظّ بهم حنينا إلى النغم العربي والحس القومي، ولا يكاد يظهر (الأطرش) على (الخشبة) تغمره تصفيقات الترحيب حتى يبادر هذا بالقول «أشكر حاكم المدينة – الفرنسي – وأشكر السلطات الفرنسية» فكانت الصدّمة التي جعلت الجمهور المؤدب المهذّب بطبيعته ينسحب في هدوء تام من القاعة ليبقى فيها (الأطرش) وحده وصدى كلماته «أشكر السلطات الفرنسية» فلم يفرح بأبناء وطنه الذين دعوه ورحبوا به، بل بادر بشكر عدوهم الرابض على صدورهم لأنّه رخّص له، وربّما... استدرجه كما استدرج غيره من سابقين آخرين ولاحقين له، فكان احتجاج

المواطن احتجاج عتاب هادئ تاركا الفرصة للفنان ليصحح خطأه، لكن هذا لم يسم بمشاعره وبمواقفه فيعتذر لمواطنيه في أقرب مناسبة، بل أمعن في الثأر لما أعتبره إهانة لكبريائه حين غنّى « بساط الريح» فقفز (ببساطه) على اسم (الجزائر) من دون أدنى صورة أو كلمة، يكفّر بها عن خطئه، لكن المواطن كان أنظف فكرا منه وأسمى إحساسا فاستقبل أغنية (بساط الرّيح) بترحاب، تنطلق من مقاهي الوطن ونواديه، سعيدا بأسماء أقطار العروبة وأقربها: تونس (الخضراء) أخت (الجزائر) في (السراء) و(الضراء).

إنها الانطباعات العجلى والتصورات الخاطئة عن (وطن) صامد لشراسة (احتلال) منهزم في النهاية.

تلك التصورات جعلت معلّما من (مصر) الشقيقة ذات يوم يعدّل رأيه على الفور: فحين كانت بعثات المعلمين من بعض الأقطار العربية تصل (الجزائر) بعد الاستقلال للمساهمة في عملية التعليم، أسندت إليه السنتان (الرابعة) و(الخامسة) في التعليم الابتدائي،لأطفال أعمارهم بين (10و12) فكان درسه الأول في مادة (التربية) آيات قرآنية، مقترحة أصلا للشرح، والتفسير، لكنه كتبها على (السبورة) قصد (التحفيظ) قائلا: «سأكون يا أبنائي سعيدا بتحفيظكم هذه الآيات» فدارت رؤوس الأطفال، في حالة تساؤل، فقال: ماذا؟

– قالت فتاة في الحادية عشرة: سيدي أنا أحفظ القرآن كلّه!

– نعم! كيف؟

– احفظ الستين حزبا سيدي!

ثم توالت أصوات تلاميذه: آخرهم يعلن أنه يحفظ ربع القرآن.

فانهار تصوّره عن شعب قد يكون (مسخ) لغة، وعقيدة ونهض تصوّر جديد مشعّ غمره بالفرح من ذلك النوع الذي جعل زميلا له من (سوريا)

العزيزة يبادر بسلسلة مقالات في جريدة (الشعب) الجزائرية بعنوان رئيسي دائم: (تعلمت من الجزائر).

وهكذا فإن كان لشوقي في النهاية بعض (العذر) فلا عذر لفريد الأطرش وزهوره على رأس (السلطات الفرنسية) وتبقى التحية الواجبة لرسل الكلمة، وجنود الأمة، وذكرياتهم النبيلة عن وطن عانى، لكنه لم يمت تماما، كما لم يمسخ نهائيا،فقاوم بإيمانه متحصّنا بدينه، دفاعا عن لغته، وانتمائه في النهاية.

الجزائر: 1997/02/02 م

رغم ذلك .. شكرا لك يا (باريس) !

لقد كنت دائما أرى أنّ (فرنسا) أصل بلائنا في (الجزائر) قديما وحديثا، منذ أن انقضّت علينا في (1830م) فيالقها كالكواسر، في عزّ المدّ الأوروبي للسيطرة على العالم الإسلامي، وإخضاع الوطن العربي وإفريقيا. هي أصل البلاء سياسيا واقتصاديا وثقافيا واجتماعيا، إن لم نبتر معها الحبل السري الذي يريده البعض أزليا، ليستمرّ هذا البلاء وتتعاظم مخاطره العديدة.

وإن كان من حقّ (فرنسا) وواجبها أيضا التّموقع في كلّ منعرج للدفاع عن مصالحها (المكتسبة) فإن من حقّنا أيضا وواجبنا المؤكّد رفض خططها، ورفض فيالقها الجديدة التي صنعت وتركت.. وتعهّدت للنّماء والإثمار.

نملك من (فرنسا) الذكريات السوداء، هذه هي الحقيقة الأبدية التي لن يخفيها الوجه الآخر لفرنسا، في كلّ الظروف، هذا الوجه الآخر هو الذي كثيرا ما أربك إحساسي البادي في سلوك حضاري، بمواقف، حين يتّسع صدرها لمن ضاقوا ببلدانهم أو صارت بلدانهم تضيق بأفكارهم ومواقفهم الرافضة حتّى للتّبعية إلى (فرنسا) نفسها.

من هنا انبجست في الذّهن المفارقة التي أثارت احترامي وتقديري لفرنسا الحضارة والإنسانية، لا (فرنسا) الهيمنة والإبادة والتدمير.

تصدمنا المفارقة بين (فرنسا) التي نصوّب إليها سهامنا بعد ما أصابتنا في مقاتل فينا، وبين (فرنسا) التي نقدّرها، وهي تستقبلنا هاربين من البطش في أوطاننا التي نحبّها، وترفض الأنظمة ذلك الحب، بل تحتضننا (فرنسا) وترفضنا كلّ أقطار وطننا (الكبير) أو (الصغير)الذي نسميّه (إسلاميا) أو (عربيا).

من هنا لم يعد في مقدوري أن أنسى أثر تلك الرّسالة الأخوية، من أخ صديق فاضل أستاذ لامع بعلمه وقلمه، دافع في وطنه بالمغرب العربي الإسلامي عن العربية والتّعريب، ولم يشفع له إسهامه الجامعي والفكري ولا وطنيته أمام غضب نظام سياسي تحركه النزوات والأهواء، لا التقاليد الديمقراطية والأخلاق السياسية، فوجد الأخ الصديق نفسه مغضوبا عليه، جزاء حبّه وطنه، وجزاء إخلاصه لهذا الوطن والأمة، لا لنظام زائل.. بزوال رجاله. فأين الملاذ البديل لهذا الوطن الذي جعله النظام وطنا (جحودا) و(ضيقا).. فهفت النفس إلى الوطن الأكبر (عربيا) وامتدّ نظره وهمّت قدماه، وتحفزت حقائبه.. لكن سرعان ما انهار كلّ شيء، فأظلم الجوّ وقد سدّت في وجهه كل الطرق، كما أوصدت كلّ أبواب ذلك الوطن الأكبر، واستقبلته (فرنسا) مرحبّة «يا لعبث الأقدار ضاق بنا العرب واحتضنتنا فرنسا» احتضنته لاجئا عربيا مضطراً، بعد ما حيل بينه وبين كلّ تلك الأقطار التي يسمّونها (الوطن العربي) يسكنها (الشعب العربي الواحد).. (الواحد) عى ألسنة سياسيين (المتصارع المتنافر) في ضمائرهم، وبعملهم لذلك، وسلوكهم فيه.

أيّ إحساس أعظم بالمحنة القومية من رؤية أنظمة تزجّ في الصرّاع بأبناء الأمة، وتمنع أيّ تواصل، وتمضي قدما في إشاعة الريبة.. والتّآمر على حياة المواطن البريئ.

لقد غرس الإسلام الوحدة الروحية منذ فجره في دمائنا، حتى صارت أمرا طبيعيا عفويا في حياتنا، جزءا من تفكيرنا وسلوكنا، من دون نفاق ولا تهريج، حتّى جاء محترفو السياسة الانتهازيون المنافقون ليضربوها في الصميم، بأغراضهم وجشعهم طموحا إلى المجد والبريق لا توقا إلى رصّ صفوف أمّة تتآزر في السرّاء والضرّاء، ولا تتعاون على الإثم والعدوان، يلحق الأوطان والجماعات والأفراد.

حين كان المفكرّ – رمز المواطنة الحضارية – منذ القرن الثالث الهجري، في المغرب أو في (المشرق) يضيق بنظام أو يصطدم به يشدّ الرّحال إلى

جهات أخرى في وطنه العربي والإسلامي: فلا يشعر بغربة، ولا يلحقه ضيم، جواز سفره لغته (العربية) وعقيدته (الإسلامية).

هنا كانت روح الوحدة الحقيقية.. قبل أن ينطلق السياسيون السفلة حديثا خصوصا في تشويهها: فضاعت في حمّى اللغط الإيديولوجي، والتّهريج الغوغائي، في أنظمة تزعم إعلاميا عملا للوحدة، وتحفر لها في الواقع كلّ يوم قبرا.. عميقا.. موحشا.

لذا ضاقت بالأخ الصديق العربي الأستاذ الجامعي أرض العرب، واتسعت له أرض (فرنسا).. هنا (فرنسا) الحرية، لا (فرنسا) الاستعمار والهيمنة.

ولا أكتم القارئ أنّ رسالته التي جاءت في سياق الصلات الأخوية الودية: حرّكت حشدا من الذكريات السيّئة في الذّهن، يتصدّرها موقف في قطر عربي، رفع شعارات الوحدة وأخرج (مسرحياتها) السياسية، وذلك حين أقبلت عليه لأول مرة (ديسمبر1977م) باحثا جامعيا ذا شوق إلى وطن (القومية العربية) في (طبعة ملمّعة) اخترت فيه فنّا أدبيا، لم تسبق معالجته، للبحث فيه. حطت الطائرة في حدود الثامنة ليلا، وشرعنا نقدّم (جوازات السفر) فكان الأمريكي (المغضوب عليه!) والإيطالي والإنكليزي.. وغيرهم، يمرّون (بسلام) بشكل عاد رتيب.. أمّا حين وصل دوري ورأى (عون الجمارك) على (جواز سفري) اسم (الجزائر) فقد تغيّر كلّ شيء.. كمن مسّه الجنّ – لمواقف النظامين السياسيين من بعضهما في قضايا – وانهالت علي الأسئلة البليدة: – ماذا تريد؟ * أنا باحث جامعي. – أين تتّجه؟ * إلى الفندق بإذن الله. – من دعاك؟ * أنا باحث لم يدعني أحد. – بمن تنوي الاتّصال؟ * ليست لدي قائمة جاهزة، أزور المكتبات الخاصة والحكومية، والمراكز الثقافية، والجامعة، ربّما أتّصل بأمانة الإعلام.. من المؤكّد الاتصال بكتاب ومؤلفين.. وباتّحاد الكتاب.

– «قف هناك فيما بعد انسقدوك»...

وطار (جواز السفر) نحو مواقع خفيه.. ولكلمة «انسقدوك» دلالات في (الجزائر) استفزازية.. تختلف عن دلالتها في ذلك (القطر العربي) الذي أزوره لأول مرة ....

ثمّ كنت آخر من يغادر المطار من القادمين إلى آخر حافلة تتجه منه إلى المدينة.. التي لا أعرف فيها شيئا حتى فنادقها المكتظة، وكاد يكون مصيري قضاء تلك الليلة الممطرة في الشارع: في عزّ الشتاء، لأقضي نحبي (هنالك) في العراء، لولا لطف الله الذي قدر لي أن ألتقي مثقفا تونسيا تاجرا.. في تلك المدينة.

مع ذلك: لا نخجل من (التّهريج) المكشوف عن شيء يسمّونه بهتانا (وحدة عربية).. (وحدة) تغلق الأبواب في وجه أبناء اللغة والعقيدة الواحدة، وتفتحها على مصراعيها للأجنبيَ الذي نتظاهر بمعاداته.

من هنا يكبر احترامنا لضروب من تقاليد (فرنسا) الحضارية، التي نعاديها سياسيا لكنّنا نقدّرها في أكثر من جانب، وهي التي أفسحت مكانا للأستاذ المفكّر العربي الذي لم تتّسع له – يومئذ – أية بقعة في أرض العرب الواسعة.. و(عدوّ عاقل) خير من أخ أو صديق (أحمق جاهل)!

فمعذرة يا وطننا عربيا كبيرا.. ضاعت فيه آمالنا.. وتلاشت أحلامنا.. في القوة والمنعة.. والتعاون في الخير.. والأمن.. والحبّ والسلام.. وشكرا لك يا (باريس).. لأول مرة من القلب!

الجزائر، 1996/02/22.

(أدبــاء المـآدب)

أدباء (المهرجانات) و(الولائم) و(الزردات) السياسية التهريجية عرفوا عرسهم (الذهبي) في بعض الأقطار العربية ومن بينها (الجزائر) منذ مطلع سبعينات هذا القرن، حتى أواخر الثمانينات.

أقول (أدباء) تجاوزا، لأمر (العنوان) في هذه اللقاءات الزاخرة بالتفاهة، والرداءة، والانتهازية، بطابعها «الاستعراضي» بتحريض سياسي مريب، ممّا يجرّد أيّ لقاء تحت عنوان «أدبي» من أصالته، ويسلبه روحه، وهي ظاهرة استشرت إلى درجة الضيق بها، حتى صار (المهرجان الأدبي) أو (الأسبوع الثقافي) لا يعني سوى (طبل) يصحبه (مزمار) و(قفز بهلواني) بعنوان (أدبي) حول (موائد ممدودة) على (فرش مبسوطة) أو(كراسي مصفوفة) و(مآرب تقنص) و(صفقات) غير شرعية تنجز، على درب (الوصولية) و(الانتهازية) برعاية سياسية. ولسخرية الأقدار أنّها مناسبات (صنعت) أسماء لم تبدع في شيء خارج بطولة (البطون) في (المآدب) والصراخ في (الولائم) والظفر بالرحلات والمغانم، وهي ظاهرة شوهت الحياة الثقافية ثم اندثرت – والحمد لله – مع أواخر الثمانينات، واندثر معها أصحابها، أو معظمهم.

ذكّرني بهؤلاء أحدهم منذ أيام يطلب الالتحاق بمهرجان شعري في بلد خليجي بتموين حكومي، ولم يكتب في حياته قصيدة واحدة، ممّا أثار تساؤلي الذي لم يجد له جوابا حتى الآن، رغم أن المعني (التحق) أخيرا مدفوع التذكرة الجوية، و(المصاريف) الضرورية لمدة زمنية، بالعملة الأمريكية، من الخزينة (الحكومية). صاحبنا هذا هو الذي ذكّرني بالإ (أدباء المآدب) حيث كان يصنّف الواحد (أديبا) بمجرّد حضوره حول (الموائد) في ملتقيات (أدبية) ويرتفع شأنه بارتفاع نسبة الحضور حتى يصير (نجما)

أدبيا، وما أدراك ما (النجومية) في عالم اللصوصية والانتهازية، مع غياب (نص أدبي) واحد تخطه (يمناه) أو(يسراه) فلم أعجب يومئذ والحال هذه من جرأة هذا النوع وهو يقتحم كواليس (اتحاد الكتاب الجزائريين) نفسه الذي استحق بدوره حينئذ اسم (وكالة أسفار) في مهمات (أدبية) للخارج بأموال طائلة غالبا ما استفاد منها بعض من غرباء عن (الأدب) و(الثقافة) قلبا وقالبا، حتى وجدتني ذات يوم ضمن وفد فيه من لم يكتب نصا أدبيا واحدا، فيسافر (الوفد) إلى بلد عربي، ولم يكد أعضاؤه يصلون (المطار) حتى شرع عضوان فيه يتصارعان على الحديث باسم (الوفد) للتلفاز (المستقبل) في (البلد المضيف) ثم حدثت أشياء عجيبة، ممّا زهّدنا في هذا الاتحاد نفسه، وجعلنا نكتفي بالإبقاء الصوري على العلاقة ذات الطابع المهني الفكري.

حركة صاحبنا المسافر إلى (مهرجان شعري) في (قطر خليجي) غير مفصولة عن سياق عام اندثرت فيه مظاهر، شرعت تبحث لها عن حياة جديدة عبر النوافذ، ولو بشكل حيي، فهذا ملتقى جرى منذ أيام عن «الأدباء الشهداء» في الجزائر(1954–1962) وصلتني دعوته في اليوم الثاني والأخير من أشغاله حين كان (التلفاز) يقدم على شاشته في المناسبة ذوي سياسة وحدها، لا ذوي ثقافة وأدب معها، ولفتت نظري في برنامج الملتقى كما استلمته في الدعوة المتأخرة فقرة (الغداء) واضحة أي (مأدبة الطعام) ممّا أقحم بدوره في الذهن صورة لعتاب زميل صديق منذ شهور، حين دعيت أيضا إلى ملتقى فكري حالت للأسف دون الاستجابة إليه التزامات مهنية مبرمجة مسبقا في (الجامعة) وفي (الإذاعة).. فقال لي هذا الزميل:

– لماذا غبت عنا يا أخي، كان الجو لطيفا وحميميا، وحضره (فلان) و(علان)..

تمنيت لو توقف صاحبي هنا ليمنحني شيئا من الثقة، والهناء وبعض الطمأنينة، لكنه أضاف: كانت «مأدبة الغداء دسمة» توج ذلك «بحقائب جميلة ثمينة كهدايا».

إنّه منطق (المآدب) يعلن حضوره، وهو الذي أضيق به يا صديقي العزيز، حين تكون تلك (الغاية) والسيد الأول والأخير، بينما يقتضي المقام أن تكون (المآدب) مناسبة لتعميق الروابط الفكرية والروحية، وتنسيق المواقف فيما يخدم الفكر، والوطن، والأمة، ولا يبقى: بداية – ونهاية: لمآرب أيضا.

وجدتني مبكرا أنفر عفويا من أدباء (المآدب) للروح الانتهازية فيها، وحبّ الظهور غير الشّرعي، أهي طبيعتي التي عذبتني فيها جديتي، التي صرت أحيانا أيضا أضيق بها، دون الفكاك منها: فأبقى أتعذب في حبائلها، أهي (المبالغة) في جدية مدانة اجتماعيا، اختار لها البعض مصطلحا يحمل (اسما مؤدبا) تحت عنوان (الروح الاجتماعية) هذه (الروح الاجتماعية) قيمة إنسانية رفيعة جدا حين تجد نفسك في محيط يكسوه حديث القلب إلى القلب قبل اللسان، من دون بهتان ولا رياء.

لكن اللسان لدى الإنسان خصوصا في مثل هذه الحال، كثيرا ما (طال) في أفواه باطنها نار وبؤر دخان، هو أقرب إلى (دخان المزابل) العمومية، ومقابر النفايات الصناعية.

موقف الضيق بالزيف والنفاق، فيه عناء شديد، ومحاربته مكلّفة جدا فكريا ونفسيا، مع ذلك: فلا بديل عنه، ولا عن الرضى بما يترتب عنه، في حضور رضى الضمير، لأنه لا خيار غير ذلك، وهو رأي زميل آخر قلت له في لحظة عابرة:

– أنحن في حاجة للتدرب على «المداراة» لتجنب أذى المنافقين، والانتهازيين، والنجاة من (مخالبهم) و(مقالبهم) وكلاب حراستهم؟ فقال:

– ذلك أمر مستحيل، لنرض بقدرنا، هم جبلوا على أمر، تصعب منافستهم فيه، الخبث والنفاق طبيعتهم، ففي المواجهة الحل إذلالا لقيم الشرّ، وانتصارا لإرادة الصدق والإخلاص.

فأكد موقفه حقيقة أن «الطبع يغلب التطبّع» مهما حاول صاحبه.

وهنا أتقدم لأضع نقطة النهاية، مختصرا الموقف، وفي النفس أمل أن تلمع الأسماء الأدبية في وطن العروبة عموما بإمكاناتها من تلقاء نفسها، بفكر فاعل بنّاء، ولا تلمّعها عوامل خارجية، كي يندحر إلى الأبد (أدباء الموائد) مع كلّ الشرور التي تجلبها الأغراض والنيات، ويورق الأدب المبدع: زهورا وآمالا وأشواقا للخير والصدق والإخلاص.

لكن قبل أن أضع نقطة النهاية أوضح باختصار شديد أمرين اثنين، أولهما: أن ليس وراء هذا المقت موقف من أشخاص بقدر ما هو موقف من ظاهرة غير صحية، هي ظاهرة تشوه حياتنا الفكرية العربية، أما الثاني: فقد ذكرت «أدباء المآدب » وهو غير «أدب المآدب» أو «أدب الموائد» فأولئك صور صنعتها الاحتفالية المظهرية، أمّا (أدب الموائد) فإبداع بأقلام موهوبة أصيلة، أوحت به (موائد) غالبا ما حفّها الحبور والبشر الحميمي فهذا الاسم الأخير بشقيه إذن: موضوع آخر، آمل أن تتاح فرصة الحديث عنه بإسهاب، خارج زاوية محدودة الفقرات... ومع أطيب التحيات!

الجزائر، 1997/03/01.

أمــة.. (لا تقـرأ)!

طبيب في جراحة (الأسنان) ما أدخل عيادته إلاّ وحديثه أضعاف عمله، ومنذ أوّل يوم عرفته فيه: لاحظت عليه عدم التحفّظ في آرائه في السياسة، والفكر والثقافة، قبل أن يعرف شيئا عن ميولي، بل أمعن في ذلك حتى ونحن نصطدم في بعض الأمور، أهمّها أمران: (موضوع اللغة) و(العلاقة بأوروبا) فثقافته الفرنسية التَي تجعله في (خندق) الدفاع عن (التبعية) لفرنسا، تجعله أيضا من المدافعين عن (اللهجات المحلية) التي يسمّيها (لغات) لكن ذلك لا يبعده كثيرا عن الموضوعية، وهو يعلن موقفه الرافض مثلا للإجراءات التعسفية كما تمثّلت في وقف المسار الانتخابي للتشريعات في (الجزائر) سنة (1992) حتّى يكاد أحيانا ينسى (مرضاه) مؤثرا الحديث، والاستماع، رغم أنني من أضعف الناس في فن الكلام العام!.

افتتح الجلسة (الحوارية) بيننا ذات يوم بالحديث عن المفكر الجزائري (مولود قاسم نايت بلقاسم 1927–1992) وقد وجدني سبقته في (قاعة الانتظار) وبين يدي كتاب أقرأه، وأسجّل ملاحظاتي بين فقراته فاصطحبني إلى مكتبه وشرع يحدثني عن (مولود قاسم).. وسررت بحديثه الذي كان لأول مرة عن كاتب بالعربية، مما جعل تساؤلا ينمو في داخلي، لكنه سرعان ما تعرض لإجهاض حين تبيّن أن معرفته بالكاتب كان سببها أن الرجل سياسي، من زبائنه، فقال لي بنغم: هو مزيج إعجاب بدهشة:

– إنني كلّما شاهدته في (قاعة الانتظار) رأيته يقرأ، يقرأ أكثر من كتاب، مع مجلة، أو جريدة.

فبدا صاحبي كمن يتحدث عن (استثناء)! هو(الاستثناء) الذي بدا موضع عجب غريب لديه؟ وهنا موطن (عجبي) من (عجب)!.

أفلا يحقّ لك أن تعجب من حال أمة: أول ما نزل على الرسول (ص) فيها: قوله: ﴿ اقرأ ﴾ ليصير فعل القراءة ضرورة، وأكثر من (فرض كفاية) ألحّ عليها الرسول (ص) وهو يؤكد ضرورة الصبر والمعاناة في تحصيلها «اطلب العلم ولو بالصين» كرمز للمعاناة في البعد، فاقترن ذلك لديه (صلى الله عليه وسلم) بالديمومة دفعا دائما لغيوم الجهل وتبعاته «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد».

أمة أول ما نزل فيها من القرآن الكريم وحيا على نبيّها محمد (ص) الأمر بالقراءة: تصبح (حالة القراءة) فيها موضع عجب، أفلا يحق لنا أن نكرّر (العجب) من (عجب؟).. هو العجب من حال أمة عربية خصوصا، وإسلامية عموما، قد تنجز البطولات في الاستهلاك المادي: بدءا من فخامة البيت، وانتهاء بثراء في طعام ولباس هو حق لها، لكن المؤسف: أن ذلك يقابله عموما فقر مدقع لديها في القراءة. الاستهلاك المادي لا يقابله بالحجم نفسه والاهتمام ذاته استهلاك في القراءة، هذا بعض ما يفسرّ الوضع المزري، المخجل لحال القراءة والكتابة والنشر في عالمنا الإسلامي، ومنه الوطن العربي.

إذن صدق الوزير الإسرائيلي (موشي دايان) حين برّر عدم التحفظ وهو يعلن حقائق ونيات في مذكراته، قائلا ما خلاصته (لا خوف من استغلال العرب لما نكتب ونفكر) لأن «العرب لا يقرأون».

القراءة في حياتنا اليومية غائبا كعادة، وهاجس فكري حضاري، وفضول إنساني، ابتداء من البيت، وانتهاء إلى حيث شئت، مرورا بالشارع والمقهى ووسائل النقل.

فهل نسمح لأنفسنا أن نقارن حالنا بحال أمم أوروبية غربية لم ينزل فيها (أمر) إلهي بالقراءة؟

مطابع البلدان هنالك تقذف يوميا.. نعم يوميا.. إلى رفوف المكتبات ونواصي الشوارع عشرات.. نعم عشرات.. العناوين المختلفة الثرية فكرا

ورؤى، فيتلقّفُها القراء يوميا. حيوية النشر، وحيوية القراءة. استهلاك القراءة لا يتخلّف عن مستوى الاستهلاك في طعام ولباس ومسكن.

حيوية الكتابة، حيوية النشر، وحيوية القراءة، كل ذلك يعبّر عن مجتمع حي حقيقة لا مجازا، يقابلها لدينا (موات).. ومن كتم داءه قتله! فقد صرنا نرفض التوطين لعادة القراءة، وتتآزر مختلف العوامل لتبدّد حيوية الكتابة، ويبلغ التآمر ذروته عندنا حين تخضع عملية النشر المحدودة لضرب من «ميكانيزمات».. لا توطن عملية القراءة الهادفة، بل تشيع الرداءة فكرا، وأخلاقا، في منشورات إباحية.

ولا نلبث حتى تبيت (المجاعة الثقافية) حقيقتنا الدائمة، حين يضرب حصار.. دون وصول الكلمة إلينا، من شرق أو من غرب، بل يضرب حصار على تنقلّها بين أقطارنا: عربيا خصوصا وإسلاميا عموما، وهكذا تصير أمة (اقرأ) عدوّا لدودا للقراءة: ابتداء من السياسي، وانتهاء بالتاجر الوسيط.

صدّرنا في حضارتنا قيم (القراءة) لعالم جاهل، وحين صار (الجهل) قدرنا وحقيقتنا، رفضنا استيراد (عادة القراءة) مع استيراد التجهيزات والآلات.. وحتى الزوجات؟!.

هل نقوى على (مقارنة) بين وضع هنالك، ووضع هنا: هم يقرأون في (الحافلة) في (القطار) في (الميترو) في (الطائرة) في (المقهى) في (الحديقة) فضلا عن البيت، ومن نافلة ذلك موطن القراءة، في رحاب (ثانوية) (جامعة) أو حيث يسود الصمت.. إلا من صخب الآلات في الخارج.. في حضور الحس الحضاري وعادة (القراءة) في كلّ موقع.

بينما الصورة لدينا مقلوبة، ممزقة، مبعثرة، في حافلاتنا وقطاراتنا: عراك، وصراخ، لا يقل عنها في الطائرات، و(شتائم) و(صفقات) و(لعنات) في المقاهي و(الساحات) أمّا في البيت فحدث ولا حرج، بين الأزواج، وبين البنين، وبين هؤلاء وأولئك، وبينهم وبين (الجيران) وهلم جرّا، أما ساحات المؤسسات التعليمية (ثانوية) و(جامعية) فهي ساحات للتفاهة، والانحطاط

الفكري والخلقي، حيث يغدو التلميذ والطالب في تسكعه، وترنّحه أقرب إلى صعلوك (تائه) من قربه إلى (طالب قراءة) أو (علم) و(معرفة).

فهل نحن (خلَفٌ) ممّن (أضاعوا) ماضيا، وأكملوا عليه بالتفريط في حاضر، استعدادا للاستقالة من معانقة المستقبل؟.

من يزعم غير هذا فهو واهم أو مغالط؟ فكيف نزعم لأنفسنا الحياة وقد قطعنا الصلة بأسبابها، وأوّل أسبابها القراءة التي أمر بها ربنا نبينا.. لنثمّنها، لكننا زهدنا فيها، بل عاديناها، بينما استمسك بها غيرنا فأفلحوا، ومضينا نعيش على ما يبذلون لنا من قشور لسدّ رمق: انتظارا لقبرنا المغمور، وتجسيدا للمثل الشعبي الجزائري الانهزامي «نأكل القوت ونستنى الموت».

عادة القراءة وحيوتها فاصل بين عالمين، وحياتين يعبر عن نفسه صراحة بين عالم يعانق (الجوزاء) بروح دافقة، وآخر مستلق على الثرى في ابتذال مشلول الإرادة، كسيح الطموح.

ترد اللحظة على الذهن – والقلم يجري على هذه الورقة – صورة لموقف في (رحلة) للكاتب الجزائري (ابن العابد الجلالي 1890–1967م) إلى باريس حيث صوّر في (مقهى) لقاء بمرافقيه (الألماني) وزوجته، فكانت خلاصة الصورة لتجاوز رتابة اللحظة في المقهى: أن (الألماني) يكتب في دفتر مذكراته، وزوجته تقرأ رواية، فتعبّر ملامحها عن تفاعل مع الحدث، أما صاحبنا (العربي) فقد بقي يحدق في الفراغ! تائها بنظراته بين فضاء (المقهى) وبين الشارع الصاخب بالحركة، فبقي الركود قدره في عالم زاخر بالنشاط والحياة، أليس هو واحدا من (أمة) أمرت بالقراءة أساس الحضارة، فزهدت فيها عاجزة مستسلمة، واستمسك بها غيرها فاعلا، لهيبرّني له حضارة جبارة، قوامها الفكر والعقل الذي مدحه الله في كتابه الذي بدأ نزوله بالأمر «اقرأ» لنصير أخيرا أمة لا تقرأ، قدرها الجهل، ثم التخلف والتبعية، وهل فوق ذلك من مزيد: مذلّة وخنوعا؟!.

الجزائر، 1997/03/08.

نعمـة .. ونقمـة !

في مدينة (باريس) أواخر شهر أكتوبر (1983) جمعتني الصدفة وحدها بأخ عربي، صحفي من (لبنان) كان يعمل في مجلة (المستقبل) هناك، وإذاعة (الشرق) التي تبث برامجها من (باريس) فاستضافني في أحد برامجه بمناسبة الذكرى التاسعة والعشرين لاندلاع الثورة الجزائرية (1954–1962) وبعد الخروج من(الأستوديو) أخذني في سيارته الصغيرة ذات الحصانين طاقة (2CV) إلى حيث كنت أقضي أيّاما في إطار عملي الجامعي، فاستمرّ في الطريق حديثنا عن الوطن العربي وغربة أبنائه في (الغرب) وكان ممّا نزل على قلبي بضراوة موجعة تألّمه من أوضاع العنف الدموي والتدمير الذاتي في بلده (لبنان) ختمه بقوله: «أنتم يا أخي عمر عندما تخرجون.. إنّما لتعودوا، للأمن والطمأنينة، أما نحن فليس لنا ذلك، فقد باتت الغربة حقيقتنا، عن وطن تتناحر فيه مختلف القوى، فالعودة مستحيلة إلى وطن يحترق بأيدي أبنائه» حتى أسهمت كلماته في (أرق) طابت له صحبتي. أكمل الصورة بعد بضعة شهور مسؤول القسم الثقافي في مجلة (كلّ العرب) بباريس، وهو لبناني أيضا حين جمعنا لقاء بعد نشر موضوع لي في (المجلة) لكن هذا قال لي مبتئسا: «مع ذلك، لا بديل عن (لبنان) وسأعود قريبا» وعاد فعلا، لا لينعم، بل ليلقى ربه – رحمه الله – ولن تبرح ذاكرتي صورته البائسة، في ذلك اللقاء الأول والأخير.

وكلا الأخوين العربيين يعرف أسباب محنة وطن، كان جميلا: فصار جحيما.

كانت صورة هذين الأخوين العربيين يومئذ لا تزال عالقة بذهني ذات صباح: فجعلتني أقف حائرا أمام صورة أخرى مناقضة، عكست تبلّد الحسّ الوطني، وامّحى فيها الشعور الإنساني، صورة لثلاثة شبان من (لبنان)

نفسه، في حديقة الحي الجامعي بجادة (جوردان Bd. Jourdan) كانوا يجلسون غير بعيد عني، حين نفضوا أيديهم من صحيفة لبنانية مغروفة، تاركين إياها تلقى الإهمال، مبعثرة الأشلاء (على الأرض) بما تحمل من صور دامية، ودخان، وأنباء (قنص) واقتتال، وقنابل، وسيارات مفخّخة،تزهق الأرواح البريئة في (لبنان) لينطلقوا هم بمدينة (باريس) في قهقهات عربيدة، مصحوبة بحركات مبتذلة، وكلمات سوقية بذيئة، فبدوا في صورة قردة انقطعت صلاتها الروحية والفكرية بمعاناة وطن كان وضعه كابوسا على نفوسنا جميعا، ومنّا الأخوان اللبنانيان السابق ذكرهما منذ حين، فكأنّما أصرّت صورة هؤلاء الشبان على أن تكون لقطة مصغّرة لصورة لاحقة لسياسيين جزائريين: ما إن اشتعلت النيران في (البيت) حتى حملوا كلّ ما (خفّ) و(ثقل) معا ليستقروا في (أوروبا) ويتفرجوا (مقهقهين) بعيدا عن (صهد) نار، كان لهم الضلع الأكبر في اندلاعها، وتأججها.

شرعت أستعيد ذلك، وأتأمّله، وأفكر في طبيعته، ونتائجه: وضعا وإنسانا: منذ غرقت (الجزائر) في محنتها (الدامية) تلتهب نارا ودخانا، وتسيل دماء، بعدما كانت هذه الدماء زكية كريمة لا تسيل إلا (استشهادا) في سبيل (تحرير الوطن) وعزته. «ميكانيزمات»

فاحترت في أمرنا أهي (عين حسود) أسهمت في بؤسنا فأصابت أمننا وسلامنا وتعاوننا؟ أم هي (المؤامرات) المحبكة وحدها لضرب أمة سياسيا واجتماعيا وثقافيا، للإجهاز على إنجازات ثورتها ذات العمق الحضاري الأصيل.

أم هو قبل ذلك وبعده، بعض الامتحان الرباني لأمة كفرت بنعم الله عليها، فسلّط عليها « مترفيها» «ففسقوا» فيها، و«عربدوا» ونهبوا، ليغرق الوطن كلّه في الدماء تسفك بكلّ برودة، وعنجهية، وتبلّد إنساني.

لعلّها تلك الأسباب مجتمعة، لعلّ (للكفر) بالنعمة صدارة في ذلك، ليغدو الأمر «نقمة» في أرض طيبة وبها.. ربما.. «عبد كفور».. غير شكورا!

فهل لي هنا أن أذكر رأي ذلك (الشيخ) الوقور الأمي (حرفا) لكنّه الفاهم (فكرا) وهو يتحدث في ثقة المطمئنّ لحكمه، مستسيغا ما يجري كأمر حتمي، كان مقضيا في تصوّره، وقد عركته (التجارب) فقال:

– اسمع يا بني، لا تجزع، فليس لنا مفر من (حصد) ما (زرعنا)! فيتحول بعض (الآدميين) إلى (كواسر) فتملأ سماءنا (الغربان) ألا تذكر أيام (العزّ) التي كنّا نصبّ فيها الدعوات السلبية على هذا البلد لسبب ومن دون سبب! فأقبلت أيام (النحس) و(البؤس) تترى!

كنا حتى بداية (التّسعينات) نشتري (الكيلو غراما) من (السكر) بأقل من (دينارين) فصرنا نشتريه اليوم بأكثر من (ستين دينارا) كنّا نشتري (قنطارا) من (السميد) أو (القمح) بأقل من (مئتي دينار) نعم (200 دج) فصرنا اليوم نشتريه بنحو (ثلاثة آلاف دينار) نعم مرة أخرى (3.000 دج) حلّت الألوف محلّ المئات، كان (اللّيتر) من (الحليب) بدينار واحد، فصار اليوم بعشرين دينارا، في انتظار الزيادة الوشيكة، كلّ ذلك في أقل من ستّ سنوات.

كان مستوى المعيشة للمواطن مرتفعا جداً، كنّا نعيش (النعمة) ولا نحسها، ولا ندرك كنهها بفضل بلد معطاء بثرواته الصامدة للاستنزاف اللّصوصي بأيدي السياسيين العابثين، لكن كنّا بمجرّد ما تعترضنا صعوبات بسيطة في حياتنا اليومية تثير انفعالنا: ننطلق ساخطين، داعين على كلّ شيء بالدمار، وبمفردات من نوع: «هذه البلاد الله يعطيها بومبة» أي بالتعبير الواضح «أصابها الله بالقنابل المدمّرة» وبالتكرار.. مع النكران للنعمة.. استجاب الله لدعواتنا المجنونة، فصارت القنابل هاجسنا اليومي، كما صار ارتفاع الأسعار الجنوني حقيقتنا المحمومة، فتنام ليلا.. لتصحو صباحا على ارتفاع الأسعار بنسبة (مئة في المئة) أو (مئتين في المئة) كما تنام وتصحو على لعلعة الرصاص، ودوي القنابل، وأزيز المروحيات، وتلاحق الانفجارات، والسيارات المفخّخة.

إنّها (النقمة) بعد (النعمة) في (أرض طيبة) صار فيها الإنسان غير (شكور) هو الإنسان الذي بات (مجنونا) في محيط (سياسي) متعفّن ضال.. يرهب الآخر بلسانه أو سلوكه أو سلاحه، يعتدي، يقتل، يذبح، فضاع (شرف الإنسان) وكرامته، و(شرف وطن) ومهابته. وتوارى (الإنسان الجزائري) الشريف أو اعتزل مشدوها، دامع العين الفؤاد، أمام (سعار) سياسي وإعلامي، ومادي دموي رهيب، ولسان الحال هذه المرة يكف عن منطق «الله يعطيها بومبة» بعدما صارت القنابل حقيقة معيشة، ويتدفق بمنطق آخر: هو «الله يطفئ هذه الجمرة والمحنة» من دون أن يكفّ في علاقاته اليومية على القول صباح مساء «نحن بخير، والحمد لله» مترجما بذلك حسّه الديني الواعي هذه المرة، الداعي إلى شكر الله، في «السرّاء والضرّاء» عاملا للاستفادة من (العبرة) في هذا (العسر) متطلعا للبديل، ليشكر الله في (اليسر) كما يحمده في سائر أحواله وأوضاعه.

الجزائر، 1997/05/16.

(الإخوة) المضطهدة.. رحمها الله!

في الأسبوع الأول من شهر جوان (حزيران) 1996 كنت أشرف في (لجنة اللغة العربية وآدابها) على الامتحانات الشفاهية، في أوّل مسابقة وطنية للتبريز، حضرها أعضاء في اللجان من القطرين الشقيقين (تونس) و(المغرب) حين أشعرني مدير (المدرسة العليا للآداب والعلوم الإنسانية) بنية ثلاثة من الوزراء ذوي الصلة بالقطاع وبعض السفّراء لحضور حفل عشاء واستقبال تكريمي للجان الامتحان والمترشحين في المسابقة من بين أحسن أساتذة التعليم الثانوي ذوي الخبرة والكفاءة، فكتبت باليد على عجل إعلانا مطلعه هكذا: «الإخوة الأساتذة، والمترشحون، مدعوون....» وعلقته بين مجموعة (معلقات) ذات صلة بالمسابقة وانصرفت أتابع العمل.

لكنني حين مررت في مطلع الصباح من اليوم التالي لمتابعة العمل – وقد وصلت مبكرا – استوقفت نظري عملية (تمزيق) خفيف، في زاوية (الوريقة) استهدفت كلمة «الإخوة» واليد (الآثمة) التي مزقت (الإخوة) مزقتها بدقة وحذر، مع تمزيق هادئ بسيط لجزء من مطبوع إداري مجاور للتمويه.

توقفت قليلا عند الصورة، فمنحت نفسي فرصة للتأمّل الهادئ: أتبلغ (الشبهات) هذه الدرجة بكلمة (الإخوة) التي اقترن لفظها في أذهان بعض من ذوي النظر القصير باتّجاه معيّن، فباتت محذورة، محظورة أيضا، وموضع تساؤل دائما! إنّه البؤس عينه! أية يد نجسة مسّت ذلك؟ إنّني أكاد أحصرها.. وأربأ بأيّ مترشّح أو عضو في اللجان.. عن (الفعل) الآثم.

هكذا أمست كلمة (الإخوة) موضع (شبهات) في النهاية، بعدما صارت موضع (عتب) في زمن تسود فيه رداءة سلوك، وفكر وتفكير، وقد انحدرت القيم انحدارا سريعا مقيتا.

هذه الكلمة بمضمونها الإسلامي الإنساني كانت تحتلّ موقعا خاصا - أثناء الثورة الجزائرية - على ألسنة الناس وفي أفئدتهم، حتى باتت كلمة (الأخ) و(الأخت) البديل العذب لكلّ الألقاب التشريفية التي قد ترد بعدها أحيانا في قالب ثانوي للتوضيح.. والتحديد.. أو التّعيين: فعمّق نظام (الثورة) وقيمها ظلال الكلمة: فكانت بتلك الظلال نفسها موضع إعجاب استمرّ بعد (الاستقلال) السياسي، حتّى أنني حين زرت قطرا عربيا آخر وذكرت لمسؤول هناك اسم مسؤول آخر فيه مسبوقا بلفظ (السيد) اعترض قائلا: نحن نعبرّ بالأخ، فمنكم «أخذنا الكلمة أثناء ثورتكم العظيمة، وينبغي التمسّك بها» فحييته معتزّا، معلنا ما يشبه عذرا في ضرورة المراعاة لما يفرضه السلوك المؤدّب على ضيف في مجتمع لا يعرفه جيدا.

هذه الكلمة العذبة وهي تنساب على الألسنة بدلالات متطورة منذ الأيام الأولى للثورة الجزائرية كانت هي وحدها لقب التشريف والإجلال، وما بعدها ثانوي، يخاطب بها المواطن أعلى مسؤول في الدولة وأبسط عامل في التنظيف، يخاطب بها - حتى بعد الاستقلال - رئيس الجمهورية ووزير الدفاع والخارجية وسواهم، كما يخاطب بها النادل في مقهى أو مطعم أو غيرها، مثلما يخاطب بها ذلك المسؤول الكبير المواطن البسيط متبوعة باسمه الشخصي أو العائلي أو هما معا. لكن الانحراف الذي أصاب العقول والأفئدة سرعان ما امتدّ إلى الألسنة والأقلام: فصار بعضنا عرضة للسّقوط الظرفي، في هذا الانحراف، كما سقط البعض الآخر نهائيا.

فمنذ نحو عشرين سنة (منتصف السبعينات) - وقد كنت أسهم في ركن يومي بجريدة (الشعب) العمومية - كتبت عتابا لوزير أنبّهه لحال أجهزة لأكبر مطبعة في (إفريقيا) وصلت منذ وقت طويل وبقيت في العراء يأكلها الصدأ، وهو لا يحرّك ساكنا، وذكرت منصبه مسبوقا بكلمة (الأخ) لكنني فوجئت عند النشر بحذف كلمة (الأخ) وإحلال (السيد) محلّها: فتساءلت ببرودة: فكان الردّ الهادئ المهذّب: أنت تنقده ثم تخاطبه بلقب (الأخ).. ثم إنّه وزير، مسؤول سام.

فلينظر القارئ الكريم عمق الانحراف، وقد فهم صاحبي: أن (النقد) هو (انتقاد) مماً لا يعني علاقة نصح بقدر ما يعني علاقة (تشهير) فاستقرّ في ذهن صاحبنا أن (السيد) لقب ضروري في كلّ الحالات للتّشريف و«التأدّب» لا تقوى على تعويضه كلمة (الأخ) الخالية من (الزينة) المتجرّدة من كلّ أشكال (التبرّج) بينما المهابة الحقيقية والحب الصادق الخالد مكانهما القلوب، والخلود وسيلته العمل الجاد الصادق، لا الشعارات والألقاب الرنانة الزائفه.

هكذا امتدّ الوباء في كلّ الاتجاهات، حتى صار يدخل خلايا أجسامنا.. من حيث ندري.. ولا ندري أيضا.

ولا يفوتني.. في المناسبة هنا أن أذكر موقفا حزّ بعض الشيء في نفسي منذ سنوات يوم كنت أناقش رسالتي لدكتوراه الدولة في (جامعة الجزائر) فخاطبت أعضاء اللجنة الخمسة بكلمة «الإخوة الأساتذة» مقرونة ضمنيا بالإجلال والتقدير لمعظم الأعضاء: فكأنّ أحديهم لم يجد ما يناقشني فيه عن (الأطروحة) غير كلمة (الإخوة) فهو لقب لا يشبع غروره الأجوف، وكبرياءه العنتري، وطموحه للمجد سواء كان شرعيا أو وهميا، ولم ينج من (الأحبولة) عضو من أساتذة هذا الجيل الذين نعتزّ بهم، ونجلّهم كلّ الإجلال، وأحللناهم مكانة في القلوب، فرأى في التعبير بكلمة (الإخوة) انتقاصا من قيمة أعضاء اللجنة، واعتدادا مني جارفا.. للتّجاوز، ولخّص ذلك في قوله – مختصرا هنا: «أنت أمام لجنة تمتحنك» فكيف «تضع نفسك في مستواها».

إذن حضر منطق آخر يبتعد مسافات بكلمة (الأخ) الجميلة البريئة وقد جرّدت من عمقها الروحي ومضمونها الإنساني، فانفضّ من حولها كلّ المعجبين، إقبالا على (جميلة) جديدة (متبرّجة) في أزياء فاتنة.. تخاطب حسّا.. وغريزة.. وتوقا إلى التميزّ.. والتمايز.

حين كان الموقف.. مع الآخرين بقي أهون، لم تنقبض منه النفس كثيرا، لكنه عندما صدر عن واحد من (أساتذة جيلي) فهنا كان الألم في النفس

شديدا مؤلما، حتّى ظننتني في لحظة ما.. أنّني فعلا على خطأ، ولم يخفّف عني الإجماع في (القاعة) ممن استمعت إليهم بين الذين حضروا المناقشة: على هذا الانحراف..

أستاذي نفسه الذي كنت أجلّه ولا أزال أحترمه حتّى اللحظة – أمدّ الله في حياته – شرح لي مبرّره – هاتفيا بعد المناقشة في المساء نفسه – أنّه كان في الواقع يقصد إبعاد الكلمة في بحث علمي أكاديمي، ينبغي أن تطبع الموضوعية كلّ شيء فيه، وهو رأي لا يلغي نهائيا اعتراضه على الكلمة، لكنّه يبقى ضحية واقع لم يسلم من وبائه أحد، حتّى كاتب هذه السطور، ومن يزعم غير ذلك فهو مخاتل أو دجّال.

إذن.. «الأخوّة» هذه الكلمة.. (المضطهدة) في عالم تتفكّك فيه العلاقات، وتتميّع القيم مرشّحة للانسحاب نهائيا.. على الأصابع.. في صمت كمرج يعبق أرجا ويزخر ماء وخضرة، لتفسح المكان للقحط الكاسح.. وهو يجتاح الأفئدة والعقول والألسنة، ولن تبعث في هذه الحياة مختلف الألقاب التشريفية.. التي كثيرا ما تنطوي على تملّق ورياء، لا على حبّ ووفاء.

فعليك رحمة الله أيّتها الكلمة العذبة الجميلة المضطهدة، وطيب الله ثراك، وأسكنك فسيح جناته، بعدما ضاقت بك عقول.. وقلوب!

الجزائر، 1996/06/16

مدينة العرب!

هناك منطقة.. في شمال (الجزائر) عبرت دروبها، سنوات وتنقلت طويلا بين شوارع مدينتها الكبرى أو عاصمتها التي كان بعض فيها يسميها «باريس الصغرى».. حتى وهي (قرية) قدجيماً. وفي كل مرة كنت تحت وطأة إلحاح شديد للعثور على (شارع) أو (مؤسسة) تحمل اسما لمفكر أو شهيد من خارج المنطقة التي بدت لي منغلقة.. ولم أفلح في الاهتداء إلى ذلك. إنّها (تيزي وزو).

معظم الأسماء هنا «محلية» يلفت النظر فيها أيضا شيء بدا لي: مثيرا للتساؤل: فيما يتعلق بالمثقفين الأموات (من جهة) الذين أطلقت أسماؤهم على (مواقع) فهم من ذوي الولاء الفكري والسياسي لأوروبا، بينما ضرب (حصار) دون ذوي الحسّ الوطني، ليلتحقوا في القائمة بمن هم من (خارج المنطقة).. ولم أر هنا سوى اسم واحد من خارج «المنطقة» أطلق اسمه على (موقع ثقافي) بعدما نبذ هذا فكريا من منطقته في شرق الوطن بفعل آرائه ومواقفه المناوئة للبعد العربي الإسلامي في (الجزائر) المجاهدة عبر العصور تحت راية الإسلام الذي أزعجه، فقال يوما «أما آن لهذه المآذن أن تطير؟» إنّه (كاتب ياسين).

حتى المثقفون الأموات من المنطقة إذن ذوو الولاء الحضاري لأمة الإسلام تم تغييبهم: فبدت المنطقة كأنها على فقر مدقع من رجالها، وهي تطلق في المدينة نفسها اسم كاتب واحد على مؤسسة علمية (الجامعة) ثم أخرى ثقافية بجانبها، وليس بينهما سوى آلاف الأمتار، وهو معروف بجهوده الحثيثة من أجل إثبات أن (الجزائر) غير (عربية) ووجد في السلطة المحلية والمركزية منذ الستينات من يحميه، بل يدعمه.. من (فيالق) تركها الاحتلال الفرنسي متمثلة في «الطلقاء الجدد» وأشباههم الذين تعج بها الإدارة

الجزائرية.. فاستغلوا (مواقعهم) حيث تسللوا.. ليشيعوا قيم الفساد والإفساد.. السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي.

كنت تحت وقع هذه المشاعر وهي تنثال من الذاكرة وأنا أدخل إحدى بوابات الجنوب الجزائري، فكان أول ما شدّ انتباهي اسم لرجل سياسي، من المنطقة السالفة الذكر في شمال (الجزائر).. يتربع على واجهة مركز صحي، أطلق اسمه على (المركز) بعد وفاته (1993) ربّما لأنّه قال يوما «إذا خيرت بين الديمقراطية والجزائر فسأختار الجزائر».

هاهنا الوطنية في مدينة ذات فضاءات مفتوحة فكريا واجتماعيا ووجدانيا، الأمر الذي جعل إنسان هذه المدينة الكبيرة التي هي من أهم عواصم (الولايات) الجنوبية: ينتخب لمسؤولية مجلسها البلدي شخصا هو (طبيب عام) من تلك المنطقة (الشمالية) باعتباره (متعلّما)... فما أكبر الفرق بين موقف وموقف!

ثم أتوغّل في هذه المدينة الجنوبية.. إحدى بوابات الجنوب، متجاوزا اسم ذلك السياسي الجزائري على جبين (مركز صحي) دشن في 1993 لأجدني في صميم المدينة.. وقد شرعت أحسّ فيها بدفء حميمي عجيب، من خلال صور (التحيات) الأنيقة المتبادلة، والحرص على روح الانتماء لفضاء حضاري.. معلن، في الملامح والسلوك، لم يلبث حتى شرع يبوح بطبيعته، فهذا مسجد (الكواكبي) وهذه مدرسة حملت اسم الشاعر العربي (أحمد شوقي) وذلك (نادي جبران خليل جبران) وتلك (إكمالية ابن حنبل) تماما كأسماء الكتاب والشعراء الجزائريين: (الابراهيمي)(محمد العيد آل خليفة)(مفدي زكريا).. فأتوقف قليلا بالرصيف الزاهي بالمشاعر... قبل تلك الشجيرات التي مضت تزرعها الأيدي الفتية على ناصيتي الطريق، فأنطلق راجلا لبعض الوقت.. أجوس خلال الأماكن: فهذه (ساحة الخليج العربي) وتلك (ساحة القدس) إلى جانب (شارع فلسطين) و(مقهى بيروت) قرب (مطعم بغداد) يتوسطها شارع

(محمد الخامس) وغير بعيد (ساحة الرصافي) و(طريق القاهرة) و(مستودع دمشق) و(دكان صفاقس) وهلم جرّاً.

أتوقف بعض الوقت عند أسماء الشهداء الجزائريين تحملها شوارع معينة، فليس هناك انتقاء، إنّه (شهيد جزائري) وكفى، سقط في ميدان الشرف مقارعا قوى الاستعمار الفرنسي بشعار (الله أكبر) فهو من شمال الوطن، ومن جنوبه، من شرقه، ومن غربه، ولم يحل ذلك دون الشّهداء من الوطن العربي الذين سقطوا على أرض (الجزائر) في سبيل تحريرها، فضلا عن شهداء الإسلام الأوائل أمثال (عقبة بن نافع) في هذه المدينة المفتوحة على فضائها.. الطبيعي، حتى أحسستني من دون تفكير مسبق أسميها (مدينة العرب) تختصر لك الوطن العربي في أسماء ومعالم وأشياء، من دون أن تسهو عن إعلان واضح للأجيال اللاحقة أن تحرير الجزائر كان ثمنه مرتفعا، فلتكونوا في مستوى التضحيات التي بذلت من أجل أمتكم العربية.

(مدينة العرب) بدت لي كذلك وهي تصرّ على إحلال رجال الفكر والثقافة مكانتهم الأولى، إنّها إحدى قيم الجنوب الجزائري في تثمين القيم الخيّرة المستمدة من أصالته العربية الإسلامية.. فلم يفسح حينئذ حيزا معتبرا لأشكال الانتهازية والوصولية، في المتاجرة بأسماء مصطنعة لـ (شهداء) و(أقطاب شيوعية) كما جرت العادة في (الشمال) حيث تفرّخ القيم الطحلبية الانتهازية، فينخدع بها إخواننا في شرق الوطن العربي.

فهل أنهي الموضوع في (الشمال) كما بدأته إذن، بالحديث عن إحدى مدن هذا الشمال على مشارف العاصمة نفسها: وبدأ النقاش حول ثانوية والاسم المقترح لها، وكان من بين الأسماء التي جرى تداولها اسم المفكر (مالك بن نبي) والكاتب الإصلاحي السياسي (الفضيل الورتلاني) فطلبوا منّي كلمة عن هذا الأخير، عن مسيرته السياسية والعلمية، وهو الذي ناضل من أجل (الجزائر) والعرب والمسلمين، ومات في سبيل ذلك مؤجلا علاج دائه حتى

انقضّ عليه في (انقرة) سنة (1959).. وشجعت الجهة الملتمسة للمعلومات المطلوبة على إطلاق اسمه، على المؤسسة مادام لاسم (مالك بن نبي) وجود في مؤسسة أخرى.

ثمّ نسيت الموضوع في خضم الانشغالات حتى مررت ذات صباح أمام المؤسسة المذكورة فإذا جبينها ملمّع باسم (زبيدة...).

– من هي (زبيدة) هذه؟

أجبت نفسي بسخرية، لسخرية أقدارنا، حيث يلقى هنا (أعلام فكر) مصارعهم.. أمام زحف الشعارات البهتانية!

تبقى التحية الواجبة قبل وضع نقطة النهاية للمدينة الجميلة (مدينة العرب) الرائعة.. ذات الفضاءات غير المتناهية، حيث يمرح النظر في الآفاق الطبيعية المفتوحة أمام امتداد البصر.. في صحرائنا الجميلة الشاسعة، عذبة أنيقة تملأ أرجاء النفس سعادة وبهشراً وأملا..

الجزائر، 1997/03/05.

تغيُّب.. وتغييب !

منذ بدأ هذا القلم التّعامل مع الكلمة كمسؤولية، كان المبدأ ألاّ يكتب صاحبه إلاّ ما يؤمن به، ويعتقده حقّاً، ولا يرتبط برافد فكري إعلامي (صحيفة) أو (مجلة) أو (قناة إذاعية) إلا إذا أحسّ برابط.. ما.. فكري، يشدّه إلى هذه الأداة الإعلامية الفكرية أو تلك.

من هنا كانت صلتي الحميمة بأمّهات الصحف الجزائرية نفسها، منذ بداية السبعينات، بدأت في الأساس مع الصحيفتين العتيدتين (الشعب) اليومية، و(المجاهد) الأسبوعية، ثمّ شرعت تتّسع بتعدّد الروافد.. عربيا عموما، ومحليا خصوصا في الصحافة التي تسمّى (حرة) في (الجزائر) حيث كانت خيبة الأمل في النهاية، فأعلنت (الإضراب) عن الكتابة فيها، منذ (1994) كاحتجاج بالصمت، وإن بقيت العلاقات الأخوية قائمة مع بعض رجالها النزهاء الأوفياء، فبدا انقطاعي لإخوة أعزّاء لافتا للنظر: لذا كان سؤال (رئيس تحرير) جديد في (أمّ) الصحف الجزائرية (الشعب) مباشرا بعدما لقيته، ومعي مسؤول القسم الثقافي فيها: فتساءل الأول بين (الجد) و(المزح):

– أين أنت؟ هل (غبت) بعدما كنّا من قرّائك ومستمعيك أم (غيّبوك)؟

فقلت:

– هما.. معاً، تغيّب احتجاجا.. و(تغييب) انتقاما، الانتقام الرخيص.. المادي أو المعنوي أسلوب الجبناء حين يعجزون عن تبرير، وإقناع. ثمّ أنا لا أعمل إلاّ مع الرجال.. (الرجال) الحقيقيين.. وفاء وصلابة في الموقف، في منأى عن الأغراض الشخصية الظرفية.

الكاتب يحتاج إلى مساحة من الحرية الناضجة المسؤولة، مهما كانت طبيعة (الظروف الاستثنائية) نفسها، في منأى عن عبودية للنّفس،

وللإيديولوجيات المستوردة، وحريّته هنا جزء من حرية الوطن والمواطن «فالمرء لا يكتب للعبيد» بتعبير المفكر الفرنسي (ج.ب.سارتر).

من هنا كان موقفي إلى جانب الرجال الذي كتبت في صحف تحت إشرافهم، ففي عزّ الغطرسة العسكرية (البومدينية) كتبت في صحيفة وطنية عمومية ذات يوم في زاوية يومية (أنبه) وزيرا إلى إهمال يعانيه (عتاد) ثمين لمطبعة وطنية، تابعة لقطاعه، من منطلق وطني بعيدا عن أية حسابات قد ترد على ذهن (مريض) فكريا، فانهال حضرة الوزير على مدير الجريدة احتجاجا، وأكمل المسؤول المباشر عن (العتاد) العتاب للمدير، والشتائم يصبّها على رأسي، في رسالة طويلة إلى الجريدة.

حين دخلت مكتب المدير ذكر لي ما جرى، وهو يقدّم لي رسالة الشتائم التي صبّت على رأسي، من مسؤول (وطني) ولم يقل لي المدير «غب» بل قال تحديا للأنذال «دع الأدلة في يدي، وليصعدوا إلى السّماء السابعة».

أعلن ذلك من دون خوف على (منصب) تحت (رحمة) وزيره بجرّة قلم. صمدنا، قاومنا.. رغم ضآلة المساحة، ولم نتوددّلإ (بهتانا) لأحد، وحين يصل الأمر إلى المساومة على الموقف تأتي ضرورة (الغياب) احتجاجا على نيات (التغييب) أو بوادره.

لم يلبث (التغييب) حتى صار منهجا في أسلوب أنذال، بدأنا نعاني أشكاله مبكرّا، واطرد (بشعا) في زمن (الديمقراطية العرجاء المشوهة) منذ سنة (1989) ففرّخ (صحافة حرة) معظمها غامض الأهداف، ووراءه.. ما وراءه!؟

فلم أبادر إلى التعاون مع الصحافة (الحرة) حتى جاءني في (1992) عبر الهاتف صوت أحد طلبتي في مطلع الثمانينات، صار (مدير تحرير) في صحيفة خاصة، يعرض علي الإشراف على صفحة أدبية أسبوعية، مع تحرير زاوية رأي فيها، فهل أرد التماس طالب لي صديق عزيز علي؟ فوجد كتاب شباب وشعراء ناشئون مكانا لهم في الصفحة، ولم أتردد في إعلان موقفي بزاويتي، مما مهّد لغياب وتغييب، حتى اليوم (1997) يمارس بضراوة.. على

الصحافة العربية في الجزائر الصامدة، رغم المعاناة الشديدة، خصوصا تلك التي ترفض التضييق والابتزاز.. الذي – لسخرية أقدارنا – يمارسه حتى من كنّا نقدّر شأنهم ثقافيا.

وهكذا يتكرر موقف (السبعينات) في هذه الصحيفة الخاصة (مع وزير آخر) فقد عاتبت وديا (وزيرا للثقافة) لم يقم بعمل ما لدعم أسعار الكتاب، تصديرا واستيرادا، كما ندعم أسعار (الحليب) و(الخبز) فلم أعرّجض به، لكنني حاولت أن أقول له إن معظم العناصر في جهازك الإداري لا علاقة لها بالثقافة، فهو نقد نزيه، مبطن بالنّصح الأخوي، للخير العام، من دون مآرب.

لكن الوزير صب جام غضبه على الصحيفة ذاتها، عاملا لإلغاء حديث لها معه وعد به صحفيين فيها احتجاجا، ممّا مهّد (لانسحاب) مدير التحرير نفسه، ليخلفه (جديد) رتّبت أمور تعيينه ترتيبا! حدث هذا في صحيفة حرّة!؟ أو تزعم ذلك.

فلم تغفر لي القوى الخفيفة في هذا المسار أيضا ما بحت به في زاويتي صريحا واضحا أنه «تحكمنا بنات فرنسا» زوجات وخليلات لمسؤولين في مواقع خطيرة: كشفت الأحداث هول الخسائر المترتبة عن ذلك ولاء للأصهار والأخوال، بدل الأمة والوطن، مما كان يدركه المسؤول الأول في السلطة، منذ حكم (بومدين) الذي أخفق في (نية) الحدّ من سلطة (بنات فرنسا) في جهاز الحكم.

لم أحتج إلى وقت لأعرف أن الوافد (المعين) في (الجريدة) – الذي صار الآن في (خبر كان) – عميل لأجهزة (استخبارات أجنبية) – أقولها على مسؤوليتي – سرّب، لقمعنا، قمع عروبتنا، وتغييبنا فكريا وسياسيا.. ثم توالت الانهيارات.. في العلاقة بإعلام يصدق عليه المثل التونسي «ادخل يا مبارك بحمارك» وهكذا (غبت) مرتاح الضمير، بعدما شرع (الزبانية) يمارسون أشكال (التغييب) تنفيذا لإرادات شريرة، عملت لتشويه صورة وطن عظيم، ونظام أيضا.. يجتهد في إصلاح ما أفسدته قوى البغي.. فهل ينجح في إصلاح فساد استشرى؟

الجزائر، 1997/05/06.

تحيـة كاتـب.. إلى شاعـر!

لا أكتم القارئ حقيقة في قراءاتي، وهي أنني عموما لست من المولعين بقراءة الاستجوابات الصحفية، والحوارات ذات الطابع الفردي، إلاّ حين يتعلّق الأمر بقضايا فكرية جوهرية، مع أحد أعلام الرأي، أو يخص ذلك الأمر مفكرا أو أديبا لرأيه قيمة جوهرية، في الحكم على أشياء، أو في إضاءة جوانب من تجربته التي ستكون ذات شأن بالنسبة لمتخصّص، ذي صلة بالموضوع، دنت أو بعدت.

هذا ما حدث، وعيناي تقعان على محاورة الناقد اللبناني (جهاد فاضل) للشاعر العراقي (عبد الوهّاب البياتي) في عدد (مارس 1997) من مجلة (العربي) الكويتية، بركن «وجها لوجه» فقرأت صراحة في الجواب، لا تقلّ عن صراحة السؤال، ومن أهمّ ما في الجواب من صراحة أن الشاعر العربي الكبير لم يدار، ولم يدّع، فأعلن موقفه صريحا واضحا من بعض آفات استشرت في حياتنا الأدبية، حيث الفزع لمهملات أوروبا، والانبهار بالشعارات الرنّانة، والمصطلحات البراقة، مع خيلاء وعجب (إبليسي) في كل ذلك بالذات، حتى شيّدنا من حيث لا ندري (أصناما بشرية)، غير نافعة لا في حاضرنا العربي المأزوم المشوّه، ولا في مستقبله الغارق في الضبابية والتيه، بل ربمّا (العدمية) التي أسهم فيها إلى أبعد الحدود ذوو الدجل السياسي والأدبي والفكري والإيديولوجي الذين كان لهم (إسهامهم) المباشر في (تزييف) الوعي العربي، منذ الخمسينات، حتى مطلع الثمانينات، وقد مضى المشهد المأساوي يتسع أمام الأعين في الوطن العربي، الذي خدعته قوى السياسة (العرجاء) وبيادقها(المباشرة) و(غير المباشرة) فكريا وأدبيا، في التلويح بتقدمية، وحداثة، ووحدة، كشفت الأيام على أنّها (رجعية) حقيقية لا مجازا،

هي نكوص إلى الخلف مسافات، وضياع ما أنجزه رجال الحركة الوطنية في أمتنا العربية من حسّ وحدوي وتطلع تحرري ماديا وفكريا، فصارت (الحداثة) نفسها معطفا ودربا في آن معا.. لتمرير البهتان، و(تلميع) وجوه باهتة، لا تلمبع من تلقاء نفسها، تتآزر ديماغوجيتها مع (الديماغوجية السياسية) بحثا عن «الشعور بالنفوذ وبالأهمية النّاجمة عن النجاح الأدبي أو الفلسفي» كما قال (ريمون رويه) في «نقد الإيديولوجيات المعاصرة» كضرب من الدعاية لأعمال واتجاهات، لا يختلف شأنها عن شأن بضاعة كاسدة لا تروّج إلا بإشهار صاخب، مدروس، مركّز، خاطف للأبصار.

معظم الأسئلة للناقد (جهاد فاضل) كانت دقيقة ومباشرة، منها ما يتعلّق بالانتماء القومي، وبقطار (الحزب الشيوعي) الذي «كان وسيلة النقل التي أوصلت الكثير من الشعراء والأدباء العرب إلى الشهرة» في زمن (الفقر) الفكري والسياسي، و(تزييف الوعي الاجتماعي) فمن أولئك من نزل من هذا القطار في الطريق، ومنهم من مضى يائسا، أو منتحرا فكريا واجتماعيا: فإن تردّد الشـاعر قليلا في إجابته، فقد كان واضحا دقيقا في عمومها: فهو لم ينكر مروره بعربات (القطار الشيوعي) معلّلا ذلك بقوله «يكاد يكون جميع المثقفين العرب مروا..» به، «ولست وحدي من مرّ» لكنه يستدرك «مررت بهم، ولم أكن منهم، كما لم أكن ضدهم..... الكثير من الشعراء غير الموهوبين دخلوا في أحزاب كانت في السلطة، وكانت لهم سطوة على الشارع».

أما الانتماء، فهو «صفة كامنة فينا، في سلوكنا» لأن «العربي يسمّهي نفسه عربيا قوميا مثل العندليب أو الضوء يسمّهي نفسه ضوءا.... يكفي أنّي أكتب باللغة العربية.... وهذا يؤكّد هويتي القومية».

ومن الأسئلة الجادة التي (فجرت) صراحة (البياتي) وموضوعيته، وتواضعه، سؤال (الحداثة): «أنا أقرأ ما يكتب عن الحداثة، ولا أفهم شيئا منه. كنت أستاذا للغة العربية وقرأت التراث العربي قراءة جيدة، وأعرف الدلالية

في اللغة العربية، تماما، ولكنّي لا أرى هناك فائدة من هذه الكتب والأبحاث التي كتبت في العربية عن الحداثة.... أنا قرأت بعض ما كتب حتى عن شعري، ولم أستفد منه أيّ فائدة، فما بال القارئ؟ أضحك أحيانا عندما أتذكّر صديقا وناقدا أحبّه كتب أكثر من عشرين صفحة لكي يقرّر من خلال هذه (الخزعبلات) هل أنّ (عائشة) في شعري هي رمز أم أسطورة أم قناع؟».

ويختم (البياتي) صراحته المعلنة بالحكم على (أدونيس): «أدونيس يسعى في الغرب لنيل جائزة نوبل، ولكن جائزة نوبل تفقد مصداقيتها إذا أعطيت له، فهو شاعر من غير طينة الشعراء الكبار، وهو ظاهرة شاذة بالدرجة الأولى ...لا أفهم كيف يفهم القارئ الأوروبي شعر أدونيس إذا كان شعر أدونيس لا يفهم بالعربية، فهل يفهم بالأجنبية؟

إنّ تسعة وتسعين بالمئة أو مئة بالمئة من الذين يقرأون شعر أدونيس لا يستوعبون. تحدّث بعضهم فوجدت أنّهم لا يفهمون.... إنّي أتحدّى أن يأتيني أحد بشيء مترجم لأدونيس إلى الفرنسية، ويعيد ترجمته إلى العربية ويكون مطابقا للنص العربي».

هذه الصراحة والوضوح المبطنين بالموضوعية في الجانب الأدبي الفنّي، تمتد إلى الموقف القومي، حين يقول (البياتي) أولا: «أنا أنصح أدونيس إذا كان يريد أن يدافع عن الإنسان العربي ضدّ الظلم والجهل أن يضحّي بالقليل من راحته، ويواجه الظلم والشرّ الذي نواجهه في المشرق العربي [وفي المغرب العربي أيضا يا أستاذ!] لا أن يجدّف ضدّ التيّار، وهو جالس في باريس، ولا يتحدث عمّا يحلّ بنا من مظالم... العالم لا يحترم الخفافيش التي تختفي في الظلام، وتتحدث عن حرية مزعومة».

لهذه الصراحة، والواقعية، والموضوعية والتواضع وجبت «التحية» الصادقة للشاعر (البياتي) الذي لم (ينافق) في إعلان بعض آفاتنا الفكرية، ففي السبعينات هم (فريق) فكري في (أوروبا الشرقية) بترجمة أعمال

شعرية جزائرية (حديثة) ولم يكد يشرع في عمله حتى اكتشف أنّها أعمال (منسوخة) (ممسوخة) فألغى مشروعه يائسا.

خلال العشرية نفسها أقيمت للشاعر (أدونيس) أمسية شعرية في قاعة (الموقار) بالجزائر العاصمة، لم يمض فيها (أدونيس) كثيرا حتى شرع بعض جمهوره الجادّ ينسحب، وفي مقدمته الأستاذ (مولود قاسم) – رحمه الله – الذي أعلن وهو يغادر القاعة كفرا بكل هذا (الجديد) و(الحداثة) التي هي إسهالات مزمنة، لا يفقه علّتها أصحابها أنفسهم.

بينما حظي (البياتي) بفهم وتقدير في العشرية نفسها، حين أقام أمسية شعرية، في قاعة (النفق الجامعي) على بعد مئات الأمتار من القاعة السابقة، وعشرات الأمتار من (الجامعة) إلى جانبه المفكر نفسه (مولود قاسم) الذي صحبه حتى (المنصة) فأمتع جمهوره وأفاده، واحتفظ به حتى آخر لحظة.

بالصراحة، والجرأة، مع التواضع المقرون بالعمل فكرا وسلوكا: يمكن أن نحدّ من آثار التبعية الإيديولوجية، والمسخ الفكري، وتزييف الوعي القومي، والعبث الأدبي والفنّي لتقديم ما يعبّر عن واقعنا العربي الإسلامي، ويخدم مستقبلنا، وقضيتنا وجودا وتأثيرا، في عالم لا يحترم إلا الأقوياء: بإمكاناتهم الذاتية وحدها، وعبقريتهم الحضارية نفسها.

الجزائر، 199/05/19

(الشبكة..) و(الوساطة العربية)

أسمح لنفسي هنا باستئذان القارئ لهذا البوح الشخصي، فلعلّه لم يحيرني (لغز) كما حيّرني (لغز) خط (الهاتف) في بيتي، قل هما (خطان اثنان) أولهما قديم كان جاريا، وثانيهما (مبرمج) كخط للفاكس طلبته منذ 1989 ووعدته به الإدارة، غير أن مسؤولة بالمصالح التجارية ببريد (الشراقة) ذات الانتماء الحزبي اللائكي حرصت على إلغائه، وهي (جزائرية) بالبطاقة (فرنسية) بالولاء: لغة، وفكرا، وانتماء، وهي لا تبرز من (وراء حجاب) إلا نادرا، وحين (تطل) على (الجزائريين) تحتاج إلى (ترجمان) ينقل إليها ما يقول (جزائري) بالعربية، ويترجم له عنها ما تقوله بالفرنسية.

يبدو أنّها صدمت ذات يوم حين صرنا وجها لوجه، فرفضتُ أن يكون بيننا مترجم، فإن أبحث لنفسي أن أسمع منها مباشرة بالفرنسية، فلم أسمح لها بالمقابل أن تستنجد بترجمان ينقل عني لها، بالعربية – إصرارا على الموقف – مادامت قبلت (كفرنسية بالولاء) أو (الجنسية المكتسبة) منصبا في إدارة جزائرية ذات احتكاك يومي مباشر بالمواطن العربي المسلم.

كان هذا منذ (عشرة شهور).. البداية للدخول في دوامة هذا (اللغز) العجيب في مصالح بريد بالمنطقة في عاصمة (الجزائر) تدعى (الشراقة) وأدركت لأول مرة.. بكم يعجّ هذا (المركز الهاتفي) من (بوم) و(جرذان) و(قطط) و(خفافيش) التي يكبر خطرها بقدر ضآلة حجمها وقيمتها وموقعها، حتى أن نائب (المدير الولائي) لم يستطع أن يفعل شيئا لحلّ العقد المتداخلة، ممّا حثني على شيء من (التقصي) إشباعا لفضول شرع يتنامى داخلي، فبدأت أعمّق اتصالاتي، مقدما أمامي (رقمي الهاتفي) مستشعرا

المواقف وردود الفعل، فذهلت لأكثر من ظاهرة، فرقمي الهاتفي كذرة في كثبان رملية بات مقرونا باسمي في أذهان كلّ المسؤولين (الإداريين) من دون استثناء، وهم غير معربين طبعا، فبمجرد أن يقول (إداري) مسؤول عبر الهاتف لزميله: أريد أن نعرف الأمر في عطل الرقم (...)؟ فيأتي الردّ فورا: (آه، خط: ابن قينة) هكذا بكلّ الوضوح، حتى قال لي نائب (المدير الولائي) ذات يوم: إنّهم يعرفونك بالرقم من دون عشرات الآلاف.. وفي عينيه بدوره ما ينمّ عن حيرة، وعجب! وتوجّس!

تكررت الظاهرة مع المسؤولين في المستويات (الدنيا) من (جرذان) الإدارة و(خفافيشها) و(عناكبها).. فأعلنت لي قدرتهم العجيبة – رغم ضآلتهم –.. على التدليس، والنفاق، والمراوغة، فهذه المسؤولة (الفرنسية ولاء) تقول لي (ينبغي تحرير طلب) لتسريح الرقم القديم، واستبداله، والثاني يقول لي.. إنّنا لا نستطيع تشغيل جديد إلاّ بسحب بطاقة القديم، وثالث يقول: إن ذلك لا يكفي، فالأمر أكثر تعقيدا، وهو خارج عن صلاحياتنا ليغرق في الغموض، ورابع يعلن: إن الأمر يخصّ وزارة البريد، ليقول الخامس «ما أنا إلا بشر» أمّا السادس في الحضيض فيقول لي إن الحلّ في يده، أمهلني، فأدرك في عينيه إرادة (الارتشاء) وتمنيت إيقاعه في (الفخ) قبل أن يختفي إلى (الأبد) حين أدرك فشله، ويلوذ آخرهم بصيغة « أنا لا أدري»؟.. الأمر (عندهم هناك).

وبعد مختلف أشكال الاحتكاك بهذه المصالح من أعلاها إلى أدناها أحسستني مطوقا.. (بشبكة إرهابية إدارية) تحميها جهات معينة، وتسيرها، هي (شبكة إرهاب معنوي إداري) حقيقة قائمة تلوح ملامحها للجميع ويدرك أغوارها بعض، فيعلم أنّها إحدى (البؤر) الرابضة وراء ظاهرة (العنف) و(الإرهاب) بكل أشكاله (اللفظي) منها و(المادي) فبقينا في علاجنا للظاهرة (الأمنية) نتصدّى لنتائج (العنف) غافلين عن أسبابه وجذوره، ومن أهمّ جذوره هذا (الإرهاب الإداري) الذي تمارسه (قوى شريرة) من منطلقات شتى، ليس هنا مقام ذكرها.

هذه (الشبكة الإرهابية) في (الإدارة...) يجهلها كثيرون أو يتجاهلونها، ولا يقدّرون خطرها، على سلامة المجتمع، والأمة والوطن، وهي عاملة في الخفاء: مستغلة، انتهازية، مرتشية، ذات مآرب تؤمن بمبدإ «الغاية تبرر الوسيلة» للانتقام، واقتناص المغانم عبر العلاقات المنفعية.

في محيطي (الجامعي) أحسّ زملائي، وحتّى بعض طلبتي في (الدراسات العليا) بوقوعي في (براثن) هذه (الشبكة الإرهابية الإدارية) فتأسّف بعض، وسخط آخرون، حتى أن طالبة من (قطر عربي) في الدراسات العليا اطردت صلاتها اليومية بي استعدادا لمناقشة أطروحتها للماجستير اقترحت عليّ (وساطة أبيها).. – الدبلوماسي في سفارة عربية – فهو في مقدوره أن يتدخّل: فله صلاته بمصالح (البريد) إن حددت له المنطقة التي يتبعها خطّك، فضحكت بودّ من أعماقي قائلا: « هي وساطة عربية – عربية» أنا في خصام مع إدارة في بلدي، فهل أحتاج لوسيط من خارج الوطن، كي يصلح بيني وبينها..؟

مع ذلك أضفت.. لكنّها تبقى وساطة عربية. جميلة منطقية، وساطة عربية، تحت سماء عربية جزائرية، ليست كتلك الوساطة (الأوروبية) بين جزائريين تحت قبة (كنيسة) في (روما) الأوروبية.

لكنّني أكدت للطالبة الفاضلة الإخفاق المسبق للفكرة، فقلت لها: أعفي أباك من خيبة مسعاه، فلسانه العربي: يعلن تحيّزه لصالحي، مهما كانت الصلات النفعية.. التي تشدّ (الخفافيش) و(الجرذان) إليه لمآرب هذه (الخفافيش) و(الجرذان) و(العناكب) هي إرث قرن وربع قرن من الاحتلال ومن (مخلفات) فيالقة.. المنهزمة، فهم امتداد مدني قائم، لاستعمار عسكري أجزّلِيترّه بنادق الثوار، في ثورة العروبة والإسلام بالجزائر (1954–1962) التي أجهضت (قوى الشرّ العالمية) حلمها الجميل العذب الرائع! لكنّه سيعود بإذن الله، مهما طال ليل العناء والمكائد.

الجزائر، 1997/06/16.

(أدبـاء)
ومن دون أخلاق!

أعتقد أنني في غنًى عن تعريف (الأدب) ببعديه: شكلا ومضمونا، وعن (الأديب) كإنسان أولا، ثم كصاحب (رسالة) في أمته ثانيا، من دون أن يطغى في ذلك عنصر، على آخر: فيصادره. وفي كلّ الحالات: تبقى القيمة الفنية الطلية في الشكل، حميمية مع العمق الإنساني بكل ظلاله في المضمون: فيأخذ العمل طابعه الأدبي والحضاري، ومن ذلك يستمد الأديب (شرعية الحضور) كعنصر فاعل للخير، يؤصّل قيم الجمال والفضيلة والفن الرّفيع الذي يرقى بالذوق الإنساني، ويسمو بفكره وروحه، ومن البديهي ألاّ يتوفّر على ذلك إلاّ من اكتملت أدواته المختلفة: في التفكير، والتعبير، بثقافة تتحدّد فيها معالم الفضيلة والرذيلة، وبأداة تعبير وتصوير.. مع شعور إنساني رفيع يكون فيه الأديب خصوصا، والكاتب عموما في مجتمعه بذرة خير لتهذيب الذوق، وتأصيل القيم الخيرة، بلغة (جمالية) تنأى عن لغة (الصعلكة) و(المواخير) التي تتعاطاها حثالات المجتمع، من (سكارى) و(محترفي قمار) و(معتوهين). هذا بعض من تصورّ عام.. سريع مقتضب، بدا لي عن الأدب موضوعا، والأديب رؤية وموقفا، ولغة التيعبير والفن في كلّ ذلك.. تصورّ طالما صدم في واقع الكتابة و(الأدب).. بعدما بات خطاب (الإثارة) بكل ألوانها مطية لمجد (زائف) وكسب سريع، مما احتضنته الصحافة الرخيصة، بقيادة (صحافة الفضائح) التي تجتذب كل (عاطل) و(مشوّه) في فكره وأداته ونفسيته.

هذه الصحافة (الرخيصة).. دورها شنيع إلى أبعد الحدود في إشاعة القيم المنحطة، وتشويه الذوق العام، وبعضها يصعب على المرء أن يجبر نظره

ثانية واحدة على التوقف عند عناوينها (الخارجية) المثيرة، غير الأخلاقية، المعروفة في (الشوارع) و(المكتبات) وهي عناوين ذات تنوّع واطراد دائم: مما يخدش الحياء، ويثير العجب من صمت (سلطات!؟) عن ذلك حتى في دولة عربية، تزعم أن «الإسلام دين الدولة» وفيها (وزارة) للشؤون الدينية، وتعرف محاكمها قضايا (الإخلال بالحياء) بينما المخلّون بالحياء يمارسونه (جهارا نهارا) بالألفاظ الحارقة، والتّعابير المباشرة، كعناوين بالخط العريض الملون على صفحات (صحف) رخيصة، تجد لها (قراء) من (شذّاذ) المجتمع، تستفز ذوق القارئ، وتخدش حياءه، كما تشوّه صورة مجتمع، فضلا عن إشاعة الرذيلة، تموّنها أجهزة سرية جادة لضرب المجتمع في صميمه، وهي تقليد (متخلّف) زمانا وأسلوبا لصحافة (أوروبا) نفسها منذ (نصف قرن). فإن كنّا نحن نمارس (جريمة الصمت) ففي أوروبا (الحرة) تماما، و(المتحررة) بكل الوجوه وجد من يقف في وجه الرداءة في التفكير، والتعبير، كما فعل الكاتب الفرنسي، الحائز على جائزة نوبل للأدب (ألبير كامي) فقال سنة 1950: إن «السخرية والرذيلة والفضيحة تشكل عمق صحافتنا» (الفرنسية) معلنا أنه لو كان في موقع مديري هذه الصحافة لا يهنئ نفسه، فكل شيء مهين، شائن وهو ضرب من العبودية والإهانة التي لحقت الثقافة نفسها بمفهومها العام فبات «كل ما يهين الثقافة» كما يقول: «يختصر الطرق التي تؤدّي إلى العبودية، والمجتمع الذي يتحمّل ذلك يكون قد سقط رهين صحافة الخزي، وإرادة طالبي التسلية» الرخيصة، السوقية من بضعة آلاف من صحفيي المذهب الكلبي (Cyniques) المتشبثين بكل ما هو (فظ) و(قح) في التعبير، و(حشي عنيف) في التصوير.

وهو طريق العبودية، والذلّة، بعد تجرّد النفس من حسّها الإنساني السوي.

هذا (المذهب الكلبي) صار خطة عمل دائمة لدى بعض الكتاب الفرنسيين – من ذوي الجنسية الجزائرية أمثال (كاتب ياسين) – يكتفون بالكلمات

القبيحة، بالدارجة الجزائرية، يسجلّونها - عربية - بحروف فرنسية، ويتوقفون عند هذا الحدّ تقريبا، والصور (المخلة) بالحياء كانت غالبا ما تبقى محدودة في قالب يكاد يكون شفافا غير صارخ.

أمّا الآن فبعض ممن يكتبون (الرواية) بالعربية نفسها انخرطوا منذ اليوم الأول في (التعاونية الكلبية) فلم يترددوا في إفراغ ما في نفوسهم من صديد أمام أعين الناس، منذ بداية التجربة، سردا لمغامرات علانية تمس حتى بأعراض الآخرين (الصامتين) كصمت (أنظمة).. في منأى عن الطلاوة الأدبية التي توحي ولا تصرّح، واستمساكا باللغة الكلبية المعيبة (الفظّة) (الحارقة) بتعبير (كامي).

فالصوّر استفزازية متوحشة، واللغة مباشرة مبتذلة، تتخبط في ركام الأخطاء اللغوية والنحوية، فضلا عن التعابير العامية، والسقوط التام في أوحال اختفت فيها القيم الجمالية، والأبعاد الإنسانية، من دون أن يتعفّف (الكاتب) نفسه عن سرد (رذائله الشخصية) التي لا تعني أي قارئ سويّ.. يمارس (إفرازاته) المختلفة إشباعا لهواجس وأمراض في نفسه.

وأيّ شيء يمنعه من ذلك وقد تجرّد من كلّ القيم الأخلاقية العامة، التي تحدّد صلاته بالناس، وتفصل بين ما يتطلع إليه قارئ يبحث عما يمتع ويفيد، وما يخصّه هو وحده، حين يصاب بهوس، أو عندما ينزوي لقضاء حاجته، في دورة مياه.. لا يعني القارئ شيء ممّا يملأ فضاءها عليه.

مع ذلك فهو (أديب) رغم أنف الأدب، وهو نموذج أكتفي به على عجل من (أدباء).. من دون أخلاق، تجرّدوا من الحس الديني والوطني، والأخلاقي العام، استسلاما لنوازع النفس المريضة المشوهة، المتجردة من كل الضوابط، الخاصة والعامة، المستسلمة لعبودية (الهوى) و(النفس) و(الانبهار) بالقشور الوافدة منذ أكثر من نصف قرن.

ومهما يكن من شيء فإن كان للمعتوه الذي أصيب في كيانه الجسمي والنفسي عذره المرضي، فلا عذر لمجتمع (يصمت) عن (منكر).. ولا (لحاكم) لا يسهر على راحة الناس، ولا يحمي أذواقهم من التشوهات، ومن الأذى المتعدد الوجوه يصيب المجتمع: في حياته، وسلوكه.

لا عذر للرأي العام في صمته.. وسلبيته.. بعدما اتّضح أن أولياء (الشؤون الدينية) مشغولون بمراجعة (الأذكار) و(الأدعية) في (دلائل الخيرات) لدفع البلوات المحتملة، مؤجلين (العمل) لصدّ (الهجمات) القائمة المتعمدّة، لتصيب الناس في أخلاقهم، وحسهم الديني، وأذواقهم العامة المشتركة.

الجزائر، 1997/08/16.

(حسن التعلّم)
و(حسن المعاملة)..

«حسن المعاملة من حسن التعلّم» هذا الشعار.. كان يبرز على شاشة (التلفاز) الجزائري.. في بعض الفترات.. بالحرف والصوت مع صورة (للشرطي) في (حركة المرور) ينظمها، ويرشد صغارا وكهولا.. وذلك كإعلان للشباب من ذوي المستويات التعليمية الأساسية.. للالتحاق بمدارس الشرطة، كأعوان (أمن).. في النهاية.

لا أكتم القارئ أنّني حين كنت أشاهد ذلك الإعلان أبتسم بسخرية، ففي المناسبات التي أنتهي فيها إلى (محافظة شرطة) هنا أو هناك، لسبب ما.. من الأسباب الإدارية أساسا.. كنت أصدم فعلا بنماذج (بشرية) سلبية.. شرسة، مظهرا، ولغة، وسلوكا، ولم تغيّر الاستثناءات القليلة رؤيتي.. لأمر بسيط هو أنّ معظم تلك (النّماذج) قذفت بها ظروف طارئة.. إلى مواقع خطيرة.. تقتضي حسّا حضاريا رفيعا، وسلوكا أخلاقيا ودينيا ممتازا، غيابهما يحفر خندقا عميقا.. من سوء العلاقة.. وسوء الثقة بين رجل (الأمن) و(المواطن) ثم سوء الثقة، بين الشعب، والسلّطة (الحاكمة) في النهاية.

لذا كنت أقابل ذلك الشعار بما مضمونه «..لو التزمتم الشعار لكان الحال.. غير هذا الحال..» البائس ولن تمحّي من ذاكرتي صور شتّى سلبية.. من آخرها.. تلك التي كنت أغادر فيها (الجامعة) بسيارتي ذات مساء، فلم أكد أبتعد عن مبنى (الجامعة) بنحو مائة متر، ضمن الزحمة التي تراصت فيها صفوف السيارات.. حتى تفاجأت بسيارة مدنية رفيعة جداً، تقل (أربعة أشخاص) في (زي مدني) أنيق (!؟) تترك الرصيف في حالة مباغتة، بشكل

غير قانوني، ولم يكن في وسعي أن أفسح لها الطريق – تسامحا – فطلبت من سائقها التريث قليلا، فأصرّ بعجرفة قائلا: « تنح» فأجبته بهدوء: انتظر، فلم يتردّد في الضغط على الدواسة مستهدفا إياي مبرزا بيده اليسرى من الباب على ظهر السيارة في اللحظة نفسها (الإشارة الضوئية البوليسية) فتحاشيته بأعجوبة إلهية وقد تزامن إبراز (الإشارة الضوئية) مع حركته الاستفزازية المصحوبة بشتيمة بذيئة للذات الإلهية مقرونة بضمير المخاطب يتزلزل لها عرش الرحمن، فوجدتني مصدوما ذاهلا للحركة، وللشتيمة الزلزالية، ومع ذلك (حمدت الله) لأنني عدت من عتبة (السجن) في لحظة خاطفة، كيف لا والتهمة جاهزة: أنّني عرقلت مهمة « رجال الأمن» وتحديتهم؟ رغم أنّه لم يكن فيهم ما يوحي بهويتهم الرسمية التي تقتضي الأولوية.. فضلا عن مناورتهم التي كانت تدلّ على أنّهم كانوا في حالة سكر (والعياذ بالله).

لو وصل أولئك إلى سلك (أعوان الأمن) بمعيار«حسن المعاملة من حسن التعلّم» لما كانت هذه الصورة.. التي أعدت مضمونها على سمع (زميل).. فقال لي: هنيئا لك على السلامة، ثم أضاف: إنّي صرت أفسح الطريق لكلّ من يريدها.. بحق، وبغير حق، فأتخلى عن حقّي في الأولوية تحسبّا لهذا... وأعترف أنّني صرت أعمل بنصيحة هذا الزميل.. في انتظار أن يتجسدّ الشعار السابق الذكر في الميدان.

لكن من الأخلاق أيضا ألا نغمط الرجال الشرفاء في (مصالح الأمن) نفسها حقّهم.. رغم قلّتهم، في انضباطهم، وأخلاقهم العالية، وحسن سلوكهم الرفيع جدا، حتى والعدالة توكل إليهم اقتياد محكوم عليهم بالسجن، وما ذلك إلا من (حسن تعليم وتعلّم) حقا، ففي مقابل ذلك (الشرطي) الذي توعدّني (بالفرنسية) وكانت الشتيمة وحدها «بالعربية الدارجة» يوجد ذلك الشرطي الآخر المختلف عنه في لغته وسلوكه في النهاية.

وهي الصورة المقابلة الإيجابية التي أختم بها موضوعي، وقد عشتها صباح يوم من شهر أغسطس (أوت) حين أقبلت قبل منتصف النهار بمفردي

إلى سوق الخضر والفواكه في أحد أحياء (الجزائر العاصمة) بعد المرور بالجامعة، لجلب حاجة البيت الأسبوعية، وحين وصلت رأيت وضعا (أمنيا) غير طبيعي، فرحت أبحث عن مكان آخر غير المعتاد للسيارة، وما كدت أتوقف حتى كان على رأسي (شاب) في (زي مدني) وهو يطلب منّي عدم التوقّف.. من دون أن يقدّم تبريرا، ممّا فرض عليّ أن أستفسره عمّا جرى، وأبحث عن (مهمته). في تلك اللحظة وصل (شرطي) وقد لمح منّي رفضا (لأمر الشاب) فقال لي و(المسدس) يتدلى من (حزامه) و(الكلاشينكوف) متحفّز على كتفه: «أعطني الأوراق سيدي – أوراق السيارة – إذا سمحت، وحوّل السيارة من هنا إلى هنالك، وعد نسجّل المخالفة من فضلك».

لغته، وسلوكه، ومظهره ممّا طمأنني، فقلت له ممازحا: «أنت تأمر بتحويل السيارة من مكان يمنع فيه الوقوف إلى آخر الوقوف فيه ممنوع أيضا.. هل لتسجّل لي مخالفتين اثنتين.. أم أنّ في الأمر سرّاً أجهله؟»

في تلك اللحظة وأنا أحدّثه، وأقدم له أوراق السيارة كانت عيناه – وهو واقف على رأسي – تفلي داخل السيارة على عجل مستقرة على ملفات طلبة (الدراسات العليا) وبحوثهم، في المقعد المجاور لمقعدي، فقال: أنت (معُلّم)؟

– نعم..

ابتسم ابتسامة تجلّى فيها أكثر ذلك الإنسان الطاهر العمق، فقال:

– «معلّمي علّمني حبّ العلم، حبّ الناس، احترامهم، علّمني الانضباط، علّمني التواضع، حتى صار حلمي يومئذ أن أكون معلّما، لكنّني انتهيت إلى طريق آخر، لعوامل، ولا أزال أحبّ معلمي في (...) لست أدري أين هو، وكيف حاله، لا خير في بلد.. من دون علماء.»

أعترف أنّه بدا لي في تلك اللحظة أنّ الرجل سها تماما على أنّه (شرطي) و(غطس) سريعا.. حالما.. في (الذكريات) مع مسحة (نورانية) كست ملامحه قبل أن يقول، وهو يعيد لي (شهادة السياقة) التي سلّمته إياها:

– معذرة، يا أستاذ، تفضل، يحسن أن تضع السيارة إلى جانب المبنى هنالك.. بعيدا عن الإزعاج.

هنا ظروف طارئة، أعانك الله، وشهية طيبة عند الغداء.

فقلت في (نفسي): هنيئا لمعلّمك الذي أدّى رسالته التربوية كاملة، وهنيئا لك على حسن الاستفادة، فشكرته إذن، لفظا وحركة من دون أن أكتم إحساسي وأنا أقول له مبتسما:

– عليك يصدق شعاركم في (الإعلانات التلفازية): «حسن المعاملة من حسن التعلّم»

فضحك حتى ابتعد مني إلى الخلف مسافة خطوتين، ليعود يصافحني بحرارة وودّ مودّعا وهو يقول عن معلّمه «كثر الله خيرك يا عبد النوّر، وحفظك، أو رحمك»

وأدركت من السياق أنّ (عبد النور) هذا هو اسم معلّمه الذي علّمه العربية الأنيقة، لغة القرآن، وأدب السلوك، بينما علّمت لغة (فولتير) زميله السكير العربيد السابق الذكر.. عجرفة استعمارية، وشتائم (السوقة) وسلوك (الأراذل) في الحانات..

وتبقى «حسن المعاملة» صادقة دقيقة، من «حسن التعلّم» الذي يتجاوز الكلمات، إلى الأخلاق والقيم، والسلوك، وكلّ ما يقدم الإنسان إنسانا سويّاً.. يحترم الآخرين: فيفوز بتقديرهم واحترامهم.

الجزائر، 1997/08/24.

حريـة الكتابـة.. وحريـة الفضـاء !

حين قال لي رئيس تحرير جريدة (الشعب) الجزائرية ذات يوم وقد التقينا صدفة: «أين أنت غبت.. أم غيبوك» هوّنت عليه الأمر بالقول«غبت» إراديا. وهي الصحيفة التي جرى على صفحاتها قلمي أكثر من غيرها، بل إن أولى تجاربي في (المقالة) و(القصة) بدأت على صفحاتها منذ منتصف الستينات.

كنت مرتبطا روحيا بهذه الجريدة،وانسحبت مقدرا وضعها كصحيفة عمومية، شاءت أن تبقى.. مجبرة حاملة لرأي النّظام وحده، ولم تخرج عن ذلك إلا لفترات قليلة بتعدّد مسؤوليها خصوصا في السنوات (1989–1992).

كنت أحس أن انقطاعي عن الكتابة في الصحافة الجزائرية أمر يخصنّي، حتى وصلتني عدة رسائل على عنوان العمل، كانت آخرها (منتفضة) من مدينة بالشرق الجزائري، هي (باتنة) كلّها عتاب ولوم، وصل حدّ الاتّهام، فبقيت أبرّر موقفي شفاهيا، أو بالكتابة المباشرة، لكن ملاحظة استقبلها سمعي من أخ كريم في (قطر) العزيزة التي ارتبطت فكريا ووجدانيا فيها بجريدة (الشرق) تتلخص في صلة موضوع كتبته بالجزائر، ومتى كان الفرق لدي بين (الجزائر) و(الدوحة)؟ و(القاهرة) و(دمشق) و(تونس) و(الكويت)؟ فالآلام والآمال واحدة والمصير واحد مهما اختلفت (سياسات) أو (تصارعت) فالهم واحد. وأحسب هذا ممّا كان سببا في قرار التوقف عن الكتابة في (الصحافة الجزائرية) منذ (1994) مع الفارق في (الرؤية) فالصوت (القطري) كوجهة نظر أخوية صادق في نياته، ودي في إحساسه، بينما موقف مدير تحرير في جريدة (جزائرية) كان مدخولا جدا.

وعلي أن أوضح الموقف، في العدد: 203 من جريدة (الحياة العربية) الخاصة في (الجزائر) الصادر يوم (5 فيفري 1994) التي كنت أشرف فيها

على الصفحة الثقافية، استجابة لرغبة أحد طلبتي الذي كان مدير تحريرها، وأكتب عمودا نصف أسبوعي، كتبت في هذا العمود تحت عنوان (فرنسا) لا (قطر) أصورّ فيه موقفا من تشجيعات (سياسية) مدروسة في بعض المواقع السياسية بالجزائر للصلات بالأجهزة الإعلامية والثقافية والسياسية الفرنسية، وعوائق دون السفارات العربية عموما، انطلاقا من حكاية مواطن، آذته سياسة السوء ومن أبسط ما عبرت به «عجبا لم يكفنا عمق الروابط مع (فرنسا) فنزيدها تمتينا، ولم تكفنا هشاشة الروابط أو سوؤها مع أبناء جلدتنا فنزيدها انفصاما وتمزيقا».

وبدأت (المساومات) واطردت، وأنا أوجه عتابا لوزير (ثقافة) يصفق لدعم أسعار (الخبز) و(الحليب) ويلغي أيّ دعم للكتاب، بل يصفق لفرض الضرائب على (الكتاب) والكتابة.. فهي سياسة (التجهيل) والعداء للثقافة، بوجود غرباء عنها، في (قصر ثقافة) لا علاقة (لساكنيه) بالثقافة. النتيجة أن الوزير (المحترم) رفض في اليوم التالي استقبال صحفيين من الجريدة نفسها بناء على موعد مسبق قائلا: «أتشتموننا، ثم تطلبون حديثا معنا» منتهى البؤس! في منتهى الانحطاط في التفكير!.

فكّرت في الانسحاب، رافضاً أن أكون سببا في متاعب لجريدة، إنني أريد أن أكتب (بحرية) (للأحرار) من باب النصح الأخوي سعيا للتغيير، لا لأغراض شخصية، فالكتابة في جوهرها حرية، حرية مسؤولة، في وطن حر، والمرء كما يقول (ج.ب.سارتر) «لا يكتب للعبيد» لأن الكلام لدى الكاتب عمل، وهو رأي (سارتر) نفسه «نوع من التغيير، وأنّه لا يستطاع الكشف عن شيء إلاّ حين يقصد إلى تغييره» بالنصح المسؤول عن الموقف، رغم أن البعض يصرّون على عبوديتهم لأهوائهم المحدودة، ونزواتهم، ومن هذه العبودية تنطلق مكائدهم، أهي (المكائد) التي انتهت بمدير التحرير في (الحياة العربية) للاستقالة، وربما (الإقالة)؟ أعترف أنّه كان شهما، عرفت شهامته منذ كان طالبا في الجامعة، لا يهادن عملاء الإيديولوجيات. ومرتزقة

(الاستعمار) و(اليسار) على حد سواء، الذين كانت ساحة الجامعة حقلا خصبا لهم، لمغانمهم وشعوذتهم.

وإنّني لأدرك جيدا أنّ أعداء أمتنا العربية: أقوى منّا إمكانات، وأحكم تدبيرا وتآمرا أيضا، فبانسحاب (مدير التحرير) كنت أستعد لإنهاء علاقتي بالجريدة، بالتي هي أحسن، في خلال ذلك كتبت العمود بالعدد: 253 الصادر يوم 12 أبريل 1994 تحت عنوان «الفرنسية لغتنا وميتران خالنا» للرد على الناعقين باللهجة (الأمازيغية) لغة، في مواجهة (العربية) للدفاع في الواقع عن (الفرنسية) لغة (الأصهار) و(الأخوال) ورد فيه «المطلوب من خمس وعشرين مليون جزائري إرضاء لأقلية أن يقولوا (الفرنسية لغتنا)، و(ميتران خالنا) و(فرنسا وطننا) ليسكت الناعقون عن المناداة بالأمازيغية لغة رسمية، وأيّ غرابة في ذلك، وقد غرقنا في التناقضات، وقد أجهض حلم المجاهدين والشهداء الذين رحلّوا المحتلين بالأمس؟ أيّ غرابة في ذلك في وطن كثيرا ما سيرت شؤونه بنات (فرنسا) خلف أزواج وأبناء؟.... كانت (فرنسا) تسيّر شؤونها عبر وزرائها في (الجزائر) وبناتها، وبلغتها، والحرج قائم أنّ الدستور لا يقرّ ذلك، والقوم يريدون الاطمئنان على لغتهم الفرنسية، وخؤولة ميتران، تحسبا للمستقبل، هنا كانت مآسينا».

ويبدو أنّ آلة التآمر تحركت بسرعة، ليفد مدير تحرير جديد، عبر مساومات في (الكواليس) حين دفعت آخر مقال ضائع، آخذ فيه المثل الإيجابي من (قطر عربي) لألحّ على ضرورة الزوجة العربية، أو المسلمة بالنسبة لكلّ مسؤول مهما كان منصبه، ثم فوجئت باختفاء (العمود) في الصفحة، رئيس التحرير يقول: إنّه أخذه (مدير التحرير) وهذا يقول لا علم له، فكان علي أن أفهم، وأقطع العلاقة بمقصّ حاد، مضحّيا بكلّ حقوقي، فالكاتب الشهم يتعامل مع (الأحرار) لا مع (العملاء) ولا (العبيد) الكاتب يكتب لا لتزجية وقت أو ملء فراغ، الكتابة موقف ومسؤولية، قد يكون فيها الخطأ، والصواب معا،

لكنّها تبقى مسؤولية، تحثّ الكاتب على الإصغاء للرأي المخالف المقنع،لكنّه يرفض (العمالة) وأسلوب (القمع) و(الانتقام) فهذه لغة الجبناء، لغة من لا حجة له، ولا إقناع لديه.

إنّ قيمة الكتابة كقيمة الثقافة فيما لها من هدف، وأثر، وإلاّ فإنّه كما يقول (سومرست موم): «لا خير فيها أبدا» حينئذ كما يضيف « ليس في قراءة ألف كتاب خير أكثر ممّا في حراثة ألف حقل، وليس في وصف صورة وصفا صحيحا فضلا أكثر ممّا في معرفة العلة في سيارة متعطلة».

أليس من حقي، بل من واجبي أن أقاطع (صحافة) ليس لها غاية، غير (الابتزاز) و(العمالة) و(التجريح) الذاتي، انتقاما لا عملا مخلصا، وإن قاسيا للتغيير، فهي إمّا (عمومية مطبلة).. حقا وباطلا.. ربما معذورة.. أو (خاصة) تزعم (حرية) وهي مكبلة، ترسف في (الأغلال) لولاء حزبي، قد لا تجمعهما قناعة تبرر الولاء الشريف المتبادل. أقول هذا رغم إيماني التام بالقول: «أن تضيء شمعة خير من أن تلعن الظلام» لكن أين موقع تلك الشمعة، وقد حجزت كلّ الزوايا للغربان.. وقد غاب الوطن.. وغابت حرية الكتابة، وحرية فضائها، فالفضاءات المتاحة هي لأعداء الوطن ولغيرهم حرية مشروطة (مقطّرة) على حساب (قيم) و(اتجاهات) قومية.. في غير الصالح العام بالانتماء لفضاء حضاري، هي ليست حرية إذن، بل هي عبودية، وأشنع ضروب العبودية أن نكتب ما يتعارض وقناعتنا لإرضاء الغير، أو نندفع إلى كتابة (التسلية) وهذه هواية (البطالين) وقد أفلسوا فكرا، وأداة: فإما أن نكتب بحرية مسؤولة ناضجة، صادقة، مبرأة من الأهواء الذاتية، وإمّا أن نصمت، هذا هو رأيي.

الجزائر، 1997/09/02

الكذب والإشاعة
في منطلق الحملة (الانتخابية)!

دفعا للبس، كاتب هذه السطور لا علاقة له بالانتخابات للفوز بالكراسي، ولا (حملاتها) الحافلة بالغش و(الكذب) و(النفاق) وزرع (الإشاعة).. إلاّ كمواطن يدلي بصوته لصالح من قد يرى فيه (بعض الخير) لأنّ (الخير كلّه) مفقود.. فإن (غم عليه) كفّ.. وامتنع، ولاذ بصمت، من دون مزايدة، ولا ممارسة تأثير ما.. على غيره، حتى في أهله وأقاربه.. إلاّ في المواقف المصيرية التي تقتضي النّصح الواجب.. من دون ضغط، ولا إكراه.. حذر المهالك العامة، التي ينجرّ أثرها على مصير أمة ووطن.

فأنا حين أكتب إذن عن (الموضوع) فمن باب من (لا ناقة) له و(لا جمل) في (التنافس) على أصوات (الناخبين).. لكنّه تؤذيه في ذلك أشكال من سلوك هذا (الحزبي) أو ذلك، أو(منهج) تشكيلته الحزبية: حيث يغدو في منطقهم: كلّ شيء مباح، ما حلّ وما حرّم: دينيا وأخلاقيا، وقانونا وشرعا، (فتحل) الرشوة، و(يجّب) (الكذب) لأنّه المطية، كما (يجوز) النيل من (أعراض) الخصوم، ولا حرج من (التجاوزات) في خرق (القوانين) نفسها المنظمة للانتخابات التي يجري فيها (التنافس) على منصب.. أو كرسي! من أدنى السلم في هرم السلطة إلى أعلاه.. فعلى (الأخلاق) بين الناس كضوابط، و(القوانين) في العمل ككوابح: (السّلام).. المهم (الوصول).. ولو على أشلاء (قيم) وأخلاق عامة وخاصة، وضوابط مدنية وسياسية التي من دونها يغدو الأمر عبثا وفوضى.

لكن هذا ما تجنح إليه (قطعان) بشرية في ممارسة (سياسة) فتضيع المصداقية في هذه الحياة السياسية، فالذي لا يحترم الآخرين ولا القانون

حتى في ملصقاته، و(إشهاره) من أين له حس التشريع غدا، واحترام القوانين و(فرض) احترامها على الناس، فإن كان اليوم خارج سلطة التشريع والتنفيذ (يركل) القوانين، فهو حين يصير فيها سيبيح لنفسه تحريرها بيده حسب هواه، فإن لم تشبع هذا الهوى داسها بقدمهه... متفرجا... ساخرا من جماهير يسمّيها (العموم) أو هي (غاشي) و(غوغاء) تساق إلى حتفها كقطعان (النعاج).

في (الحملات الانتخابية) تغدو هذه (التجاوزات) نفسها مجال تنافس، ويعلو في ذلك صوت الكذب والإشاعة، من دون سهو عن الأساليب غير الأخلاقية، وفي مقدمتها (الرشوة) التي قد تأتي حتى في شكل (فنجان قهوة) ممّا يعبّر عن وضاعة (الراشي) فهو إن رشاك اليوم بفنجان قهوة ثمنه دنانير محدودة، فهو مستعد بعد وصوله.. أن يحول دونك ودون حقوقك الشرعية.. إن لم تدفع له (رشوة) بعشرات الآلاف من (الدنانير).

قد يتفطن (المواطن) لكذب هذا بوعود كان في مقدوره إنجازها وهو (بارك) في السلطة (ثلاثين سنة) فلا يثق بوعده بها وهو خارج السلطة، طامح إليها من جديد، يمارس الدجل والتدليس في قميص (معارضة) أو (ثورية) أو (ديمقراطية) أو غيرها، كما قد يتفطن لمزايدة غيره ممتطيا المراوغة والنفاق، وهو يقدم (وعودا) يعلم أن المسؤولية موضع (السباق) لا تعطيه الصلاحية للوفاء بها، لأنّها خارج الاختصاص، لطابعها السياسي، أو الوطني، أو سوى ذلك.

لكن المواطن قد يسقط ضحية (الإشاعة) التي يمارسها هذا الحزب أو ذلك (الحزيب) أو سواهما: أفرادا، أو تشكيلات (سياسية).. وقد يكون السقوط في هذه الإشاعة (حرا) تماما إذا أحكمت خيوط الإشاعة بمنطق «الغاية تبرر الوسيلة».

مورس ضرب من هذا في الانتخابات (الرئاسية) كما شهدتها بالجزائر، حين نشطت عناصر من تشكيلات سياسية، سرعان ما أخفقت، لأن الإشاعة

التي هي فنّ لم تضبط عناصرها، وأذكر أن (ضابطا متقاعدا) أي (محالا على المعاش) في الجيش برتبة (عقيد) حزّ في نفسه التقاعد قبل (الظفر) برتبة (جنرال) أجهد نفسه ليقول لي في نهاية (الجولات) وهو الأشبه بالأمي أن المشاركة في (الانتخاب) تكريس للاستبداد.. والديكتاتورية، وهو نفسه قد بنى (ثرواته) الطائلة من (البطش) و(الاستبداد) أيام (ديكتاتورية بومدين) على أكتاف الضعفاء والأبرياء منذ الستينات: فلم يستغل رتبته العسكرية فحسب، بل استغل اسم حزب (جبهة التحرير) يومئذ: فحاز باسمها (الفيلات) في وسط البلاد وعلى شواطئها، وامتلك المحلات التجارية، والإقامات السياحية، لكنه في النهاية يقول لي – أنا غير الحزبي – حرفيا: «حزب جبهة التحرير سبب خراب البلاد» وليس من أخلاقي أن أكتمه – أنا غير (الجبهوي) – في أن معظم الذين يلعنون هذا الحزب المسكين الآن: هم الذين « ربوا الريش، واللحم والشحم منه». وهذا ليس من الأخلاق، السارق، الراشي، الناهب لأموال الدولة والأمة يرتدي بذلة واعظ في الديمقراطية، وعند الفشل يلوذ بالإشاعة.

طويت صفحة هذا، لأكتشف صفحة جديدة، وأدرك يقينا هذه المرة عضويته في حزب مارس فيه إشاعة (الرئاسيات) لكن هذه المرة الإشاعة أحكمت عناصرها، فحققّت بعض النجاح، وهي تنطلق في أول أسبوع من شهر (سبتمبر) حين شرع الهلع يهزّ أحياء الجزائر العاصمة. فانطلقت جماعات مموهة تعلن مع منتصف الليل تصفيرا، ودويا، وتشغلّ صفّارات الإنذار إشعارا بمداهمة (الإرهاب) هذا (الحي) أو ذلك، فإذا خرج الناس.. للمواجهة: بفؤوسهم، وسواطيرهم وخناجرهم، والقضبان الحديدية في أيديهم: لم يجدوا شيئا، وتكررت الظاهرة التي نشرت الهلع، وجعلت أحياء العاصمة تعيش (ليالي بيضاء) وعلى السطوح تشرئب الأعناق ترقبا لأي وافد غريب، أو مهاجم تنبغي مواجهته، وصرعه، بل في لحظات الترقب، والتحفز تلك لم يقبض مواطنون إلا على لصيّن في حي استغلا الظرف. ضبطت الإشاعة في

جوّ (حدث) أو(حدثين) بضواحي (العاصمة) حيث أبيدت ظلما وعدوانا نفوس بشرية.. على أيدي قوى (الشر).

كلّ ذلك من أجل أن (يخضع) النظام لإرادة حزب أقلية سياسية وعرقية، وبشكل من أشكال التنسيق مع (عناصر دعم) في (الخفاء) لقوى الشرّ الظالمة، وهي تسفك دماء الأبرياء. ولم يخجل (زعيم) من الذين بنوا ثرواتهم العديدة من عرق (الثورة الجزائرية) وعلى (أشلاء سمعتها) من أن يكشف نفسه، فيصدر من (جنيف) منشورا إشهاريا متزامنا مع (الحدث) و(الهلع) الذي تصنعه الإشاعة موقّعا في (6 سبتمبر 1997) ونشرته (إشهاريا) بعض الصحف (الجزائرية) يوم (9 سبتمبر) يبتزّ به (النظام) و(يستنجد) من دون حياء ولا خجل بالأمين العام للأمم المتحدة، والاتحاد الأوروبي، ورئيس الولايات المتحدة التي صفعته عبر سفيرها، في تصريح صحفي، فانكمش كما ينكمش (كلب) تحت الصقيع المباغت. كشف هذا (الزعيم) الصنم (آيت أحمد) نفسه من حيث لا يدري أمام الرأي العام الوطني، الذي يبادر بسؤال بديهي؟ من أين لك أولا الإقامة الفخمة في (جنيف) يا (حضرة الزعيم)؟ من أين لك ذلك وأنت الذي لم (تعرق) يوما واحدا منذ كنت في العشرين من العمر؟ كما عرق الجزائريون، ولا عانيت صهد النار مع الاحتلال إبان الثورة (1954–1962)، بل كنت في (الصالونات) تنعم؟ ولم تبذل جهدا فيما كسبت كما بذله الشرفاء في هذا الوطن الذين يريدون أن يعيشوا من حلال أعزة كراما، لا من مال حرام، جعلكم تستولون على شوارع كاملة بأسمائكم في أوروبا، فتقفل هذه الشوارع نفسها عند الحاجة في وجوه المارين، تبعا لإرادتكم.

ثم يأتي (العقيد) المتقاعد (المعقد) من رتبة (الجنرال) الضائعة منه وهو أشبه بالأمي حرفا وفكرا.. فيقول لي أما رأيت: ما يجري؟ هذا هو النظام الفاشل، وكان من الخطإ أن ننتخب رئيسا، فحيّ إلى السلاح ندافع عن أنفسنا، أمام سلبية في نظام فاشل، لم يستطع حمايتنا.

وأعفاني من كشفه رجل قضاء: (قد تنطلي الحيلة بعض الوقت ولكنها ليست كلّ الوقت) رفع الغطاء، فانكشفت الإشاعة المؤامرة الرخيصة فعد إلى بيتك، ودع الناس وشأنهم.

ثم يضيف لي بعد حين: لقد أتقنوا الحبكة في هذه اللعبة، هم سبب البلاء أمس وغدا، وسيبرّقون الرابحين. هي سياسية اليهود، وسلوكهم، في مختلف جوانب الحياة.

وإذا لم تستح، فما شئت فاصنع. فهل يطرق الحياء قلوبا خلت من الإيمان؟ إلا.. الإيمان بمنرّطق الأنانية والمصلحة، ومنطق (الحملة الانتخابية).

الجزائر، 1997/09/09.

أطبـاء (جسـد) وأطبـاء (روح)

ظاهرة الإقبال الشديد على (الطب التقليدي الشعبي) باتت لافتة للنّظر، مثلها مثل اللجوء إلى (العلاج) بالرقية، ومصارعة (الجنّ) وطرده من (نفوس) بشرية هدّتها المعاناة، وأعيتها الحيل، للخروج من (شرنقة) نسجتها الشياطين، وأعدّها آدميون سحرة مجرمون، مكرة.. لا يخافون الله، ولا يذكرون قوله تعالى: «ولا يفلح الساحر حيث أتى» ما ظاهرة الإقبال في الحالتين إلاّ عربون نجاح فيما يبدو لدى (أطباء جسد) تقليديين و(أطباء روح) نجحوا فيما أخفق فيه (الطب الحديث) رغم إنجازاته العملاقة؟ أو أنّ هذه الإنجازات بقيت دون مناطق استعصى عليه ولوجها؟

نجاح (الطب التقليدي الشعبي) وكذا ما يمكن تسميته بالطب ذي الطابع الديني (الشرعي) وأيضا (المشكوك في شرعيته) تجسده هذه الطوابير في (عيادات) هؤلاء الأطباء، وصيدليات (أطباء النباتات) في حين قد يبقى الأطباء الرسميون المتخرجون من أحدث الجامعات يترقبون زبونا يدق الجرس، فيطلب استشارة.

وقد كنت مترددا في الواقع أمام أشياء كثيرة: منها كيف ينجح (طبيب) يعالج بالنباتات الطبيعية، ويفشل في ذلك ممارسوا الطب الحديث، بإمكانات ومعارف علمية، حتى شاهدت – عيانا – أحد هؤلاء الأطباء الرسميين: يصدر قرارا بتشخيص مرض لا شفاء منه، ويعلن آخر: لمريضة ثانية بعدما شاهد (الأشعة) التي حملتها له أنّ مرضها يقتضي عملية جراحية غير مضمونة النجاح، ولا الشفاء، فتعرض عنهما (المريضتان) إلى (صيدلي النبات) فيقدم علاجا نباتيا بسيطا للمريضتين، فلا تمرّ سوى أسابيع قليلة، حتى تزول نهائيا الأعراض لدى المريضة الأولى، لتصل إلى شاطئ الشفاء في النهاية،

كما تختفي الآلام تماما وتبعاتها لدى المريضة الثانية، فإذا توجّست هذه من أمرها وبحثت عن اليقين المادي انطلقت للقيام بأشعة سرعان ما تعلن لها في الحال زوال دائها. وليتصور القارئ الفرحة لدى المريضتين وأقاربهما، وأهلهما، وهما نموذج بالمشاهدة أكتفي به.

النموذج الثاني يخص أطباء (الأرواح) الذين تهرع إليهم نفوس أعياها داؤها، الخفي في باطنها: فانسحبت آثاره على من حولها: قربت صلة التعامل أو بعدت: تختلف وجهات هؤلاء أو قل تتعدّد، ومن هذه الوجهات (الرقية) الشرعية على أيدي مؤمنة طبعا، طاهرة تقية نقية، مع عطاء إلهي، كما يقرر ذلك أحد الفقهاء أنّ الأمر «ليس كسبيا، وإنّما هو عطاء تماما كالدواء يتناوله عدة مرضى فيجعل الله فيه الشفاء لزيد ولا يجعل فيه شفاء لعمرو» حيث تتركز العملية هنا على إبطال (مفعول السّحر) الغادر، في (الضحايا) الأبرياء وغير الأبرياء، وكذلك: إبطال (مفعول العين) الشريرة، ثم هنالك (المعركة الحقيقية) لإخراج (جن) أو (جنية) من نفس ضحية تلبست بها، فأفسدت عليها شأنها، وعقّدت أمرها أفعال (الجنّ) شرّ تعقيد، فيتسلّح (الراقي) بآي الذكر الحكيم لطرد (الغازي) الملعون، بالقوة الروحية (القرآن) والمادية، المكملة التي قد تصل إلى الضرب على جسد (المريض) نفسه، فيصرخ (ساكنه) أو (ساكنته) إعلانا للمعاذير، وبحثا عن ملاذ، وقد يفرّ (الجنّ) أو (الجنّية) فرارا، وهنا (الراقي) يقوم بمهمته على أحسن ما يرام حين يكون أهلا لذلك، فإن رأى أن يد القدر قد أنشبت أظافرها في الضحية لقرائن كفّ عن أيّ عمل، فهذه المصروعة التي حملت حملا لراق تعصف بها القوى الشريرة: سرعان ما قال لذويها أعيدوها للبيت، دعوها ثلاثة أيام كاملة، فإن لم يتغيّر حالها احملوها، لي: فكان حكيما في أسلوبه، لأنّ روح الضحية انتقلت إلى باريها، في مساء اليوم الثالث.

وأعتقد أن هذا عمل إنساني مباح شرعا وقانونا، ومجد واقعا، رغم محاولات الإنكار وحتى الاستنكار لدى أطباء، في أعرق المستشفيات، رغم أن بعضهم

ذهل فعلا بالمعاينة للنتائج التي حققّها (الطب الروحي الشرعي) على يد مختصين أطهار، لكنّ رجال (الطب الحديث) يقولون مع ذلك: إنّها ضدّ العقل، كما يروي (وزير) شاب في حكومة جزائرية كان يعالج حالات (سحر) و(جن) فاستدعى لمتابعة الموقف أحد الأطباء، يقول له هذا في النهاية، ما خلاصته: (حقا، لكنني لا أكاد أصدق، فالأمر ضدّ العقل) ومتى سيطر العقل على كلّ شيء؟ أليست هناك قوى تتجاوز محدوديته، من دون (دجل) ولا (شعوذة)؟

لكن هناك (مستوى آخر) من هذا الضرب العلاجي (التقليدي الروحي) وهو ما قد يختلط فيه (الجائز) شرعا، و(غير الجائز) فهنا يستعمل (القرآن الكريم) لشفاء المريض، ويشفع بأعمال أخرى ذات طابع (سحري) لإبطال مفعول (سحر) أعده مجرم أو مجرمون أو إبطال مفعول (عين) حسود أو إخراج روح شريرة سكنت نفسا بريئة. وسمعت هنا ممن لا أشك في صدقه لحظة أن «طبيبة راقية» دخلت في (معركة ضارية) مع (جني) سكن (امرأة) ونسختان من (القرآن) واحدة في يد (المريضة) والثانية في يد «الطبيبة» وكان لحظة طرده – مستعينا بلسان ضحيته – يردّد أُغنية أردنية طالما تموجت في البيوت الجزائرية منذ سنوات، بالصوت نفسه، معلنا أن موطنه الجنوب، فأين المفرّ، حتى خرجت (المريضة) تسحّ عرفا، وقد غادرها ساكنها.

ورغم الشبهات (غير الشرعية) القليلة هنا تبقى هذه الحالات فيما أعتقد إيجابية، لأنها تمحو آثار الإجرام الذي يُمارسه المجرمون (السّحرة): نساء ورجالا على ضحاياهم، وهؤلاء (الأطباء) أنفسهم يعلنون (خطر السحرة) على الحياة الإنسانية، ويعلنون لمرضاهم الحذر، ويتجنبون في الوقت نفسه أن يعالجوا (السحر) بالسّحر، كمواد، وأبخرة وما إليها حيث تبقى العمدة الأساسية في ذلك (آي القرآن الكريم) بشروط دينية، تجنّب (المعالج) و(الضحية) شبهات (الشرك) و(الدجل).

هذا المنهج صار يميل إليه حتى بعض الأطباء (المتخصصين) كمرضى، أو كمعالجين من (أطباء رسميين) خضعوا للعلاج بالطب التقليدي، و(علماء نفس) جيمبعني بأحدهم اللقاء عرضا وهو متخصّص في (علم النفس) فتحدثت معه في هذا الموضوع، وهو من أسرة دينية كما أدركت سريعا في حواري معه، فقال لي: نحن في (زاويتنا) لم نستعمل قط أساليب العلم الحديث رغم أنني متخصص في (علم النفس)، إنما نسخّر إمكاناتنا الدينية، في معالجة (أمراض النفس) والمسّ من (الجن) فيتماثل المريض للشفاء فورا بالآيات القرآنية المقرونة بحركات وأصوات ذات بعد تقني نفسي ضروري.

إنقاذ ضحايا (السحر) و(العين) و(الجن) وحتى بعض أمراض (النفس) إذن من المناطق التي يبدو أنّها ستبقى مستعصية، أو مجهولة لدى رجال (الطب الحديث) فانتصر عليها (أطباء الروح) بالحكمة الإلهية، كما انتصر بإمكاناتهم واجتهاداتهم وعلمهم أيضا وخبرتهم (أطباء النباتات) فيما وقف دونه (رجال الطب الحديث) فهل هي (عودة إلى الأصل) قوية مؤثرة؟

فلا عجب إذن أن يهرع المرضى (لأطباء جسد) بالعلاج الطبيعي، كاندفاعهم لعلاج أمراضهم الروحية والنفسية لدى (الرّاقين) وأشباههم، مهما التبست الأمور، فاختلطت ضروب من (الدجل) بالحكمة الإلهية، في الآية القرآنية، من آخر مواقع اللبس أن يعالج (دجّال) السم بأدواته (التدجيلية) العجيبة، وقد عرضه (التلفاز) الجزائري يقضم (أفعى) بأسنانه، متلذذا وهي تتلوّى ألما بين أسنانه وقبضتي يديه، قائلا إنها تحتوي بسمها ولحمها وشحمها على (فيتامين: ..C) ويبقى الفرق بين العلم والدين والدجل دقيقا، وإن كان واضحا، كالفرق بين الحق، والباطل لمتلبس بالحق.

كما تبقى الحقيقة الماثلة أنّ (الطب التقليدي) يستعيد مكانته، كما أن للطاقة الإيمانية دورها في شفاء مرضى الجسد والروح، وإنقاذ ضحايا (العين) و(السّحر) و(السّحرة) المجرمين.

الجزائر، 1997/09/16.

(النقد).. المجامل: طاعون (الإبداع)

تأتي مشروعية النقد للإبداع الأدبي، وضروريته في الحركية من أصالته الموضوعية، ومصداقيته، وتنزّهه عن الهوى: السلبي والإيجابي، غير هوى الحقيقة الفكرية والفنية معا منضويتين تحت لواء الكلمة، في رؤية المبدع، وموقفه، رؤية وموقف يتضمنّهما إطار فني عليه أن يستجيب للحاجة النوعية في الإطار الذي تصبّ فيه هذه التّجربة، بوجهيها: الفكري والفنّي.

فبقدر ما أن الأدب إبداع في إطار يحدّد هوية الموضوع، في النوع الأدبي: شعرا أو قصة، أو أقصوصة، أو رواية أو مسرحية، أو مقالا قصصيا، أو مقالا أدبيا، أو خاطرة، أو صورة قصصية، أو غيرها:فإنّ النقد بدوره(نوع) علم و(مناهج) قد تختلف هذه المناهج إلى درجة التّنائي والتناقض، لكن ما يصدق عليه منها مصطلح (النقد) بدقة صدقا علميا وفنيا: هي تلك المناهج التي تحكمها الموضوعية في الاجتهاد، والحكم، والنزاهة والصدّق في المعالجة، والترويّ والهدوء والاتّزان في (التقويم) و(التقييم) على حدّ سواء.

في هذه الحالة يكون على الناقد واجب الخضوع للمعايير العلمية النقدية التي تحكمه، مهما كان منهجه، حتى ولو كان منهجا انطباعيا متسرّعا: فعليه فيه كبح جموحه في إعلان الرأي المطلق: حكما في السلب وفي الإيجاب.

والمنهج (الانطباعي) من المناهج التي آذت الأدب أكثر ممّا نفعته، وشوّهته، ويبلغ التشويه أقصى مداه على الأيدي (الهاوية).. هواية مستمرّة.. لا مؤقتة، وهو منهج قد مارسه – مع ذلك – أعلام فكر في (النقد الأوروبي) و(العربي) معا، لكن في حدود كثيرا ما كانت تنشد التّشجيع الإيجابي لا السلّبي، كما كان يفعل (طه حسين) حين يسقط صريع (الإعجاب) بعمل (ما)

لمبررات فكرية وفنية، في حشود ضخمة من مقالاته العديدة، فلم تكن الانعكاسات لعمله مضرة، لأنّه خبير بالفن كخبرته بالقضايا والمواقف.

لكنّ هذا النقد الانطباعي كثيرا ما كان (البوابة) الكبرى للنّقد المجامل، خصوصا على أيدي (هواة) إن سمحت لنفسي أن أسمي هذا الضرب من الكلام (المجامل) (نقدا) وهذا (النقد المجامل) في عباءة (الانطباع) الظرفي المستعجل هو (الطاعون) أي (الآفة) الماحقة في حقل الإبداع الأدبي: فإنّ تحصّن منه بالمناعة الفكرية بعض الأدباء المقتدرين علميا وفكريا الموهوبين فنيا، من دون إصابتهم بالغرور والخيلاء: فإنّه طريق آخرين إلى الضياع في التيه و(العجب) الشيطاني، ثم التلاشي، من دون أثر في النهاية، غير آثار الانكسار والهزيمة، والاندثار في (قبو) النسيان الذي أسهمت في حفره الأيدي غير المسؤولة، وهي تمتطي عربة (طفلية) مزركشة، قد تخلب الألباب وهي تدور حول نفسها، فلا تفضي أخيرا إلى أبعد من موقع القدم، أو النّظر في أحسن حال.

هذا النقد هو الذي يقترب ممّا أطلقت عليه في جريدة (الشعب) الجزائرية – في السبعينات – اسم «النقد الإخواني» حين كانت تكال (المدائح) جزافا لواحد، و(الشتائم) لخصمه، من منطلق (اليسار واليمين) بأقلام قاصرة معوقة.. عوجاء.. عرجاء.. وألسنة طويلة.. موتورة.. (تهدر) كثيرا، و(تهرف) ولا تتوقف، من دون أن تعلن شيئا مقنعا، غير الإعلان الضمني لإرادة شخصية.. في (تلميع) هذا، و(التعتيم) على غيره، وما أشدّ فضائح (اليسار) الجزائري، ومخازيه في هذا المجال الذي مارس حتى (الارتشاء) العجيب: فبقدر (المدائح) تتوثق الصلّات، ويكون (الدفع) على قناة (المصالح).. إلى جانب الدفع المادي – أي والله – المادي.. حقّا وحقيقة.. بالملموس، المحسوب المدروس، وتتّسع رقعة ذلك.. حين تكون صلة الطرفين.. أو أحدهما – على الأقل – قوية فاعلة.. بالوسيلة الإعلامية (مسموعة) أو (مرئية – مسموعة) أو مكتوبه.. وحتى في الملتقيات ذات الطابع (الكرنفالي) خصوصا.

كان رأيي أنّ الدآء بذلك الشكل المتميّز وافد من منطقة عربية فاعلة، لأن تاريخنا النقدي والفكري في (الجزائر) وفي (المغرب العربي) عموما منذ عشرة قرون كان دائما فوق الشبهات المذكورة، كما استقر اقتناعي أن أسلوب (الشللية) الأدبية الضيقة، و(العصابات) الثقافية والفكرية بشكلها السلبي هذا تقليد غير جزائري، بل غير (مغاربي) هي ظاهرة مقيتة منبوذة.. وافدة.. مهاجرة.. من خارج (المغرب العربي) كلّه.

أسلوب (العصابات) و(الشلل) داء إذن.. زرعه قاصرون.. من أنصاف (الموهوبين) انطلاقا من (حانات) و(مقاه) و(نواد مشبوهة) فعلا، لم يهتمّ به جامعيون (عقلاء) في (المغرب العربي) ولا جامعيون متميزون وافدون من أقطار عربية حين حصروا جهودهم في الحرم الجامعي، وما يمتّ إليه بصله.. في معاقل الفكر الرزينة.. الهادئة.. وقد نبذوا أسلوب (العصابات) متجاهلين أصحابه.. حتى استشرى.. قبل أن يأخذ طريقه إلى الاندثار النسبي، مصداقا للمثل الشعبي «ما يبقى في الواد غير احجارو» أي « ما يبقى غير الصحيح» و«لا يثبت إلاّ الصحيح» في حمّى اللغط اللفظي، والاستهتار في فكر وفن وأدب ونقد.. ممّا يشوّه الحياة العامة.

ذلك النقد (الإخواني) هو الجرثومة التي ينمو منها (النقد المجامل) سواء عن وعي أو عن غير وعي، وما المجاملة في (النقد) إلاّ الحرص على التّودّد البهتاني أو الصادق، والعزوف عن المواجهة الصريحة الصحيحة بما نعتقده الأصوب، وإن ليس بالضرورة صائبا دائما، لكنّها مسؤولية الإخلاص في الاجتهاد والحكم، بعيدا عن هوى المجاملة الصرف: فالمجاملة الإنسانية جميلة ومحببة للنفس البشرية، أليست «الكلمة الطيبة صدقة» لكن بشرط أن يبقى ذلك في الإطار الإنساني العام، خارج ما هو فكري جدي، مع فرز واضح بين ما هو شخصي خالص، وما هو علمي موضوعي فكري، في منأى عن منطق (الأعرابي) وناقة (حبيبته):

«أحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري»

هذه المجاملة (المميّعة).. باتت «الكلمة الطيبة» غايتها من دون تمييز في الأمور العادية والعلمية والفنية، فتبيحُ (القفز) على الأشياء.. وتشويهها كتشويه (القضايا) ومن هذه (النقد) كعلم وكفنّ: يسمّي الأمور في الإبداع الأدبي ذاته بمسمياتها المتعارف عليها: مضبوطة، مقننة، مستخلصة، من الإبداع الأدبي نفسه، فالصورة القصصية غير القصة ولا الأقصوصة، والمقال القصصي غير المقال التحليلي ولا الأدبي، والنص الشعري، غير النص المسجوع وإن توفر على جمل فيها (وزن) وفي بعضها الآخر (قافية) أيضا.

غير أن مما يثير العجب اليوم أن ما رأيناه في الأدب العربي الحديث – في جناحي الوطن العربي – مغربا وه شرقا منذ نصف قرن من (خواطر) و(صور قصصية) و(لوحات قصصية) بات البعض اليوم يميلون إلى اعتباره: شكلا جديدا في القصة، كمرحلة تجديد، ويحسبه بعض المبدعين كذلك اغترارا بنقدنا (المجامل) سواء عن (وعي) أو عن غير (وعي) كما حاولنا أن نفعل تماما بالشعر، فبالأمس القريب، قالوا «يسقط العمودي» في (الشعر) ضيقا بوزن وقافية، لإفساح المجال لشعر التفعيلة (الشعر الحر) ثم حاولوا تجاوز هذا وذلك معا في حركة عنجهية استعراضية ليقولوا «تحيا قصيدة النثر» حتى كاد ناثرو العصر العباسي ينتفضون في قبورهم صارخين «ويحنا.. كنا شعراء.. سباقي أزمنة».

ألم نجد (مهللين) و(مطبلين) لما سمي «قصيدة النثر»؟ والغريب أنّهم ينصّون عليها هكذا «قصيدة».. فأين الحدود؟..

وانجرف (المجاملون) هنا.. كما انجرف (مجاملون) في مشايعة (الشعر الحرّ) حتى إلغاء آخر القيود فيه (التّفعيلة) ليفقد هويته الشعرية تماما، حتى وجد أعلامه الأولّون المؤسّسون أنفسهم في حرج، مثل (نازك الملائكة) و(البياتي) فاضطروا للصراخ في وجوه العابثين.. المستهترين غرورا وخيلاء لدى (مبدعين) ومشايعة لدى (نقاد) مجاملين.. سابحين في تيار

الأهواء، ليكون الطاعون الذي يفتك بالإبداع، ويجرّد أنواعه من هويتها.. مپحرّواً للفروق.. بين قصة وخاطرة، وبين شعر موزون ونثر مسجوع.. وبين نقد يحكمه المنطق والقواعد الفنية والعلمية.. وبين غيره مما لا يحكمه إلاّ (منطق) المجاملة، ومن حاد عنه عدّ ضدّ «التشجيع» فحرّف مصطلح «التشجيع» نفسه، فبدل أن يكون تشجيعا على بذل الجهد: حبا ومودّة وصدقا وإخلاصا في النّصح، صار تشجيعا على التّواكل والغرور، مجاملة، قد تكون مبطنة بالنفاق. حتى انتهى بنا الحال في مواضع كثيرة إلى أحكام عشوائية على الأعمال الأدبية، من سماعها الأول تتلى على مسامعنا: من إذاعة، أو من صاحبها، بدل الحكم من قراءة متأنية فاحصة: مرة ثانية، وثالثة، ورابعة، إنّه النزوع إلى الأسهل، كنزوعنا إلى الأيسر في استهلاكنا اليومي.

الدوحة، 1997/10/13.

عربيتنا .. و(لغة) التدريس؟!

هناك ما يشبه الإجماع على أنّ ضعف المستوى العلمي والمعرفي في المؤسسات التعليمية ظاهرة عالمية، لا تستثني بالضرورة إذن وطننا العربي، بما في ذلك تراجع الاهتمام بقيم التعليم والتعلم، والرغبة عن التحصيل المعرفي الرزين، في مقابلة الرغبة في أخذ (الجاهز) من إنجازات الثقافة المعاصرة، كما نأخذ الجاهز في طعامنا وشرابنا، يصبّ ذلك في آذاننا صباً، أو يقحم في أبصارنا إقحاماً، كما يدفع إلينا هذا دفعاً.. بين أيدينا، من دون جهد ذي بال يبذل، لا في الأول ولا في الثاني، خصوصاً في حال اكتناز للجيوب، وضعف وعي بجوهر الحياة وروحها التي فيها سرّ الوجود، ومن دون ما تفيض به من قيم إنسانية وحضارية، وحس رفيع: فيغدو العيش في (الحياة) عيشة (البهائم) تشبع الغرائز المختلفة، حتى تنتهي إلى مصائرها المحتومة، من دون أثر لوجود يعطي معنى لمرورها في (الحياة).

نشارك العالم في ظاهرة الضعف التعليمي: نوعية وإقبالاً جدياً، عطاء وأخذاً، لكننا نختلف عن معظمه إلى حد التصدع التام في الاهتمام بلغتنا رمز هويتنا، بوجهيها: (العربي الإسلامي) ونتخلف عنه مسافات، تملأها وهاد القرون، وجبال من المعوقات، في العمل لهذه اللغة، لغة علم ولغة حياة.

الصراع اللغوي اليوم قائم على أشده: يحل محل صراعات أخرى، بعضها كانت اللغة عنصرا ما فيه. بات الصراع اللغوي عنيفا بين مواقع نفوذ للغات وعمل لتطويرها للتمكين لها، لا في أرضها فحسب، فهذا (فرض عين) بل للتمكين لها خارج حدودها (كفرض كفاية) مؤكد، يوشك أن يكون أيضاً (فرض عين) بل هو (فرض عين) على كل صاحب لهذه اللغات الغازية حين يجد نفسه

في محيط تغزوه لغته: فعليه إسناد هذا الغزو، بكل ما أوتي من إمكانات مادية ومعنوية، فضلاً عن نفوذه، وصلاته المختلفة، وصلاحياته المخولة.

هل يفعل (الفرنسي) أو (الإنجليزي) أو (الألماني) ذلك خارج بلده ويتساهل فيه داخله؟ ألم (يستصدر) الفرنسيون قوانين (حماية الفرنسية) و(دعمها)؟ ألم يعملوا لاستصدار قوانين تعاقب على تسهيل الدخول للكلمات الإنجليزية فيها، ألم يشنّوا حربا إعلامية على كلمات (إنجليزية) تقنية بسيطة تدخل (الفرنسية) العاجزة عن (الإبداع) في (المصطلح)؟

فهل قبل هذا.. وبعده يسمح لفرنسي أو معلم (فرنسية) أن يدرّس لغة (فرنسا) في (فرنسا) وخارجها بغيرها منهجاً وتبليغاً؟ إنه يحرم عليه التسامح في النطق بلفظها محرفا قليلاً فقط، كما يحرم عليه التساهل فيما يرتكب من أخطاء كتابية فيها، حتّى البديهية، كتلك التي تجعل المتعلم يسهو عن إضافة حرف (س S) في الجمع، أو عدم الاهتمام بشكل الكلمة أو الحرف قائماً أو مائلاً أو موقع الفاصلة، ونوعها!؟

إلا نحن العرب.. فكان إبداعنا كبيراً في إذلال لغتنا، فنحن متفوقون من دون منافس في ذلك، نذلها لغة علم، وأداة اتصال وتوصيل معرفي، فتجاوزنا الاستهانة في كتابتها بأمور تقنية كعلامات الوقف والتنصيص: إلى عدم الاهتمام بصحة الكلمة والجملة نحوياً ولغوياً، بعدما أذللناها في البيت والشارع، فبدل الارتقاء المدروس بلغة البيت والشارع حدث الهبوط بلغة العلم والتعليم إلى لغة البيت والشارع، فانتهى الأمر بمأساة العربية أن صارت منفية من (قاعات التدريس) نفسها، وأين؟ ليس في (التحضيري) فحسب، بل في مدرجات الجامعة (يا ويلتاه)!

أليس من حقنا (النحيب) و(الصراخ) به ونحن نرى في جامعاتنا (العربية) طلبة يتلقون عن أساتذتهم (محاضرات)! بالعامية المحلية، حسب بلد (الأستاذ) أو بلد (الطالب) و(الأستاذ) معاً. (أستاذ) في (محراب علم) يقدم على (المحاضرة) بالعامية، عاميته هو، التي قد يشترك طلبته معه فيها..

في (الجزائر) صرخنا في وجوه أولئك الذين يدفعون إلى المرحلة (التحضيرية) للإشراف على أبنائنا (مربيات) ألسنتهن في حاجة إلى (تربية) على اللغة (المقبولة) واللفظ (المهذب) كما بات المتساهلون في لغة (العلم) و(التبليغ) المعرفي في موضع ازدراء، ليس في التعليم العالي فحسب، بل دونه في كل المراحل السابقة.

فكيف يكتب النجاح لدعوى (دجال) في أنه يدرس التاريخ والرياضيات فلا حاجة لجهد في (لغة العلم) والاكتفاء بلغة البيت والشارع (المبذولة) المبتذلة، بل لمحت عيناي قلماً يسجل – كتابياً – عناصر (محاضرته) بخليط من فصحى وعامية: كسلاً وعجزاً معاً، ورغبة عن أدنى جهد.

فماذا والحال هذه أن ننتظر من الطالب؟

هل يمكن ردّ طالب عن استمراء الكسل، ونحن نستقبله بعامياتنا المختلفة في مدرجات الجامعات العربية، فهل من حقي التام – والحال هذه – تضييق الخناق عليه وهو يسجل إجاباته في الامتحانات بخليط من لغة الشارع ولغة التعليم؟ ألست شريكاً معه في (الجريمة)؟ بل ألست أول من أسهم في بناء فكرته عن سهولة العامية، لا هرباً من عربية معجمية لا يستعملها أحد، بل تخلصاً من عربية معربة دقيقة دالة وافية مضبوطة.. جنوحًا إلى الأسهل المبتذل!

أنا – مهنيا –.. أقصد أنّ رجل التعليم شريك مباشر في هذا الأذى الذي يلحق لغتنا، أذى نستهين به، ونهوّن شأنه على طلبتنا أنفسهم. أقبلت عليّ إحدى طالباتي تقول بالحرف الواحد: بعد إعادة الصياغة طبعاً – «أنا تخصصي: شريعة، والعربية مادة اختيارية، وأنا ضعيفة فيها، فأرجو وضع هذا في الاعتبار».

لا أكتم القارئ أنني ذهلت لهذا المنطق العجيب، فقلت للطالبة الفاضلة: تخصصك الذي ذكرت يفرض عليك أن تكوني أكثر تمكناً في العربية من

متخصصة في الأدب العربي نفسه، فمن النصوص الفقهية والقضايا الشرعية بأحكامها، والصيغ القرآنية ما يبقى مستعصياً جدا إلى حد الاستحالة على من لا يحذق (أسرار العربية) وليس العربية المدرسية فقط: فبدا عليها كأنها تكتشف فكرة «غريبة عجيبة» ولسان حالها يتساءل: (كيف يفرض على تخصصي في الشريعة إجادة العربية، بل التعمق في أسرارها؟).

من المذنب؟ ألسنا متواطئين.. نحن الذين ننتسب لمهنة (الضنك) و(العناء) هذه فاستهنّا بلغتنا، لغة علم وتبليغ، كما أبحنا إهانتها، ليستبيحها الجميع، فنحن لم نستهن بها فقط إحالة على (التقاعد) أو (المعاش) لتحل محلها العامية المبتذلة القاصرة، بل استهنا بمؤامرات تهميشها والقضاء على حبها في النفوس، بعد القضاء على دورها الحضاري في أمتها وخارجها: فبدل أن نحببها للأجانب عنها صرنا ننفر منها أبناءنا: فيعزفون عنها خاطبين ود حسناوات أخريات، مثل (الفرنسية) أو (الإنجليزية) التي تعهدها أهلها بالحب والرعاية والتلميع، والتمكين في النفوس، وفي مختلف أوجه الحياة، وما كان ذلك إلا لكونها احتفظت بقداستها في قاعة الدرس والتعليم، على يد خبير: علماً وتربية، مع التوفر على الضمير المهني الحي.

وقد فاجأتني هنا أخت عربية، وهي تقول عبر الخط الهاتفي (رفقاً بالقوارير) لتضيف بعد ذلك ملاحظاتها المختلفة، قائلة في النهاية، ما خلاصته: «حين كنت طالبة جامعية كنا نقبل على مادة الإنجليزية بشغف، أما في موعد العربية فكنا كمن يقبل على عقاب يدفع إليه دفعا».

– فمن المسؤول؟

للأستاذ النصيب الأكبر في المسؤولية، ولنجهر بها، وإدراك الأسباب جزء من الحلّ، ومن كتم داءه قتله. داؤنا التهاون في خدمة لغتنا، وعدم صيانتها من العبث، والاستهتار بدورها في الحياة العملية والتعليمية، بينما تسهر الأمم المتحضرة على المزيد من خدمة لغاتها، والتمكين لها خارج حدودها، في

الحياة العامة الأجنبية فضلاً عن الحياة العلمية بمختلف الأساليب، بالتي هي أحسن، وبالتالي هي أعنف أيضًا عند الضرورة.. و«الإمكان».

طوبى لهم أوفياء للغتهم جادين في خدمتها، و«طوبة» على ظهورنا أو رؤوسنا تدكنا أو تهزنا من غفوتنا لندرك أن الصراع اللغوي يحل محل صراعات قديمة، حتى دخلت في هذا الصراع «اللهجات» المحلية، واللغات الميتة تبحث لها عن موقع.. في حياة جديدة، وسط لغات حية، بحياة أهلها، وتيقظ وجدانهم.

– فما موقفنا؟

فلنختر.. أحد الأمرين: خانة (الأحياء) أو خانة (الأموات) ولا طريق نحو خانة (الحياة) و(الأحياء) من دون الوسيلة الأولى عنوان الهوية (اللغة) كحجر الأساس، لغة علم ولغة تعليم، ولغة حياة، في الوقت نفسه، فهي أولاً وأخيراً العنوان البارز للهوية الحضارية للأمة.

الدوحة، 1997/11/22.

(الآيـات) الثـلاث!

حين قال الرسول (ص): «آيات المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان» قد تجسّدت صورة من صور الآفات الاجتماعية المدمرة للعلاقات الإنسانية، في حياة الجماعات والشعوب، فضلا عن آثارها الدينية والنفسية الأخرى.

فليتفقوا في اجتماع هذه الآيات وفي اختلافها، في النظر إليها مجتمعة في شخص لتلتصق به صفة (المنافق) أو في (حيازته) على إحداها لتكون كافية لوصفه: فتدرجه في عالم (النفاق) و(المنافقين) جنبكم الله إياه وحفظكم من شروره!

وليجتهدوا فيها دينيا ما طاب لهم الاجتهاد، إن كان الأمر يتطلب فعلا اجتهاداً، أمّا وأنّي لست عالم دين، مع إجلالي علماءه العمليين: فإنني أنظر إليها من الزاوية الإنسانية العامة، فحين أرى هذه (الآيات) الثلاث تجتمع منسجمة متآلفة في نفس بشرية واحدة، فإنّ هذه النفس تغدو في العين (شيطانا مريدا) بل هي أكثر شراً من الشيطان نفسه: فالشيطان: نستعيذ بالله منه، وقد نحتاط لأمرنا من شرّه، أمّا هذا (الشيطان الآدمي) فمظهره يخدعنا ونحن نلتقيه – ربما – لأول مرة، قد يكون في لبوس تقي ورع (يذكر) اسم الله، وربّما نهض للصّلاة (يؤديها) في وقتها من دوننا، في إقامة أو في (سفر)! أليس من حقنّا أن نخطئ في تقدير الموقف؟ فنحسب الرجل في الأخيار، وهو (إمام الأشرار) يموّه ويضلّل!

قد أخدع، بل خدعت، ربمّا أكثر من مرّة بصور الورع يختفي وراءها شيطان عربيد، لكنني حين أدرك بوادر (الآيات) الثلاث، أو إحداهما فقط.. واحدة فقط

منها.. لا أتردّد لحظة واحدة في اتّخاذ الموقف منه، وتصنيفه في خانة (المنافقين) الشياطين.. ولو قام أمامي.. الليل كلّه: راكعا ساجدا بحمد ربه، ويصوم (رمضان) ويتبعه بست من (شوال) أو حتى عشر أو عشرين، أو تسع وعشرين!

فهل أنا حقّا في حاجة إلى أن أرى هذه الآيات الثلاث تجتمع في (امرئ) لأقرّر حكمي وأحدّد (الموقف) في علاقتي به: خلوصا، وصدقا، وحسن معاملة؟

كلاّ، لقد توارثت حوادث.. استنتجت منها، أنّه ما (كذب) امرؤ متعمدا كذبا جادا إلاّ كان امرأ مخلا بوعده وعهده، وما كان امرؤ كاذبا إلا أذن ذلك بقابليته لخيانة الأمانة.

هذه إحدى (المؤشرات) لآفات اجتماعية تسحق حياتنا الإنسانية سحقا: فتخلّ بالتوازن في العلاقات العامة، وتشيع قيم (الظنون) و(الغدر) و(الرياء) و(الانتهازية).

كيف تدفع عن نفسك هذا الإحساس وأنت ترى أن هذا (المخلوق) يحاول خداعك بصلوات وذكر، ثم يلغي ذلك بالأكاذيب الجدية، مقسما باسم (الجلالة) قسم جدّ لا قسم (لغو).. فيكون الكذب هنا منسجما مع حركاته وشعوره.

الغريب في أمر بعض (النماذج البشرية) أنّها تدرك أنّها تكذب، كما تعلم أن آخرين يدركون كذبها، مع ذلك تمضي في ضلالها.. وكذبها.. وتكبر المصيبة حين يشيع الأمر بين مثقفين أو أشباههم.

في حضوري ذات يوم أتى أحدهم (كذبة) كبرى.. بزعمه شيئا أمام جمهور مثقف، مع وعيه أنني أعلم حقيقة كذبته، لكنّه اكتفى باطمئنانه إلى جهل الآخرين، نظرت في وجه الرجل أتفحّصه لعلّ خجلا ما يعتريه.. فكان مشرقا إشراقا خيل إليه.. أنّ كذبه صدق: فعجبت واستغفرت، وما كان لي أن

أفضحه، لأنّ ذلك بات دأبه (مع صلاته وقيامه) لكن كان علي أن أقطع العلاقة بمقص حادّ معه.

ثمّ ما مقياس (الأمانة) لتصنيف هذا النوع (الآدمي) في (شعبة المنافقين)؟ وقد بدا لي ارتباطها الوثيق بالكذب، فهل هو فقط الذي استودعته مالا أو متاعا: فأنكر أو أهمل أو أتلف ما ائتمنته عليه؟

أحسب هذا أمرا ماديا لا غنى فيه، في غياب العمق الجوهري، فأنت لا تأتمن الناس على مالك فحسب، بل تأتمنهم على (أقوالهك) بوحا ومكاشفة، أي على أسرارك الشخصية، فهذا الذي تأنس إليه فتبوُحُ لهُ بما في نفسك، وبما تعرف – ربّما – من دقائق الأمور، أو بما تنوي: ثم لا يحفظه، بل يستغلّه لإلحاق الأذى بك فضلا عن صور أخرى من خيانة (الأمانة) كسرّ العمل، في إدارة أو في مؤسسة فيما تُؤتمن عليه، ونحرص على عدم إفشائه، مهما صغر شأنه.

فنحن إذن نؤتمن على أقوال الناس وأسرارهم كما نؤتمن على مالهم، فمن أفشى سرا ائتمن عليه انفتح الطريق أمامه للاستيلاء على مال أودع أمانة لديه، فيغدو في خانة (المنافقين) ولو صام الدّيهرب كلّيه، وقضى لياليپه راكعا وساجدا... بالمنطق الأخلاقي العام.

فلتجتمع الآيات الثلاث (الكذب، خلف الوعد، خيانة الأمانة) في امرئ، أو لتفترق بين أفراد، فالواحدة – في رأيي – تكفي لنفي المرء من (الإنسانية) لصفات مذمومة شرعا وطبعا: فاتحتها الكذب بمواصفاته الأخلاقية والشرعية مهما كانت مبرراته، وخاتمتها (خيانة الأمانة) على (مال) أو (قول) أو في (عمل).. ممّا يؤتمن عليه بعض دون بعض.

جنبنا الله شرّ(النفاق) وأذى (المنافقين)!

الدوحة، 1998/01/07.

احفظ (الميم) تحفظك!

هذا (القلب) الذي هو على (اللّسان) هل تنبغي إعادة النظر في أمرهما، في العلاقة بينهما، هو (اللسان) الذي.. لا ينطق إلاّ بما في (القلب) وقد كان سلوكنا دائما تطبيقا لا شعوريا للقول «قلب المرء على لسانه»

ألا نعيد النظر في هذه المقولة في زمن (التقلب) و(المقالب) ألم يقل الرسول (ص): «المؤمن لا يلدغ من جحر واحد مرتين»؟ ألم يقل (محمد العيد) أمير شعراء (المغرب العربي): «لا تكن طيبا إلاّ بمقدار» في الطيبة مصارع بعض: في ظروف تجعلك مطوّقا بثعالب وذئاب، رغم ذلك.. لا أزكّي مسعاك لأن تكون ثعلبا يروغ، ولا ذئبا يمكر، مهما كانت حجتك لتحاشي مقالب (الثعالب) وفتك (الذئاب) ونهش (الكلاب).. وإنني بدل ذلك أحاول أن أقنع نفسي بالنأي قدر الإمكان.. كلّما أحسست بحركة (ثعلب) أو عواء (ذئب) أو نباح (كلب).. مسائلا ضميري عن واجب أنجزته، وخير قدّمته، وأذى لم أشارك فيه، فحينئذ أنام قرير العين.. لكن مع محاولة العمل بمنطق حرف (الميم) النافية قدر المستطاع: (ما رأيت)! (ما سمعت)! (ما قلت)! درعا واقيا من هجمات (الكلاب الضالة) و(الذئاب المسعورة) خوفا من أن تحمّلنا ما لم نفعل وما لم نقل، فكيف والحال إن قلنا؟ فسيكبر حينئذ خبث (الثعالب) وكيد (الذئاب) وتحرّش (الكلاب).

صرت أجتهد في أن تكون هذه قناعتي.. التي قد أسهو عنها.. حين تملأ الثقة أرجاء النفس، ويشيع فيها الأمل.. بواقع صحي خال من الغدر والنفاق والرياء، لكنّ أستاذا فاضلا أصرّ – ونحن نتبادل التحية عبر الهاتف – على التمكين لها في نفسي حين ضغط على الحروف ضغطا وهو يقول «احفظ الميم تحفظك» أي التزمها (أداة نفي) تجنبك مكر الماكرين، وكيد الكائدين،

فاحرص إذن على التمسك بها في كل الحالات: (ما رأيت) (ما سمعت) (ما فعلت) (ما قلت).

لكنني لا أكتم القارئ أنني كثيرا ما تساءلت بيني وبين نفسي: كيف لي أن أجرؤ على نفي ما رأيت وما سمعت؟ وعلى التنكّر لما فعلت وما دار به لساني ونبست به شفتاي؟ ففي بلدي الذي قدّم (مليوني شهيد) ثمنا لحريته: صدقا مع النفس والناس ووفاء.. وإخلاصا، يقال: «المؤمن يمسك من لسانه» و«الكلمة مثل الرصاصة إذا خرجت لا تعود».

فكيف لي أن أتحلّل ممّا دار به لساني، أو ممّا تعهّدت به من (وعد) أو أعطيته من (عهد) أو فهت به من قول؟

غير أنّ إنكار القول والتحلّل من الفعل.. هو سياسة غدت رائجة.. وإلا بات الوقوع محتملا بين أنياب (الذئاب) وفي خنادق (الثعالب) ومخالب (الكلاب).. حيث مصارع الطيبين الشرفاء، فأدركها بعض، ولا تزال غائبة عن بعض، ربّما لصعوبة عمل، وسوء هضم، وتعذّر التزام: بينما بات ذلك سياسة منطقية في زمن (المقالب) المتقلب.

في هذا السياق (وعظني) بدوري أكثر من صديق، وزميل، بما خلاصته كلّه: «لا أكتب شيئا يكون علي حجة، لكنني لا أتحرج من أي قول – لفظا – فهنا في مقدوري في أية لحظة أن أنكر ما أرى أنّ مصلحتي تقتضي إنكار ما قلت، والتملّص من كلّ شيء كبر شأنه أو صغر، فلا سلطان لأحد علي، عكس الأمر إذا كتبت»

وأنا أسمع هذا الكلام الذي يبدو أنّه منطق (العصر) و(الحياة العملية) أشعر بالميل إلى أن أمحو من ذاكرتي «المؤمن يمسك من لسانه» و«الكلمة مثل الرصاصة إذا خرجت لا تعود» لكن العقبة أمام عملية المحو هذه تتطلب الدخول في (تدريب) عملي، أو (رسكلة ميدانية) قد تساعد على ممارسة ذلك بعفوية تامة، كما يمارس – فعلا – ذلك بعض ممن تعج بهم الحياة حولي، وقد

بكّرت الأيام بعرض نماذج منهم علي، أذكر جانبا من الصورة لواحد منها. كنا في (باريس) سنة (1984) التقيت النموذج المشار إليه اللحظة: فصبّ في أذني أخبارا سياسية غاية في الدقة والخطورة، من غير المتداول، في طابعه الوطني، مما شغلني كثيرا، واستحثني للتداول في الموضوع مع من أعرف أنّ له رأيا، ولديه بعض التأويل، ففاتحت (جامعيا) في أول لقاء فاستفسرته باحثا عن تأويل، وأعلنت مصدري الذي سرعان ما وصل، فسأله (الجامعي) فردّ ببرودة تامة: ما قلت هذا، ولا سمعت.

فقلت ذاهلا: كيف؟ إنك حملت ذلك منذ ساعتين فقط يا رجل؟

فقال: أنا لم أسمع بشيء ولم أقل شيئا، ولا يهمّني أمر ذلك.

كان يتحدث، من دون أن يظهر عنه أنّه (كاذب) في نفيه، وخبثه.. كان صورة حية للخبث الثعلبي، على مستوى عال من (الخبرة) في (النفاق) و(المراوغة) وهو يتنكّر لكلّ ما قال جملة وتفصيلا، بل بدا في حال من يعجب لأمر ما يُعاد على سمعه، من أقواله، لقد ذهلت فعلا من قدرته على التمثيل.

واحتجت إلى بعض الوقت لأدرك أن الرجلين معا يرتبطان بمصالح (خاصة) متباينة، متنافرة، ذات طابع (سياسي) تناحري. وقعت بينهما، و(قلبي) على (لساني) لكنها تجربة.. اعتبرتها شذوذا.

ذكّرني بهذا النموذج ذاته قول زميلين في صيغة تكاد تكون واحدة هي قولهما: «أستطيع أن أتآمر، أشتم، ألعن، ثم أنكر، فلن أمسك، بعكس ما إذا كتبت»!

فماذا عساي أن أفعل أنا الذي لا أقوى على التملّص مما نطقت به، كما لا أتراجع عن رأي كتبته ما دمت أراه الحق؟ لن أفعل.. غير المُضي في ذلك مهما اتسعت الوهاد، وأحدقت الكلاب والذئاب.. وكبر الكيد والنفاق! مع العمل على (حفظ الميم) فيما هو شرعي، لا نفاق فيه، فهل تحمينني أيتها (الميم)؟

الدوحة، 1998/01/15.

(المؤامرة) في شلال الذاكرة!!

في (جامعة الجزائر) التي هي أعرق جامعة في (افريقيا) كلّها، قضيت زهرة الشباب طالبا أولا، ثم أستاذا بأهمّ معاهدها، نحو تسع عشرة سنة، ارتبطت وجدانيا بجوّها الذي كان طاهرا مطهّرا (علميا) قبل أن تشرع مختلف الآفات تفرّخ فيها: سياسيا وإيديولوجيا، حين بدأت تلوّث فضاءها العام الأغراض السياسية، التي تسلّل عبرها (الانتهازيون) و(المرتزقة) وتجار (الشعارات) الحزبية والإيديولوجية إلى مختلف المواقع ذات الأهمية، حيث بدأت الروح العلمية تنزوي، أو تعرف التشوّه، أو تبحث عن منافذ لها للانسحاب، وإصرار بعض على (المرابطة) و(الصمود) الذي ضاق به بعض المسؤولين أنفسهم فيها، حتى أنّ خصاما اندلع مبكرا بيني وبين (مدير المعهد) سنة (1979) ولما تمض سنتان علي فيه، لأمر طالبة، هي زوجة (مسؤول كبير خطير) ذات تكوين فرنسي، في حضور عربيتها الضعيفة، فاشتركت درجاتها (العربية) بيني وبين (السيد المدير) فكان لها معي (خمس درجات من عشرين) ومعه (ثلاث عشرة درجة) مما يرشحها للسقوط الذي يرفضه (المدير) ففاجأني الرجل الرعديد – الذي كان يفوقني موقعا ودرجة علمية، فهو دكتور وأنا أخوض غمار البحث في سبيل ذلك – فقال ونحن نتداول أمرها: «ألا تعلم من تكون هذه؟» فقلت ما خلاصته: أعلم تماما، كما أعلم أن هناك فرقا بين التقدير الشخصي للآخرين واحترامهم، وبين الموقف العلمي الموضوعي المنزه عن الهوى.

كان ذلك الموقف سبب التوتر المطرد بيني وبين الرجل، والمؤشّر لواقع غير صحي شرعت أحس بضراوته تكبر، والرداءة تحاول التسلّل إلى (الجامعة) من داخلها ومن خارجها: فوسّعها بعض من (أساتذة) قادمين من

أقطار أخرى، بشهادات (عليا) جوفاء، تمنح (امتيازات) ليس في مقابلها جدّ وإخلاص، بل (تؤصّل) الرداءة: فاضطررت ذات يوم تحت مشاعر الحب للجامعة والوطن أن أنشر (مقالة) فهمها (الوزير) فهما خاطئا،

فأسرّها في نفسه، حريصا على تعقبي، كما علمت من جار له – مؤخرا – هو أستاذ في الجامعة نفسها: فلم يهمله الله، فأخذه كما يأخذ كل الظالمين المستهترين.

ذلك المحيط كان فيه عجبي محدودا، وأنا أشاهد يومئذ.. أستاذا من (قطر عربي) معروف يجري امتدانا لطلبته على عجل، لأخذ إجازته نحو (لندن) فراح يكيل (الدرجات) الجزافية العالية للطلبة كيلا من (جيد جدا) إلى (ممتاز) بشكل لم يسبق للجامعة أن عرفته، فرفض هذه (الحركة) الطلبة أنفسهم، والطالب الجزائري بشهادة الجميع: ذو أنفة، متواضع، يحترم أستاذه ويجلّه، ولا يجادله في (درجة) ثقة في نزاهته، وليس من طبعه الإلحاح واللجاجة، ولكنه عموما يضيق بمن يسخر منه، ويغشّه، فيعطيه أكثر مما يستحق من درجات، قد لا يأخذها مستحقّها مع مثل ذلك الأستاذ.

جسّد لي ذلك الموقف من الأستاذ (الخيانة) المهنية، و(المؤامرة) الرخيصة على الجامعة، ومستواها العلمي والأخلاقي.

وإن كنت لا أناصر القول: إن «البلاء إذا عمّ هان» فإنني لم ألبث طويلا حتى رأيت الصورة تتجسّد أمام عيني (صارخة) مدوية مفزعة، حين حللت – ذات سنة جامعية – في قطر عربي ارتبطت به أيضا وجدانيا قبل أن أرتبط به ماديا، وأنا أحس بثقل المهمة المزدوجة، حريصا قدر المستطاع على أداء (الأمانة) المهنية العلمية، من دون استعراضات (كرنفالية) يعشقها بعض (المنافقين) المغرمين بالبهرجة، والضّجيج فتلخّص هذا الشعور منذ البدء يومئذ، في الموقف، حين استقبلني في أول يوم حللت به في تلك الجامعة رئيسها الفاضل، فقلت له حرفيا، وأنا أحييه على عجل مثقلاً بالمتاعب:

«أتمنى أن نكون في مستوى الثقة التي وضعتموها فينا» فردّ على الفور: «هذا هو ظننا، وأملنا فيكم كبير».

هذا الشعور عمق إحساسي بالمهمة، رغم عوامل الشعور بنوع من (ضيم) و(معاناة) في البدء، وفي الاحتكاك بالمحيط: الجديد: اجتماعيا ونفسيا.

لكن الصورة القديمة تنبجس فجأة أمامي، فتعكّر حياتي، وأنا أرى في (الجامعة العربية) المذكورة الدرجات تمنح للطلبة جزافا، العالية جدا أحيانا، بشكل فيه كثير من التّزييف، وقبل أن أصرخ سمعت أحدهم يقول لصاحبه في نصح جاد: «مشي الحال.. هكذا الشغل... نجّح تنجح.. ما فيه داع لتكسار الراس» درجات (التقدير) العالية تماما جعلتني أقول: «أحقّاً هذا؟ دلّونا على مواقع هذه الجنة.. لنشمّ أريجها.. دعوا الفرح - الحقيقي إن كان - يغزو قلوبنا» لكن الواقع غير الإفك، والبهتان، وأساليب «التآمر» على (الجامعة) نفسها، فقلت: يومئذ لزميل: هي (مؤامرة) على العلم، على المستوى، في بلد وثق فيك، فاستضافك، وعهد إليك بالأمانة، فهل نسمح لأنفسنا بالانغماس في مسلسل (الخيانة) و(التآمر) على (الجامعة) وعلى (الطالب) المضلّل، المغرر به نفسه.

لم ألبث حتى دخلت في (معاناة) رهيبة، تعددت مصادرها، واختلفت فبات (الصمود) مكلّفا، نفسيا، وعصبيا بالضرورة، حتى قرع سمعي ذات صباح صوت مثقف وطني من (القطر العربي) المشار إليه، يقول لي بهدوء ناصحا كمن يرثى لحالي: «إنك ستتعب كثيرا، وربما تخسر أكثر، من صحتك على الأقل» فهو حث على (واقعية) معينة، أحسسته صادقا ذكرني في الحال بكلام لأحد طلبتي من ذلك (القطر العربي) حين باح لي بشعوره ونحن نغادر (القاعة) قائلا: «بهذه الروح يا دكتور ستتعب، فنحن لم نتعوّد على أخذ الأمور بهذه الجدية، والمرء وحده لا يغير ما يريد»

وأعترف أنني أدركت قيمة هذا الرأي لطالب متقدم في السن، متأخرا، حين التقى رأيه الصادق المخلص ورأي ذلك المثقف العربي الكريم، آملا الاستفادة منهما مجتمعين، بعد التعديل، والتكييف، كما فكرت!

إن ثالث الذكرى تلو الأخرى، حتى أوقفت سيلها ذات مساء، حين أبت إلى نفسي، لأحاسبها، ربّما معنّفا هذه المرة، على ما صدر مني.. في سابق أيامي.. هنالك.. وهناك.. و.. من (تعنيف) لهذا الطالب، و(زجر) لتلك الطالبة، ربّما أحيانا بشيء من (فظاظة) ليست من طبعي، في (الظروف) العادية، سببها الحب، مع الحرص على المستوى العلمي لديهم: مصدر بهجتنا واعتزازنا. أو مصدر (خجلنا) وضيقنا.

لكن هل من الضرورة.. في النهاية أن ينسجم إحساس فيه شيء من (مثالية) مع واقع فيه كثير من (الأنانية) أكثرها (نذالة) تلك الأنانية التي تجنح إلى (التآمر) فتطبق أحد الشعارين، أو كليهما أو لهما رخيص غير معلن– كما قيل لي في القطر العربي المشار إليه – «فليبق.. زيد.. حمار.. باش ابني يعار» وثانيهما عملي متداول

«مشي الحال.. وبعدنا الطوفان»

مهما كان (المثير) و(الهمّ) الماضي.. واللاحق: تحية الحبّ والإخلاص والوفاء.. لكما معا.. أيتها الجزائر الحبيبة المضرّجة بالدماء والدموع، وبمكائد الأعداء و(تفرّج) الأصدقاء، ويا أيها (القطر) العربي العزيز الظافر.. بجهود المخلصين إن شاء الله.. أذكره وقد شارك الجزائر دائما.. الألم.. ولم يبُحْ باسمه الصريح القلم.

الدوحة، 1998/01/28.

خيانة أمة .. و.. خيانة (ضمير)!

من ذكريات الطفولة التي تنثال في بعض اللحظات.. في (الذهن): تلك التي كنت أشاهد فيها على الهامش حلقات الدروس العلمية: اللغوية، والفقهية خصوصا في (الزاوية) التي يحضرها الطلبة من أعمار متفاوتة بعض الشيء، قدموا من مناطق مختلفة: قريبة ونائية، حين كان (المعلم) أي (الأستاذ) بأتمّ معنى الكلمة يعطي ما عنده من علم بحبّ وإخلاص، ويشمل برعايته وحدبه طلبته بودّ خالص، واهتمام كامل، شعورا بالمسؤولية – الفكرية الروحية – يقسو عليهم جدا من أجل التحصيل، إلى درجة التوبيخ، ولا يتأخّر الطلبة في الانضباط: كداً، وجدا، وسهرا.

وحين تلوح معالم (الصيف) يبدأ الامتحان السنوي المعلن في (الملإ) فيتقدّم الطالب في رحاب المسجد الجامع أمام أعين (الطلبة) و(المشائخ) ليواجه بسؤال واحد، ربّما وحيد، يختصر درجة تحصيله، فإمّا صوابا وإمّا خطأ، وبذلك يتمّ الحسم الذي قد يجعل جهود شهور أو سنوات تتبدّد في بضع دقائق برسوب الطالب: فلا يغيّر ذلك وداّ وحزما وطاعة بين (الأستاذ) و(الطالب) فيبقى الأستاذ على حزمه وحبّه تلميذه، ويمضي هذا في إجلال أستاذه وتقديره والتماس النّصح منه، والتقرّب إليه: لا خبثا ونفاقا ورياء – كحال هذا الزمن الموبوء – وإنّما لودّ مكين، وللاستزادة علما، والاسترشاد بالرأي.

مواقف إنسانية رائعة: فيها القسوة والحزم والعزم مع الحب والوفاء والإخلاص في القول والعمل، ترى زجر هذا الأستاذ لذلك الطالب زجرا (صادقا) لا تشعر فيه بملامح (غلّ) و(حقد) و(ضيق) و(ضغينة) بل بظلال حب مشعة، وحرص صادق على مستواه العلمي والأخلاقي معا، فلا يستقبل

ذلك الطالب الموقف بامتعاض، بل بسعادة وبشر، مجلاّ أستاذه، منصاعا لتوجيهاته، مصداقا للمثل الشعبي المؤثّر بمضمونه القائل: «أصغ لمن يبكيك نصحه، لا لمن يسرك معسول كلامه: فما يبكيك – أو من يبكيك – اليوم يجلب لك السرور والرضى الدائم غدا، أمّا ما يضحكك اليوم أو يسرك فهو الذي يجلب لك الندامة أبدا، في غدك» فاختر بين (سار عاجل زائل) وبين (سرور آجل يدوم).

كنت تلاحظ حينئذ روح العطاء في المعلّم (الأستاذ) يكسوها الحب والصدّق والإخلاص، فيغدو الطالب موضع اهتمام أستاذه، وحرصه على مستواه العلمي غير المفصول عن أخلاقه وسلوكه مع معلميه والناس أجمعين: والمعلم في ذلك (قدوة) في محيط علمي هو نفسه (قدوة) لا يجعل من هذا المعلم (شذوذا) أو استثناء، موضع سخرية وازدراء.كما يكون ذلك الأرض الطيبة لنماء شخصية الطالب وثقته واحترامه القيم الإنسانية الرفيعة، في العلاقة الروحية بين (الأستاذ) و(الطالب) فيأخذ هذا عن ذلك بثقة وحب أيضا، مع عزم وإخلاص، راغبا في الزاد العلمي، راضيا حتى في إخفاقه على يد معلّمه، لأنّه يدرك أنه إخفاق حدّده مستواه لا موقف (معلم ظالم) فيبقى الإجلال والحبّ والاحترام، في كل الظروف.

علاقة المودة والاحترام تستمرّ في الزمان حتّى في تلك الظروف التي كان يتقدم فيها الطالب درجات علمية على أستاذه، فيبقى (الطالب – الشيخ العالم) على إجلاله حتى لمعلّمه الأول ذلك البسيط الذي علّمه – في الكُتّاب – يوما الحروف الهجائية، ولقّنه (السور) القرآنية الأولى. وكم من أستاذ جامعي – شهم طبعا – بلغ أقصى الدرجات العلمية في أعرق الجامعات العلمية: لا ينسى وهو يعود إلى قريته زائرا أن يسعى – أوّل ما يسعى – إلى من علّمه منذ سنوات عديدة السور القرآنية الأولى: فيخاطبه بالمفردات التبجيلية نفسها الموقرة له، كما كان يخاطبه بها حين كان طفلا بين يديه،

يتعثّر لسانه بالحروف والكلمات: فيتلقّى ضربات موجعة بدنيا، مبعثها: حبّ وصدق لا ضغينة وضيق وحقد.

يفرح المعلم في النهاية وهو يرى تلميذه يشقّ طريقه نحو المجد، ويسعد هذا بحبّ معلّمه وجهده ويُبقى على ذكراه: فلا يحسد ذلك هذا أو يضيق به، بل يبتهج الابتهاج كلّه، ولا يغترّ هذا ولا يتعالى بوسوسة شيطان (الكبر) و(الخيلاء).

هذه الصور الإنسانية الجميلة المشرقة المفعمة إخلاصا في العمل، وصدقا في الاحترام، ووفاء، وحزما وعزما تندحر اليوم اندحارا فظيعا، فيغدو أمرها نشازا، حتى الحديث عنها – ربما – يصير (نشازا) في عالم مادي أناني، سحقت فيه كل القيم سحقا، وفي مقدمتها قيم (العلم) و(التعلّم) ولحمتها العلاقة الروحية السامية نفسها، الأبوية بين (معلم) و(متعلم) يجمع بينهما حب الخير، والإخلاص في العمل، والصدق في القول، والنزّاهة في السلوك.

تباد تلك القيم من واقعنا اليوم إبادة شرسة بشعة أمام اجتياح القيم المادية الوضيعة، التي ابتلعت كلّ شيء بما في ذلك العلاقة بين (المعلّم) و(المتعلّم) فشمل الانحراف (الأستاذ) و(الطالب) معا، بعدما أصبحت (الأنانية) في العلاقة بينهما تكاد تكون القاعدة، تقوم على نبض الدرجات التي يمنحها (المعلم) أو (الأستاذ) تلميذه، ربما أيضا بتحيّز ما.. له أو عليه، ولا شيء يعني التلميذ غير الدرجات، فليس هناك ودّ علمي وإنساني، وقيم مهنية، وضوابط أخلاقية مدنية ولا حتى دينية، بل هناك مصالح: تختصر لدى الطالب في (الدرجة) أو (العلامة) التي إن ظفر بها هدم كلّ الجسور بينه وبين أستاذه، وتختصر لدى الطرف الآخر في نزوع لتحاشي (المتاعب) المادية والنفسية، ومختلف (الضغوط) التي تترتب عن موضوعيته، فيجنح إلى الأسهل، متذرّعا بالجاهز في غير موضعه «وكفى الله المؤمنين شر القتال» ساهيا ربّما حتى عن صوت ضميره إن كان للمتساهل تساهلا غير شرعي: ضمير. ولا تهمه في الوقت نفسه بعد ذلك خطوات تلميذه اللاحقة، ولا حتى مستوى المؤسسة التعليمية العلمي التي ينتسب إليها: في قوته وتدهوره.

عنا لبّ (الخيانة) خيانة (ضمير) وخيانة (أمانة) أودعتها أمة في (عنقه) ممثّلة في المؤسسة التعليمية نفسها.

ولأستسمح القارئ هنا بذكر (الجامعة المعاصرة) نفسها التي هي في الأساس (البوتقة) لصناعة الشخصية العلمية والفكرية، ماذا يكون المصير حين تصاب فيها العلاقة بين (الأستاذ) و(الطالب) بالتّشوّه؟

إنها كارثة لا محالة!

وقد حدثت الكارثة.. عالميا، وعربيا بالضرورة!

(ذبحت) العلاقة الروحية والعلمية النزيهة بين (الطالب) و(الأستاذ) ذبحا، بالحافي، وبالبطيئ المؤلم، ونمت العلاقة المصلحية الخالصة.

ينتهي كلّ شيء بانتهاء هذه العلاقة. وقد ينسحب (الأستاذ) مغضوبا عليه من تلميذه لأنّه رفض (المساومة) و(الابتزاز) ويخضع غيره مؤثرا (السلامة) بامتطاء أهون (المراكب) دفعا (للصراع) بل (وأدا) لمصادره.

هي (الخيانة) مرة أخرى، ربّما أخيرة! خيانة (ضمير مهني) و(خيانة أمانة) دينية، اجتماعية، مدنية، وخيانة الذات أيضا. وما أشدّ وقعها في الجامعة، حين يختلّ التوازن، وينعدم الإنصاف، فيتساوى الجاد والمهمل، بين من هو جدير بالتّثمين والتّشجيع، ومن هو أولى بالتّنبيه والتوبيخ.. ليس بين الطلبة فحسب، بل بين صفوف الأساتذة أنفسهم.

هي آفة تبدو لي عامّة.. تسلّلت في غفلة، خلال الصخب الإيديولوجي (الديماغوجي) إلى (الجامعة الجزائرية) نفسها، فعاثت فيها فسادا، مع ذلك صمدنا، قاومنا، قاومنا (الرداءة) و(التهميش) وندّدنا بوزراء السوء والمجون ممّن ألقوا بالجامعة في طريق المهالك، فلم يصغ أحد، حتى أخذ الله بعضهم أخذ عزيز مقتدر، يمهل ولا يهمل.

الدوحة، 1998/02/04.

من .. (هتلر) .. إلى .. (بتلر)!

الفارق عندنا كعرب بين الاسمين البغيضين (هتلر) النازي، و(بتلر) الصهيوني: شيء لا يكاد يذكر، فلا يغيّر من حقيقة الأشياء، هذا الشيء (حرف) واحد وحيد في عربيتنا، حيث يتفق الرجلان في ثلاثة حروف، فالتطابق قائم إذن، بحكم الحقيقة اللغوية، والواقعية السياسية أولا وأخيرا، والرّوح الاستعمارية في كلّ الحالات.

(هتلر) نازي طاغية، أنجبته (ألمانيا) المصابة بسعار التفوق العرقي، فانطلق الجنون النازي يمور في أعماقه لابتلاع العالم.. معظمه.. لمصادرة حريات الشعوب وحقوقها في السيادة على أرضها.. وكرامتها فيها.

أمّا (بتلر) فصهيوني، أنجبته (أستراليا) أحد الذيول الغربية والأمريكية، أصرّ بدوره على خدمة (يهوديته) و(صهيونيته) أساسا بتنفيذ مهامه التجسسية لصالح المخابرات (الإسرائيلية - الأمريكية) فرأى من هذا الموقف أن الفرصة مواتية لما يشبع نهمه، في الإتيان على (بقايا) ما (تبقى).. في (العراق) من مخلفات الدمار والحصار، في (محارق) التجويع والترويع، والتفتيش، والإتلاف الذي تجاوز (المحظور) وغير (المحظور) إلى الناس وأسرارهم، فضلا عن (أسرار) دولة (ذات سيادة) ذرتها رياح عاتية مختلفة.. في حمأة النزق والخيلاء والغفلة.

لا عجب أن يوافق (بتلر) اللاحق (هتلر) السابق، في نزوعه هذا، وحقده وعنصريته، وحتى بلاهته، هذه البلاهة أودت بالسلّف إلى حتفه الجدير بأمثاله من الطغاة العتاة والمفسدين في الأرض، فماذا عساها تفعل بلاحقه؟ بالخلف نفسه؟

إنّها لم تنته به إلى قاع (الهاوية) بفعل إمكانيات (الانتشال) الصهيوني، وجهد ثلاثي الشرّ في هذا الامتحان العربي (كلينتون، أولبرايت، كوهين) لكنّ الثلاثي لم يحمه تماما من موجة صقيع داهمته، وقد استحال ككلب أجرب مسعور، تحتدم جوانبه صاخبة، وفؤاده (مرجل) أحقاد وضغائن على كلّ ما تشتمّ منه إرادة عربية، مهما كانت حالات الهوان التي لحقت الإنسان العربي، ومكنت لخصومه السياسيين وأعدائه التقليديين.

هذا الحقد يعززّه الغرور، وروح الاستعلاء لدى (هتلر) متجسدا في (بتلر) وقد بات (الرجل) على رأس لجنة للأمم المتحدة، مهمّتها «إتلاف أسلحة الدمار الشامل» في يد (العراق) العربي، وحرمانه من فرص التطوير لقدراته العربية العلمية الدفاعية نفسها: كما باتت (وسائل الإعلام) تلاحق خطواته: فلا تغيب (صورته) منها، ولا اسمه مقرونا بصفة (الرئاسة) هكذا «ريتشارد بتلر، رئيس لجنة الأمم المتحدة الخاصة بإزالة أسلحة الدمار الشامل في العراق».

وكخلفه (هتلر) جعله عُجْبُه الإبليسي بالنفس يتجاوز بخياله – الشيطاني لا العلمي – حقيقته كرئيس لجنة إلى أنّه سيد القرار في العالم: فسقط فيما أسمته الصحافة الأوروبية نفسها بالطيش، لكنّه «طيش جميل» كشف بعض الأشياء لأمثالي ممّن يعيشون بعيدا عن (عمق الحقائق) في دخائل (السياسة الدولية) ومؤامراتها، و(صنّاع) هذه (المؤامرات) وضحاياها، والمسخّرين فيها، وفي مقدمة هؤلاء العملاء المعاصرين (بتلر) نفسه الذي تتعاضد عمالته لأمريكا وإسرائيل معا، وهي عمالة طبيعية، تستجيب لهوى (العبودية) التي رضعها من انتماء بلده، وهوى الصهيونية النامية من أصوله اليهودية، فلا يعجب – والحال هذه – حتى هؤلاء البسطاء أمثالي من أن يعلن (هتلر).. عفوا.. (بتلر): أن علينا أن ندمرّ العراق، مادام عربيا، لا يرضخ للصهيونية، فيغدو التدمير – في منطقه – واجبا دوليا، وهو (فرض عين) أميريكي، ولمصلحة إسرائيلية لشبهة امتلاك (العراق) شيئا من (بقايا) أسلحة، تكفي لتدمير مدينة (تل أبيب) الوديعة، البريئة!؟

كلّ شيء إذن يصبّ في صالح (إسرائيل) حماية لها، ومنعة وقوة وتفوقا خارقا، لخدمة الصهيونية العالمية التي ابتدعت بالأمس سلوكا لشخصية (هتلر) وإقامته (محرقة) لاجتثاث (العنصر اليهودي) من أجل ابتزازهم العالم – صهيونيا – وصنعت اليوم (بتلر) فعلا واقعا، لدفن الطموح العربي إلى الأبد، بإرادة طغاة العالم.

أمس (هتلر) واليوم (بتلر) ذلك عبد لنزوات النفس وجسر للمجد اليهودي والهيمنة الصهيونية، وهذا لخدمتها، وخدمة المخابرات (الأميريكية – الإسرائيلية).

من (هتلر).. إلى (بتلر).. المستفيد الأكبر (إسرائيل) وعمقها الدولي الصهيونية العالمية، في كل مكان، بما في ذلك (زوايا) من (الوطن العربي).

أما الخاسر الأول والأخير: فهم (العرب) خصوصا، و(المسلمون) عموما، لكن بعضهم لا يفقهون. هي الحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان، عرفها تماما (هتلر) نفسه في الأولين وسعى فيها، ويدركها (بتلر) ذاته في الآخرين، ولن يقف دونها.

الدوحة، 15 /1998/03.

الشيطان الأكبر.. والأمل الأعظم!

هل أدرك حقاً «شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح»؟ في كواليس السياسة وعلى أعمدة الصحف، وشاشات القنوات التلفازية العالمية لأمر (العراق) هل انتهى حديث (أسلحة الدمار الشامل)؟ وقد هدأت الزوبعة إلى (حين).. يقينا.. إلى (حين).. بين الشيطان الأكبر (أميريكا) ممثلة في (رئيسها) وبين (العرب) وليس (النظام) فقط، في (العراق).. هل هدأت بتوقيع الاتفاق يوم: (1998/2/23م) الذي ينبغي أن يسمّى (هدنة) تضمّنت (انتصارا) لهذا في عيون و(رضوخا) في عيون أخرى.. و(هزيمة) لآخر في عيون أيضا، و(انتصارا) لمنطق التلويح بالقوة في عيني هذا الشيطان الأكبر ذاته (أميريكا) على لسان الصهيوني فيها وزير (الحرب والإرهاب) ذاته (كوهين).

الشيطان الأكبر أعلن لسانه (بيل كلينتون) الملطخ بالآثام المتوعد بالدّمار: أنّ الهجوم على (العراق) تدميري وكاسح، فحرّك ترسانته، وشرعت مخالبه (الصهيونية) تنشب أظفارها في (العالم). (كوهين) هنالك، وهنا، وهناك، و(أولبرايت) في كلّ مكان، حتى بين الأمريكيين.. تحريضا.. وتحضيرا، انتهاء لخلاصة مفادها: ألاّ مناص من (تركيع العرب) مادام العراق عربيا، يريد أن ينافس (إسرائيل) قوّة، وتسليحا.

وهرعت خلف الشيطان الأكبر: أبالسة أقزام، وذيول تسحب كل ما علق بها من (قذارة) وما تفوح به من (نتانة) حتى خيل لبعض هذه الذيول أنّها فعلا ذات شأن، كحال (أستراليا) المسكينة، ورئيسها المعنّيى الذي بات (جاهزا) لشاشات القنوات كما هو جاهز للانصياع حين ينطق (كوهين) أو (أولبرايت) وهل تخلّفت ذيول عربية ولو بالصّمت أو اللاّمبالاة أمام غطرسة الشيطان وزبانيته.. بل ربّما بالتواطؤ.. أو التحريض.

لم يعد المستهدف في الذهن العربي الشريف (العراق) كمساحة ترابية، ولا (صدّام) كرجل غرق في مزالقه، وفي أخطائه وغروره، لسوء تفكير وسوء تدبير: بات المستهدف الإنسان العربي الذي تذلّه العنجهية (الأميريكية) التي تدعم (إسرائيل) بالمال والسلاح، وتعضدها لامتلاك أسلحة (الدمار الشامل) للعالم كلّه وتحول دون الحلم العربي حتى في صناعة (درّاجة) ولا (كلابة) لاقتلاع أنياب الشيطان القابع كأخطبوط في مياهنا.. الناشر أجنحته في سماواتنا.

من حقّ العربي أن يمتلئ حقدا على هذا (الشيطان) وتشيع في نفسه نخوة، وتسري في دمائه (الحمية القومية) وينتفض رفضا للعار، انطلاقا من (طنجة) مرورا بالقاهرة حتى (بغداد).

يكبر تحفّزه، وإحساسه بالضيم، وهو يرى هذه (الترسانة) الجهنمية الشيطانية تتحدّاه، تذلّه، وهي تنشر (نعاقها) في سماواته، وأراضيه، وبحاره، عابرة (القناة) قناة (السويس) نفسها متبخترة مختالة تحت سمعنا وبصرنا، لا لتحمل (طعاما) و(دواء) لإخواننا ممّن يموتون (جوعا) و(مرضا) في (العراق) بل تحمل الدمار (لمن) بقي و(ما) بقي صامدا.. رافضا في كبرياء.. وإباء الركوع والسجود، والتّسبيح والتحميد للاستعمار الجديد!شرعت الروح تعود إلى الجسم العربي الهزيل المثقل بالجراحات والأشجان، بدأ الشوق يتململ للنضال القومي، بدأ الحقد يكبر على (الشيطان) العربيد، الذي يستبيح مياهنا ليأخذ أرواحنا، بعد إهدار كرامتنا أو ما بقي منها، ومصادرة بعض من قراراتنا، في أيدي أقزام (منا).. هم (علينا) أحببنا أم كرهنا!

صار الجو كلّه (شيطانيا).. يملأه المثلّث الشيطاني (بيل كلينتون) متوعّدا، ملوّحا بالنصر على (العرب) في كلّ مكان، متجاهلا خليلته (مونيكا) الصهيونية تدعوه لنظرة و(إقرار).. وهو يمضي (القرار) لإذلال العرب (الأحرار).

ثم يأتي (التأمين) من وزير حربه وإرهابه الصهيوني العتيد (كوهين) معلنا: نحن جاهزون، وهل تتأخرّ اليهودية: (قلبا) و(قالبا) وزيرة خارجيته (أولبرايت) لتقول: لبيك، فالعرب بين يديك: فلنعد الأرضية المانعة للآهات والتأوهات الضامنة لعناصر التدمير الشامل: ماديا ومعنويا، احتثاثا لكلّ طموح عربي، ووأداً لكلّ أمل، بداية أخرى لركوع من تخلّف عن (الركوع) ليدرك الجميع (السجود) التام إلى (الشيطان الأكبر) كي تتحول قبلة العرب من (بيت الله الحرام) في (مكة المكرمة) إلى (البيت الأبيض) المسود، في (واشنطن).

هو منطق الشيطان، كما جسدّه عمليا هذا الثلاثي، بقيادة رأسه (كلينتون) بوقاحته السافرة، ثم بذراعيه الممدودتين: (أولبرايت) و(كوهين) باستفزازهما للوطن العربي والعالم الإسلامي كشأن رأسهما، فضلا عن استخفافهم جميعا بالعالم كلّه.

فمتى يرتاح (العالم) من هذا (المثلث) الشيطاني الذي لوّث سماواتنا، وأراضينا، وبحارنا، كما سمّم نفوسنا، وضرب صفوفنا، وأشاع الفرقة والتناحر بيننا، ليجعل من نفسه (حكما) كحمل وديع، وهو خصم تاريخي كشيطان مريد.

فهل يرحل الرأس الشيطاني حقا من (بيته الأبيض) في (ربيعنا) هذا؟ لنرتاح من (ابتسامته) الإبليسية، المبطنة بالخبث الطافحة: بالمكر والعار!

لا أهتم بتنجيم، ولا أعبأ بمنجمين، وما تمنيت يوما أن تصدّق (الصدّف) والظروف (نُبوأية) منجّم، كما تمنّيتها هذه المرة، ليرحل هذا الرجل (كلينتون) من (البيت الأبيض) مطأطئ الرأس، منكسر الذراعين نفسيهما، رغم علمي التام أن (جراء الكلبة) خلقة واحدة، فهي متماثلة، يزاح أحدها أو يبعد لأمر ما، فيخلفه نظير في كلّ شيء. فأميريكا لا تولي أمرها إلاّ الذيَ يخدم (إسرائيل) في كلّ شيء، ولا يقف دون ما تريده كاملا غير منقوص حسب هواها وحدها.

ليس من سبيل لردع أميريكا إلاّ القوة المادية والمعنوية، مع تخليص الصف العربي من العبيد (Les esclaves) كما مثّلتهم صورة ذلك (البدوي) الذي هرع نحو (دبابة) أميريكية محشوة بالموت الزؤام للعرب، كي يصعد إلى أحد أطرافها سعيدا بمنظرها وأحد (الغلمان) من جنودها الأميريكيين ينظر إليه، ساخرا من (منظره) في عباءته إلى جانب فوهة المدفع، فاتخذت الرؤية لدى الجندي طابع التسلية بآدمي توفّر على حسّ (القابلية للاستعباد) مع بقاء شيء في نفسه من نعرات فجرت (داحس والغبراء) قبل أن يضربهما محمد (صلى الله عليه وسلم) في الأولين، لينبشها هذا البدوي وأمثاله في الآخرين، ومعهم نحشر كلّ أولئك (الطغاة) الصغار والكبار الذين فتتوا الصف العربي الهش بطبعه، وطبيعته، المستمرّة هشاشته إلى.. ما يعلمه إلا الله وحده.

لكن يبقى الأمل أعظم، والحلم أوسع وأقوى، واليأس محظور، وهو أمر ربّنا، لدحر كلّ الشياطين، برؤوسها وأذرعها، وذيولها، وعبيدها المباشرين، وغير المباشرين.

الدوحة، 1998/04/01.

وأي جديد .. فيك .. يا عيد ؟!

منذ سنة.. كتبت من (الجزائر) ونشرت هنا في (الدوحة).. ألاّ جديد في (عيد).. فهل سيعود بجديد؟ وأيّ جديد؟.. وها هو قد عاد.. وما من جديد!

قلتها يومئذ ونحن ندفع (الأضاحي) للذبح، ومشاعرنا مذبوحة، قلوبنا مذبوحة، حاضرنا كان مذبوحا.. كماضينا، وهل سيبقى؟ أعيد السؤال المبرّح.. أعيده وهل سيصير مزمنا.. يا ربّاه!

أعلى أمة العطاء والوفاء و(الجهاد) و(الاستشهاد) أن تدفع ثمنا جزافيا لأخطاء من خدعوها.. وغدروا بها وضلّلوها؟ أعليها أن تدفع ثمن غرور أولئك وعنجهية هؤلاء؟ هل حكمت عليها الأقدار أن تكون ضحية (الجهل) و(الجاهلية) الجديدة في العقول والقلوب، في نفوس ركبها (النزق) واستبد بها (الاندفاع) واستحكم منها (الإفراط) و(التّفريط) في صفوف (سلطة) و(معارضة) عشائرية قبلية، وعميلة في أكثر من عباءة، سخّرتها قوى البغي، وإرادة الشرّ الظالمة للانتقام من بلد دفع (مليوني شهيد) على مذبح الحرية، بين (1830م) و(1962م).

لقد كانت سنة إبراهيم عليه السلام عملا قائما في ربوعك يا وطنا حبيبا، عن وعي وإيمان، وحين استشرت قوى الشر الاستعمارية في ربوعك إبان الاحتلال، كانت ثورة العروبة والإسلام (1954–1962) أعظم ثورات القرن العشرين: فصارت الأضاحي تدفع نقدا لحشو البندقية، ليكون ثغاؤها لعلعة رصاص يحرق أفئدة المستعمرين الظالمين، حتّى تحرّرنا.. بثمن مقداره (مليونا شهيد) بإضافة النصف بين (1830م) و(1954م).

وما كدنا ننتهي من عرق (الجهاد) حتّى أصابنا أرق (العناد) تائهين في كلّ واد.. ماضين نحوَ(الغرق) وما أدراك ما (الغرق) في (حمأة السياسة) الحافلة بأسواق للنّخاسة، تباع الضمائر والذمم، في وطن ينهدم.

ماضينا مذبوح، مثله حاضرنا، وعند الله العلم بمستقبلنا. هل قدرنا المعاناة؟ قلتها منذ سنة، وأضاحينا تدفع إلى حتفها كحالنا، فأضحينا في مسلخ واحد: ذابحا ومذبوحا، نحن مذبوحون كأضاحينا، فمن اغتصب الفرحة من قلوبنا؟ من عيون أبنائنا؟ أيحقّ لنا أن نبرّئ عدوّنا التاريخي التقليدي الذي لا تفصلنا عنه سوى بضعة من مئات الأميال هي (بحيرة المتوسط) التي تلوّثت بجرائمه الإنسانية. هو صانع (الجرائم) وهو (النائح) فيها، كقاتل يمشي في جنازة مقتول: متباكيا اليوم على (حقوق الإنسان) في (الجزائر) و(مذابحها) و(تجاوزاتها) وهو صانعها، يغذّي حقده وماله كلّ الأطراف المتواجدة على الميدان: لغة، وثقافة، ولفظا، وسلاحا، وعنفا في كلّ الأحوال، هو عنف مادي ومعنوي لا يقلّ فيه ضرر الثاني عن الأول.فهل قدرنا أن نهجّر (العيد) ولم يعد فيه فرق بين (أضحية) تذبح، وبين مضحّ (مذبوح): في وطنيته، في أمنه، في تاريخه، في كرامته، فمتى ينتهي يا ربّ مسلسل العناء والضنى؟!

الأوجاع نفسها تستمرّ منذ عرفت (الجزائر) وجه الاستعمار اللعين في (1830م) رحلته بنادق الثوار الأحرار، ففرّخ – وراءه – جراثيمه العميلة تتابع تنفيذ خططه، لقهرنا، وإذلالنا، إنّها الوجه الجديد من (العمالة) لوجه قديم، لاستعمار عكّر صفو الحياة يومئذ، فبكّرت للتّشهير به أقلام فذّة رائدة، قبل أن يولد هذا القلم المتعثر الحيي الخجول حتى من نفسه، أما اضطرّ (أمير البيان العربي) الشيخ (محمد البشير الإبراهيمي) لممارسة التشاؤم (الشرعي) وهو يستقبل (العيد) في (الجزائر) سنة (1948م) فقال: «يا عيد بأية حال عدت؟ وبأيّ نوال جدت؟.... فيك أيّها العيد – يستروح الأشقياء ريح السعادة، وفيك يتنفّس المختنقون في جوّ من السعة.... وفيك تسلس النفوس الجامحة قيادها إلى الخير، وفيك تهش النفوس الكزّة إلى الإحسان، فلا تلم البائسين – وقد

عوّدتهم هذا – أن يسألوك المزيد: فيطلب الخائفون أن تشرق عليهم شمسك بالأمان، ويرجو المظلومون أن يطلع عليهم يومك بالانتصاف، ويتمنّى المستعبدون أن يتجلّى لهم ليلك عن الحرية والسيادة.»

فهل امّحت الصورة، ليس جزائريا فحسب، بل عربيا خصوصا، وإسلاميا عموما؟ لقد بدا إصرار الصورة واضحا في تكرارها واطرادها حالكة تزيدها قوى البغي العالمية ظلاما على ظلام، كي يكون (القدر المتاح) لبعض من أفراحهم العيدية صورا باردة، تعكس صقيعا في قلوبنا، وتتأجّج فيها حرائقنا، نغذيها، فنضاعفها، أما صدق (الشيخ) حين عاد إلى ذلك بعد نحو ثماني سنوات، متأوّها، وثورة (الجزائر) هذه المرة في سنتها الثانية، وكانت تأوّهاته هذه المرة من إذاعة (صوت العرب) في (القاهرة) في الواحد والعشرين من شهر (ماي 1955م) قائلا: «بأية حال عدت يا عيد... هل أنت بشير لهذه الأمم التي تحتفل باستهلالك.... أم أنت لها نذير بدوام الشقاء واستمرار البلاء؟.... فقل لنا بمن أطلع هلالك وسنّ في الإسلام إنزالك، ماذا حملت حقيبة العام الماضي من أعمال المسلمين وأحوالهم؟ ويمينا لو أنطقك الله الذي أنطق كل شيء لأدّيت شهادة الحق فيهم بنصّها، ولدپلپلرّت على حقيقة أمرهم على فصلها، ولقلت غير كاذب: إن العام الماضي، أظلّهم وهو ساهون، وفارقهم بالأمس وهم لا هون، فلا رأيا نافعا قرّروا، ولا وطنا مغصوبا حرّروا، وكلّ ما قطعوا فيه أنّات أحاديث لم يملها العقل، وأقوال لهم لم يصححها النقل، ونزاع بينهم وجدال، وغلوّ وتقصير ليس بينهما اعتدال، شقاق مع القريب، ووفاق مع الغريب، وكفر بالاتحاد وإيمان بالإلحاد، لا ينوا الأجنبي أكثر ممّا كانوا، ودانوا بطاعته أعظم ممّا دانوا، وأضاعوا من مصالحهم وأوطانهم وحرماتهم أضعاف ما صانوا»

وكلّ عام ونحن نائمون! في سبات.. بعد سبات: مستغرقون.. إلاّ أن يشاء ربّ العالمين، ولن يشاء لقوم في ضلالهم يعمهون، وفي غيّهم سادرون.

الدوحة، 1998/04/07.

الثامن .. في (ماي 1945م) .. وما هو ..؟!

بمنطق الإرادة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر(1830م–1962م) أصدرت قوانينها العديدة الجائرة، من بينها قانون التّجنيد الإجباري الذي صار ساري المفعول منذ (1912م) فيجنّد بمقتضاه الشباب الجزائري البالغ من العمر الثامنة عشرة، وبذلك مات دفاعا عن (فرنسا) في الحربين العالميتين: الأولى والثانية أكثر من عشرين ألف شاب جزائري.

وفي الوقت الذي كانت فيه جيوش (ألمانيا) تدكّ حصون (باريس) في (الحرب الثانية) وتيعيث فساد في شوارعها: كان الرئيس الفرنسي (شارل ديغول) فارا في (الجزائر) مستنجدا بالشباب لتحرير (فرنسا) من بطش (ألمانيا) ملوّحا بوعود (الاستقلال) للجزائريين، بعد الخلاص من القبضة (الهتلرية) الحديدية.ومتى كان للاستعمار وفاء.. بوعود.. وعهود.. ومواثيق؟ أيّ استعمار على وجه الأرض!؟ وهل يشذ الاستعمار الفرنسي عن ذلك؟ وهو ألعن استعمار وأقبحه وأنذله على وجه الأرض في العصر الحديث؟!

لقد تمّ (تحرير فرنسا).. وفرح العالم بهزيمة النازية، فهل يتأخّر الجزائريون عن إعلان فرحهم انتظارا وهميا.. لوفاء المحتلين الفرنسية، فخرجوا في مظاهرات سلمية.. يوم (8 ماي 1945م) يطالبون (فرنسا) بالوفاء بوعودها، بعد أن مات في سبيلها أكثر من عشرين ألف شاب، لم يستفد ذووهم الأقربون من أيّ حق!

انطلقت تلك المظاهرات السلمية في عدة مدن جزائرية، اشتهرت منها ثلاث مدن (سطيف) و(قالمة) و(خراطة) لكثرة المجازر البشرية التي ارتكبها الاستعمار فيها.

انطلقت المظاهرات في ذلك اليوم لتستمر متفرقة في المدن الجزائرية نحو شهرين اثنين، كانت آلة القمع الاستعمارية أكثر شراسة منذ اليوم الأول، يصبّ جيوش الأعداء نيراهم الحارقة الحاقدة، من الجوّ، وبمدفعية الدبابات، ومن البحر على المدن الساحلية، فضلا عن الأسلحة اليدوية التي كانت تحصد البشر أكواما، فنال المدن المذكورة أكبر البلاء، في اليوم الأول نفسه، لتسفر الحصيلة بعد نهاية شهر جوان على خمس وأربعين ألف مواطن شهيد، يضافون إلى العدد الذي مات في سبيل (فرنسا) نفسها، فكان ذلك اليوم: الخلاصة المركزة لإرادة الاحتلال في البقاء والقمع والإذلال، من دون حوار، ممّا هيأ للانفجار الأكبر في ثورة (1954–1962م) التي مرغت أنفه في التراب.

فبقي (الثامن ماي) ذكرى مبرّحة بآلامها، وضحاياها الشهداء، فضلا عن ألوف زجّ بهم في السجون، أو نفوا، أو شرّدوا، ومن بينهم (رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) الذي استعاد الذكرى المؤلمة بعد ذلك بسنتين، فكتب عنها في جريدة (البصائر) ببيانه المعهود الذي أوثر اليوم هنا أن أقدّم جزءا منه، في فقرات من وصفه ذلك اليوم الأغبر، فقال في قطعة من (نثره) الذي هو من غرر النثر العربي الحديث: «يوم مظلم الجوانب بالظلم، مطرّز الحواشي بالدماء المطلولة، مقشعرّ الأرض من بطش الأقوياء، مبتهج السماء بأرواح الشهداء، خلعت شمسه طبيعتها فلا حياة ولا نور، وخرج شهره عن طاعة الربيع، فلا ثمرپ ولا نور، وغبنت حقيقته عند الأقلام فلا تصوير، ولا تدوين.

يوم ليس بالغريب عن (رزنامة) الاستعمار الفرنسي بهذا الوطن: فكم له من أيام مثله، ولكنّ الغريب فيه أن يُجعل – عن قصد – ختاما لكتاب الحرب، ممّن أنهكتهم الحرب على من قاسمهم لأواءها، وأعانهم على إحراز النّصر فيها، ولو كان هذا اليوم في أوائل الحرب [العالمية الثانية] لوجدنا من يقول: إنّه تجربة، كما يجرّب الجبان القوي سيفه في الضّعيف الأعزل.

تستحسن العقول قتل القاتل، وتؤيّدها الشرائع فتحكم بقتل القاتل، ولكنّ الاستعمار العاتي، يتحدّى العقول لأنّه عدوّها، والشرائع لأنّها عدوّه، فلا يقوم إلاّ على قتل غير القاتل، ويغلو في التألّه الطاغي، فيتحدّى خالق العقول ومنزّل الشرّائع، وينسخ حكم الله بحكمه، ورحمة الله بقسوته، فيقتل الشيوخ والزمنى والنّساء والأطفال...إلخ.

عاودت الاستعمار ألوهيته وحيوانيته في لحظة واحدة، يحاد الله بتلك ويغتال عباده بهذه، وعاد بالتقتيل على من كانوا بالأمس يمدّون حياته بحياتهم، ليريهم مبلغ الصدق في تلك الوعود، ويحدّهم بلغة الدم ومنطق الأشلاء أنّه إنما أقام سوق الحرب ليشتري حياته بموتهم، وليرمّم جداره بهدم ديارهم، فإذا بقي منهم كلب بالوصيد أو من ديارهم قائم غير حصيد، قضى ذلك المنطق فيه الإبادة والمحو، وجعل أيامه خاتمه لأيام الدم والحديد...إلخ.

وفي لحظة واحدة تسامع العالم بأنّ الحرب انتهت مساء أمس ببرلين، وابتدأت صباح اليوم بالجزائر، وفيما بين خطرة البرق، بين الغرب والشرق: أعلنت حرب من طرف واحد، وانجلت في بضعة أيّام عن ألوف من القتلى العزّل الضعفاء.... ذلكم هو يوم 8 ماي.

لك الويل أيّها الاستعمار! أهذا جزاء من استنجدته في ساعة العسرة فأنجدك، واستصرخته حين أيقنتب بالعدم فأوجدك؟ أهذا جزاء من كان يسهر وأبناؤك نيام، ويجوع أهله وأهلك بطان، ويثبت في العواصف التي تطير فيها نفوس أبنائك شيعاعا؟ أيشرّفك أن ينقلب الجزائري من ميدان القتال إلى أهله بعد أن شاركك في النّصر لا في الغنيمة.... فيجد الأب قتيلا، والأم مجنونة، من الفزع والدار مهدومة أو محرقة، والغلّة متلفة، والعرض منتهكا، والمال نهبا مقسما، والصغار هائمين في العراء.

يا يوم!.. لله دماء بريئة أريقت فيك، ولله أعراض طاهرة انتهكت فيك، ولله أموال محترمة استبيحت فيك، ولله يتامى فقدوا العائل الكافي فيك، ولله أيامى فقدن بعولتهنّ فيك.يا يوم!.. لكِ في نفوسنا السِمة التي لا تمحى، والذكرى التي لا تُنسى، فكن من أية سنة شئت فأنت يوم 8 ماي وكفى، وكلّ ما لك علينا من ديين أن نحيي ذكراك، وكلّ ما علينا لك من واجب أن ندوّن تاريخك في الطروس، لئلاّ يمسحه النسيان من النفوس».

ومع ذلك لا يزال بعض من (شواذ) هذا الزمن الغادر اجتماعيا وثقافيا وسياسيا يحبون (فرنسا) ورجال (فرنسا) وبنات (فرنسا) وحياة (فرنسا).

فمن يجرؤ على لومي إذن حين أشكّك في (دماء) هؤلاء المتيمين بفرنسا، فأشكك بصيغة (اليقين) في انتسابهم للجزائر أرضا، وللجزائري (دما)..

ها هنا واحد من مصادر محننا، بعض (صناعها) هؤلاء الذين لا تربطهم بالجزائر سوى (بطاقة هوية) ميتة، تعلن (جنسية جزائرية) أما المشاعر والميول، والثقافة، و(الدماء) أيضا، فهي لغير (الجزائر) لغير (الجزائري) فكيف لي أن أقمع الإحساس بالسخط على واحد من مصادر بلوانا التي شوّهت صورة وطن (الجهاد) و(الاستشهاد) الذي سجل ثورة القرن العشرين، التي (اغتصبها) القردة والعملاء والمرتزقة الذين يصادرون أمننا وحبنا وسلامنا، بعدما شنقوا الأفراح والآمال في قلوبنا، وأبادوا البسمة الكاملة على شفاهنا، وشفاه أبنائنا.

لك الله يا وطن العمالقة العظام، في زمن (العبيد) الأقزام: فالتحية لك، والخزي لهم. وسلام عليك في شموخك وصمودك، وما النّصر إلاّ.. لك.. وإن طال ليلك مع الظالمين العابثين!

الدوحة، 1998/05/11.

(الجزائـر) .. و(الجـزر)!؟

حين تفوتك معرفة خصائص اجتماعية وفكرية ونفسية في قطر لم تزره من (وطنك العربي) فهو أمر طبيعي، أما الجهل بحقيقته الجغرافية والتاريخية فتلك هي المصيبة العظمى، وأمّ المصائب أن يكون ذلك في (عصر حديث) شرع العالم فيه منذ عقود يتحوّل فعلا إلى «قرية صغيرة» معروفة الدروب، والمنعرجات، واضحة القسمات، وتعظم المصيبة مع (صحفي) يفترض فيه الإلمام بشروط مهنته القائمة على العلم، والوعي واليقظة.

لكن سوء الحال والمآل.. يجعل بعض المهن (الشريفة) أصلا، ومنها (التعليم) و(الصحافة) مستباحة غالبا لكل (حاطب) في (ليل) لا يعنيه ما يجمع من عناصر، مادته، كما لا تعنيه بداية الحقيقة ونهايتها.

لعلّ من هؤلاء ذلك الصحفي (المسكين)الذي طلبت منه في أواخر (الخمسينات) صحيفته القاهرية أن يكتب عن ثوار (الجزائر) في مواجهة جيوش الاحتلال الفرنسي، إبان الثورة الجزائرية المسلحة (1954–1962م) فاندفع من دون ترو: يكتب أن (الثوار الجزائريين) في (الجزائر) لا يزالون يطاردون الفرنسيين (من جزيرة إلى جزيرة).

فخيل للمسكين أن (الجزائر) هذه جزر، وهي في واقع الحال ليست بها جزيرة واحدة. ثم أن الرجل كتب (مقالته) في نحو سنة (1958م) وهي الفترة التي وضعت فيها (فرنسا) كل ثقلها العسكري في مواجهة الثوار، معزّزة بقوات الحلف الأطلسي التي لم تتأخّر يوما.. ولا لحظة.. عن المدد والمآزرة، لإجهاض الثورة وخنق الثوار، والعمل لاختناقهم تحت الحصار، وفصلهم بسياسة (المحتشدات) الريفية عن (المدن) و(القرى) وعن مواطنيهم في (الأرياف).

فبدا له مع ذلك أن المحتلين الفرنسيين، هم (مساكين) مجموعات صغيرة أصابها الهلع: فهي هاربة تبحث لها عن (ملاذ) في زاوية من هذه الجزيرة أو في تلك، أمام زحف (الثوار) وملاحقتهم.

في حين كانت القوات الفرنسية معززة بفيالق الحلف الأطلسي، تملأ طائراتها السماء، وتهزّ مجنزراتها الأرض، وتنتشر دباباتها وآلياتها كالأفاعي الزاحفة في الوهاد، وسفوح الجبال: فتلاحق حتى أنفاس المواطنين الجزائريين.

هذه الظاهرة (الجهلية) دفعت الشيخ (أحمد توفيق المدني: 1889–1984م) يومئذ – وكان ضمن البعثة الديبلوماسية للثورة الجزائرية في القاهرة – أن يبادر بتأليف كتابه: «هذه هي الجزائر» ليكون عونا سريعا للذين اختلط عليهم الأمر بين (الجزر) و(الجزائر) ذات المساحة التي تزيد عن (مليونين وثلاث مئة ألف كيلو مترا مربّعا) وذات الشاطئ الممتدّ على مسافة (ألف ومئتي كيلومترا) وذات (الاثني عشر مليون نسمة) يومئذ.

كنت أحسب أنّ الأمر انتهى هنا، وأننا نحن الجزائريين.. كنّا بذلك شركاء بنتائج الجهل بالبلد: لذا أعذر المواطن العادي لكنني لا أعذرُ أبدا مثقفا عربيا لا يفرّق، بين تاريخ إعلان ثورتنا التي هي ثورة عربية (في 1954) وتاريخ استقلالنا (في 1962) في ثورة قال لي مثقف عربي في (الدوحة) أننا كنا هنيا نرتّل أناشيد تمجيدها، ونحفظ تاريخها ونحن أطفال، نردّد بطولات الثوار.

وفي السياق.. ومن عجب (العجب) أن يقول لي في (الدوحة) أخ من (قطر عربي): إنّكم تتمسكّون في (الجزائر) بالعربية تمسكا عنيدا، انتقاما من ماض حرمكم منها، فلم أعرف بماذا أجيبه عن (البديهيات) فاكتفيت بالقول: حين كانت (فرنسا) تجهد نفسها في فتح المدارس، لتعليم الجزائريين الفرنسية وتنصيرهم: كان الشعب الجزائري يواجه ذلك بمقاطعة تلك المدارس – عند الاختيار أو تحايلا على إدارة الاحتلال – ويفتح في الوقت نفسه المدارس

العربية الحرة، رغم الملاحقة والتّضييق، والتهديد والوعيد، لتبقى (الجزائر) عربية عملاقة بلغتها ودينها، وتبقى فيها العربية قوية في الأفئدة، مدوية على الألسنة، عذبة في الأسماع، وعند العجز أو المنع: دون تأسيس مدرسة حرة، ينهض (الكُتَّاب) أو (المدرسة القرآنية) بالمهمة، لتحفيظ القرآن الكريم، في مواجهة المدرسة الفرنسية.

فما نهضت مدرسة فرنسية إلا نهض في وجهها أكثر من (كُتَاب) لتحفيظ القرآن، حماية للغة الضاد من التيه والذوبان، هذا زيادة عن الجهود الوطنية الأخرى في المساجد الشعبية (الخاصة) وفي (الزوايا).

لذا فإنّ (الإمكانيات التقانية) الحديثة التي مكّنت للفرنسية في (الجزائر) لم تحل دون العربية ومحيطها الطبيعي، بل بقيت سيدة مدعومة، بعد الاستقلال بالمنهج التربوي الصارم للارتقاء باللغة: أداة علم، و(أداة تعليم) الأمر الذي يجعل (المشاهد) يسمع في كلّ الدروس بالمؤسسات التّعليمية في (الجزائر) ما يسرّ: فالحرص على العربية الفصحى في قاعات التدريس (ضرورة تربوية) بيداغوجية: يراعيها الطفل، والمعلم منذ السنة الأولى في المدرسة الابتدائية.

وهنا أستطيع أن أجزم بقوّة أن الإعلامي العربية الدكتور (علي محمد الهيل) نطق حقّاً، على علم من واقع المشاهدة والخبرة، بعيدا عن منطق (جزائر الجزر) لدى ذلك الصحفي، حين أعلن (الهيل) انطباعه في (ندوة اللغة العربية) بجامعة (قطر) أواخر (مارس1998) قائلا: إنه في الصيف الماضي كان بالجزائر، فزار مدينة (عنّابة) في شرق (الجزائر) ومدينة (سطيف) في (وسطها) والجزائر العاصمة نفسها: فدخل المدارس في هذه المدن وشاهد استماتة قوية من المعلمين والأساتذة والأطفال والطلبة في استعمال اللغة العربية الفصحى، والتّمسك بها أداة على الألسنة لغة تعليم، وحوار في القاعات، فعبّر عن مفاجأته بقوله «شدهت» لهذه العربية الفصحى التي يتمسك بها معلِّم ومتعلَّم في استماتة قوية.

ولا أكتم القارئ أن عيني دمعت لسماع كلمة حق عن وطني، كلمة حق لا رياء فيها، ولا بهتان، كلمة حق من واقع المشاهدة تقوّض تبجّج (جهلة) بعيدين عن الحقيقة، وغوغائيين متخلفين فكريا، بدت في أذهانهم المريضة (الجزائر) العظيمة المتماسكة: جزرا متناثرة، ضائعة في محيط (عقل) تعصف فيه الرياح، رياح الجهل والغرور.

هذا مع العلم أن المدرسة الجزائرية، ورغم كل المصائب (النابتة) و(الوافدة) وبعض الممارسات المغرضة التآمرية: إنّها مدرسة منضبطة تربويا، فالمعلم والتلميذ تربيّا على أن لغة التعليم ينبغي أن تنتفي منها لغة الشارع (العامية) فاللغة العربية الفصحى سيدة الموقف في دروس (العلوم الطبيعية) و(الفيزياء) و(الرياضيات) و(الجغرافيا) فضلاً عن دروس النحو والبلاغة والأدب. حتى أنّ بعض إخواننا.. العرب الوافدين للتعليم في (الجزائر) وجدوا صعوبة كبيرة في التخلّي عن عامياتهم التي يعلّمون بها.

والتشريع المدرسي الجزائري كان صارما جدا، في إلحاحه على ضرورة احترام (لغة التّعليم) والإخلال بها يعرّض (المعلم) أخيرا في المرحلة الابتدائية نفسها إلى إجراءات الطرد من العمل، والاستغناء عن (خدماته) والأمر نفسه ينسحب – مع مرونة قليلة – على تعليم اللغات الأجنبية، في المؤسسات التعليمية الجزائرية.

وأخيرا.. غفر الله لك أيّها الصحفي (الماهر) الساهي عن (الجزائر) المولع (بالجزُر) والشكر للإعلامي الوطني القطري الدكتور (علي الهيل) فرب كلمة حق نبيلة خير من ألف صدقة، مع ألف تحية لقطر المحفزة الموحية، وحزمة أمان وأشواق إلى (الجزائر) الحبيبة في القلب وفي العقل أبدا.. ودائما، رغم كيد الكائدين من داخلها ومن خارجها، ورغم الدماء والدموع.. وستبقين.. أبدا.. دائما.. عظيمة شامخة.. اليوم.. وغدا مثل الأمس، وسلام عليك في صبرك وصمودك.. مثل إبائك وشموخك!

الدوحة، 1998/04/03.

حتى الأعداء .. درجات !

في جلسة (شاي) ودية بسفارة عربية في (الجزائر) سألني ذات يوم (ديبلوماسي) عربي صديق –أو هكذا خيل لي– سؤالا لم أتوقعه قط، لا صيغة، ولا موضوعا: فكان نصّه هكذا: ألا تعتقد أنّ (فلانا).. (بربري – بعثي)؟

كان السؤال مباغتا، لأنّ هذا (الفلان) صاحب مواقف جوهرية معلنة، ولا تهمّ التفصيلات أصولا وفروعا، ثم عن الهدف من (السؤال) المباغت، والجمع بين متناقضين، فقلت في البدء مازحا:

– أتريدني واشيا – أعاذنا الله – أعمل للوقيعة بين الناس، ثمّ ما الهدف من ذلك؟

فقال الصديق العربي (أو هكذا أصنّفه، والله يتولّى السرائر):

بصراحة، نحن ننوي أن تشمله الدعوات التي نوجّهها إلى (...) كي يزور (...) – مع العلم أنّ الدعوة لم تشملني أنا لاحقا، والحمد لله الذي لا يحمد على سوء سواه – لكنني قلت:

– وما علاقة ذلك بهذا التركيب (بربري – بعثي)؟ فشبهة (البربرية) المرتبطة لدينا بالعمالة، وبالفكر السياسي الاستعماري، تختلف عن (البعثية) بما لها وما عليها.

فقال الرجل، وقد التفت نحوي بجدية أكثر من ذي قبل، وعلى ملامحه ابتسامة (ودودة):

– بل هناك العلاقة الوطيدة، أفلا تعتقد أن البربرية لديكم ذات روح نصرانية؟ ألم تكتب أنت نفسك ذلك بطريقة ما؟ هي الروح نفسها التي تتوفّر عليها (البعثية)!

– طيب، فلنفترض أن ما قلته صحيح – في العموميات – فما دخله في أن تشمل الدعوة الرّجل أو تقف دونه؟

– نحن لا نريد أن نخدم أعداء أمتنا!

– مرحى، لكن أية أمّة تقصد؟

– أمتنا العربية الإسلامية، طبعا!

– وقد خدمتم من هم أكثر عداء لها من (النصراني) خدمتم (رجال الفكر) الإلحادي، عملاء القياصرة القدماء والجدد، كلاب (لينين) في الأولين، و(بريجينيف) في الآخرين، استضفتم شيوعيين، لمّعتم (أقزاما) يسارية متطرفة، بذلتم لعناصرهم: العون المادي والمعنوي، نظمتم لهم (رحلات) و(نزهات) بذلتم لهم أجهزتكم الإعلامية، نشرتم لهم (بأجور عالية) وهم أشدّ خطرا على أمتنا من (النصراني) الأصيل المسالم، استضفتموهم، وأنا الذي لا أشكّ بإذن الله في عروبتي ولا في إسلامي واحد من الذين لم يستنشقوا هواء بلادكم، ولا هواها، هواها مصروف لأعداء الأمة الذين لا يمكن بالتأكيد أن يكون ذلك (الفلان) منهم!

فلنحذر الأحكام الجزافية، ولنتحرر من ضغوط (الشيوعيين) أو (أدعياء الشيوعية)!

– فقال صاحبي في جدية تامة: أنا لا أتّهم، أريد أن أعرف!

– بل هي اتهامات دسّها لكم (اليسار) المريض بإيديولوجيته.

– لا يمكن أن يكون ذلك! نحن نتصرّف بوعي!

– جميل كلامك، تستحقون عليه التّهنئة حين تجسّدون القول في الفعل، بل ليت الفعل سبق القول!

رغم حرصي على أن يبقى الحديث في إطاره الودي العام، من دون إثارة ولا تفاصيل فقد لاحظت امتقاعا عل وجه صاحبي، فجنحت إلى الانصراف عن

الموضوع، فأنا ضيف في مكتبه، بطبعي أبعد الناس عن الإحراج. لكنّ صاحبي أصرّ على إبقائي في الموضوع: فهو يرفض أن ينتهي الحوار بتمسكي برأيي، في حقيقة دعمهم (التيار الشيوعي) فوجدت في نفسي ميلا إلى المواجهة الأخوية بالحقائق، فقلت له: إنّك كما طلبت مني رأيي في هذا (البربري – البعثي) طلبت في أول عهدك هنا رأي (عناصر) من التيار الشيوعي في شخصي المتواضع، ألم يقولوا لك: إنه «انعزالي متعصب لوطنيته الرومانسية، ذو نزعة بعثية» فكل عربي – إسلامي، لديهم بعثي بالضرورة، كما يريدون لا كما تسمّى الأشياء بأسمائها.

وحماقة هذه الجماعة أنّها تحاول التباهي بانتصاراتها في الملإ، من بينها أنّهم وقفوا دون نشر أعمالي في دوريات ثقافية، ممّا كان ينبغي ألاّ تلوّثها السياسة، أو شظاياها، وهم يصوّرون لكم الحق باطلا، والباطل حقا، فإذا قضوا منكم (الأوطار) انقلبوا عليكم، فانتظروا، فلا وفاء لهم حتى لأوطانهم، أوطانهم أهواؤهم وبطونهم، بذلك يفكرون، وله يعيشون، وعليه يموتون.

هذه الكلمة الأخيرة قطعها رنين الهاتف على مكتب صاحبي، فنهض ليرفع (السماعة) فيستقبل صوت (واحد من هؤلاء) يستعجله إعداد (الدولارات) الخاصة بموضوعه (الثقافي) في (صحيفة) سياسية ببلد الديبلوماسي العربي (الصديق)!

على الفور تصوّرت المصير والمآل للعلاقة، في هذا البلد العربي، مع هذه (الشلة) الماسكة في (ذيول الشيوعية) الغاربة، كالمصير والمآل في علاقتها بالعراق الذي لم أزره والحمد لله الذي لا يحمد على سوء سواه. (العراق) الذي ملأ سياسيوه الدنيا صخبا وكذبا، حاول الاستفادة من (هؤلاء) كما كان (البقرة الحلوب) لهم ولأشباههم ولأتباعهم، ممّن (لا دين لهم) و(لا ملّة) فكانوا يتقدمون الصفوف في (الملتقيات) و(المؤتمرات) على أن تبقى

الأبواب موصدة وراءهم، دون معظم العناصر الشريفة: الطاهرة الفكر والنيات في الوطن العربي.

حين تلقّى (العراق) الضربات الماحقة، لم يعد لهم فيه نفع، فانقلبوا عليه لا مُعرِّرجضين صامتين فحسب بل معرّضين شامتين شاتمين وفاء لمبدئهم، فتحولّت (مرابض الملتقيات) و(منابر النشر) و(منابع الجوائز) و(الأرصدة) من (العراق) إلى (الكويت) كما تغيّرت الوجهات، في الرحلات، ومصادر الدعوات، وإلى حين، هذه حالهم..فلنحدد الأعداء.. فهم مستويات، ودرجات، والتعامل دائما بالأولويات، في الأصول.. وفي الفروع يا سعادة (الدبيلوماسي) الوقور.

الدوحة، 1998/06/15.

أسماء .. و.. مسميات !؟

لعلّة، أو لعلل عديدة، ربّما.. تتناقض (الأسماء) مع (مسمياتها) حتّى أنّ بعضها يبدو ذا طابع (قسري) مثلما يبدو بعضها الآخر.. كأنّما فرضته الأقدار فرضا، ولعبت الصدّف دورها في صياغته، عن غير قصد، ومن دون إصرار، لا من لدن حامل (الاسم) ولا الذي أطلقه عليه، لكن للأقدار فيما يبدو غايتها، كما لها يدها الطولى في النهاية لتناقض (أسماء) مع (مسميات) وهي ظاهرة عجيبة كثيرا مالفتت نظري: اجتماعيا وسياسيا، بتناقض قد يكون شديدا في صلة (اسم) بمسمى.

فهذا الذي أطلق عليه أبواه اسم (العربي) قد بات العدو اللّدود، الرقم الأول في جيوش (العداء) للعرب، وللعروبة، ويبغض حتى النخاع حروف اسمه (الصارخة) بالنسبة العربية (ع.ر.ب) من دون محاولة للخلاص من الاسم الذي فرض عليه (قسرا) فصار قدره الذي يضيق به.

ولا يختلف عنه ذلك الذي أسماه الأبوان (محمدا) وهو المخلوق الملحد المشوّه، الكافر بالله وبمحمد، وبسائر الأنبياء والكتب: فليس له في النهاية من إيمان إلاّ بما يشبع نهمه المادي وغرائزه البهيمية.

وكذلك الحال في هذه التي حملت اسم (خيرة) أو (خيرية) وهي طالع شرّ، وصنيعة شيطان، مثلها (زينة) التي بدا أن الصدفة وحدها (أزاحت) خطأ حرف (الشين) ليحل محلّه حرف (الزاي) فتناقض (الاسم) مع (المسمى) الذي لا يعرب إلاّ عن أفعال (مشينة) أتكلّم عن ظاهرة، لا عن الاسم مطلقا.

وهذا هو إذن حال أكثر من واحد ممّن أعرف اسمه (الطاهر) وهو كلّه (نجاسة) فكرا وعملا. ملحد، جبان، غادر، انتهازي، ماكر، متآمر، كافر بكل ما يفرض طهارة في جسم وروح (من إيمان، وصلاة، وصيام).

وهل يختلف عن ذلك أمير شعراء المغرب العربي (محمد العيد آل خليفة) الذي يوحي اسمه (العيد مكملا لمحمد) لم يظفر بأعياد تعمر حياته، بل عاشها كلّها في معاناة قاسية ماديا وروحيا: فبكّر بالتّعبير عن الضيق بها وهو ابن عشرين ربيعا.

هذا في الجانب الاجتماعي، وفيه قد تتقاطع الأسماء الحقيقية مع (الأسماء الثانوية) غير الرسمية للأشخاص أنفسهم، بالمستوى ذاته، في المخاطبة اليومية: دفعا لأذى (عين) و(سحر) أو فعل (شيطان) أو سوى ذلك، كما يتوهمون، ممّا لا أعرف كثيرا من مقاصده الأخرى، وخباياه العديدة.

وقد آثرت هنا أن أجنح إلى ما يشيع في بلدي اجتماعيا، فلن أعدل عن ذلك في الجوانب السياسية وغيرها، ضيقا بأشكال زيف ونفاق: فشعارنا الجميل البرّاق الذي صاغه لنا (المنظّرون) الانتهازيون اليساريون المرتزقة في فجر حريتنا –1962– عنوانه طويل تعصف فيه الريح «الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية» أفرغ من محتواه منذ البدء إفراغا، إن أريد له محتوى فعليا حقا.

تلفت النظر فيه كلمتان براقتان هنا (الديمقراطية) و(الشعبية) ولم تتنفّس (الجزائر) يوما تلك الديمقراطية، في ظلّ هيمنة شيوعية وديكتاتورية عسكرية في حذاء أول رئيس (1962–1965) تكرّست باستبداد عسكري مقيت بعد ذلك، فكانت صفة (الشعبية) غطاء كثيفا لممارسات (طغاة) (جبابرة) قد (تفرعنوا) في (السياسة) و(التكنات) وفي (الحياة الاقتصادية) و(الاجتماعية) وظهور معظمهم إلى جدار حزب (عتيد مهترئ) استشرى الوباء في خلاياه الميتة: فباتوا أكثر خطرا على الأمة والوطن من العدوّ المباشر، فأفرغوا (عنواننا الكبير) من محتواه الإنساني كما يوحي به لفظه الذي كثيرا ما سخر منه أعداؤنا الفرنسيون المحتلّون بالأمس.

أعداؤنا واقعيون دقيقون، أمّا نحن فقد أجهض واقعيتنا وإرادتنا مثل حلمنا: المرتزقة الانتهازيون الذين تسللّوا إلى كلّ المواقع، خلف الشعارات الكاذبة، ليضربونا في العمق.. أمس.. واليوم، فالديمقراطية المنفية بالأمس ممارسة الحاضرة شكلا، هي نفسها (المشوّهة) اليومية، بأقدام (اللوبيات) العشائرية التي تتسرّب (عقاربها) و(حياتها) إلى (السلطة) على أكتاف (العشائرية) وعبر القنوات (الجهوية) و(المصلحية) مع حرص يقظ من أجل (تغييب) الكفاءات الوطنية المخلصة الصريحة الواضحة التي لا تملك دعما عشائريا، بل تناهضه، وترفضه، كما ترفض التعامل معه، في محيط (تُغيِّب) فيه النزاهة، والجدية، والموضوعية، والإخلاص، ممّا جعل التحكّم في (المصائر) و(الرقاب) غالبا بأيدي (صعاليك) و(غلمان) و(عربيدات) منبوذات وطنيا وشعبيا: تحفر جميعها بصورتها هذه خندقا عميقا من سوء الثقة بين (المواطن) و(النظام).

بدأ ذلك أو بعضه تحت اسم (شعبية) كغطاء لعصابات، كوّنت (نخبا) ابتزازية نتنة، استأثرت بالمال والنفوذ والسلطة، من دون رادع، تضطهد (النخبة الفكرية) المتعلّمة، ذات الاتجاه القومي والإسلامي، وتضيّق عليها الخناق: سياسيا واقتصاديا واجتماعيا: فعملت على نفيها أو تهميشها التام، ولم يجد بعض من هذه النخبة متنفّسا إلا خارج الحدود، بدنيا أو فكريا، أو معا، وفي أرض عدوّنا نفسه (فرنسا) أحيانا الساخرة من شعارنا أمس واليوم (ديمقراطية) و(شعبية) بينما هو دقيق مختصر لديها «الجمهورية الفرنسية» حيث تتضمن كلمة (الجمهورية) الدلالة الكافية للديمقراطية، فيتّسع المجال الحيوي ذو الفضاءات العديدة لكلّ المواهب والإمكانات والكفاءات، رغم المناخ العنصري البغيض.

فالأسماء عندهم دقيقة، وعندنا على غير مسمياتها، في معظم أقطار الوطن العربي المعنّى، الخاضع للتّشويه والابتزاز.. تمارسه (عصابات) استغلالية في عباءات سياسية وايديولوجية.

فلتذهب إذن كل (الأسماء) و(الشعارات) الزائفة إلى الجحيم الأبدي لترتاح أمة من مكابدة الآلام. أعطوها: صدقا، نزاهة، إخلاصا، عدلا، طهارة عمل وفكر، ولا يهم الباقي، في اختلاف النظم واتفاقها: فكثيرا ما (ذمّت) الملكية، و(مدحت) الجمهورية اغترارا بالأسماء، بمنطق أعوج سطحي عام يعلن (استبدادية) هناك و(حرية) هنا.. من دون فرز، انخداعا.. بأسماء.. ضالة، وشعارات مضللة. بينما كثيرا ما كشف الواقع العكس من ذلك تماما.. ببروز (ملوكية) طاهرة عادلة، وشرور (جمهورية) ظالمة دعية كاذبة.

فلنعط إذن الأسماء الدقيقة للمسميات المعبرة عنها، لنسلم من الزيف والبهتان، وننجو من حبائل الإفك والضلال.

فهل أعود إلى الموضوع؟ في نقطة محددة معينة؟

ربّما!.. وربّما عن (الهزيمة) التي أسميناها (نصرا)!

الدوحة، 1998/06/23.

النصر والهزيمة !

تسمية الأشياء بغير أسمائها ذات وجوه لمّحت لبعضها في مقالة سابقة، وأذكر هنا ما توقّفت دونه حينئذ، وهو ذو وجهين، أحدهما دافعه الميل إلى (التفاؤل) الساذج تحاشيا للطيرة ودفعا للتّشاؤم، وثانيهما دافعه العزاء في (الخيبة) وباطنه (التّضليل) و(التمويه) لكنهما يجتمعان معا في تسمية الشيء بضدّه.

فمن نماذج النّوع الأول تسمية (الحنظل) تفاحا، و(الملح) ربحا، و(القطرن) عسلا، و(الغراب) طائر الخير. وهي تسميات رائجة في التّراث الشعبي، في عدة مناطق عربية فيما أحسب، منها (الجزائر) على سبيل اليقين، حيث تقول ربّة البيت (الريفية طبعا) لابنتها أو جارتها: اعطني (رِبحا) وهي تعني (ملحا) موضع طيرة، كما تقول لها: ناوليني بعضا من (رأس الحانوت) بدل (الفلفل الأسود).

أمّا النوع الثاني الذي يستكين إلى (العزاء) ويجنح إلى (التضليل) و(التمويه) فهو الذي آثرت التوقف عنده للتشوه الذي أصاب تفكيرنا: فانعكس أمره على مصطلحاتنا اللغوية السياسية منها خصوصا، حتى صرنا نهرب من (هزائمنا) بانتصارات وهمية قائمة أو لاحقة، فالجميع يذكر كيف حاولنا أن نخفّف من وطأة الإحساس بوقع (الهزيمة) الموجعة المدمرة التي ألحقتها بنا إسرائيل في (حرب 1967) وجيوشها تقتطع مساحات جديدة شاسعة من أراضي ثلاث (دول) عربية لتضيفها تحت احتلالها: فتذلّلنا إذلالا بشعا، فبدل أن نعلن (هزيمتنا) بشجاعة بحثا عن مصادر (دائنا) قلنا – جبنا وهربا من الحقيقة –: «انتكسنا» ولا نزال – حتى اليوم – لسخرية الأقدار

(منتكسين) نعيش تلك (الانتكاسة) بعد أكثر من ثلاثين سنة، وهي الفترة التي لم تحتج إليها كلّها (إسرائيل) بعد (إنشائها) كي (تعفّر) أنوف (جيوش) عربية (جرارة) في التراب، جيوش (براّقة) من ورق، بجنرالاتها المتبذّلين، وزعمائها المغرورين، كديكة في (زريبة) سائبة: فيسقط (العار) على أمة عربية كان دائما حكامها السبب المباشر في إذلالها، وانكساراتها، وتخلّفها، وتناحرها أيضا.

في هذا السياق عينه يندرج يوم (التاسع عشر) من شهر(مارس) الذي(أبدع) له بعضهم في (الجزائر)اسم (عيد النصر) لأنّه فيه وقعت «اتفاقيات ايفيان» بين (الجزائر) و(فرنسا) التي بمقتضاها أعلن (وقف القتال) بين المجاهدين في (الجزائر) وجيوش (فرنسا) الغازية، المعزّزة بقوات (الحلف الأطلسي) في انتظار الاستفتاء على الاستقلال بعد ذلك بنحو أربعة شهور.

وقّع (الاتفاقيات) ممثّلو (الحكومة الجزائرية المؤقتة) في المهجر، مع الممثلين الفرنسيين، وهي (اتفاقيات) مفخّخة، أحكم تفخيخها بذكاء تام الفرنسيون بمضمون سياسي خطير، إجيديولوجي مدروس، كمتفجرات في السيادة الوطنية الجزائرية، لأنّها تبقي (الجزائر) مرتبطة بفرنسا: سياسيا، واقتصاديا، وبشكل أخص ثقافيا ولغويا، وهو الأخطر ممّا عداه! الأمر الذي لم ير فيه ممثّلو (الحكومة المؤقتة) حرجا، لأنّه لا يتناقض مع (ايدولوجيتهم) الفرانكوفونية، في فضاء فرنسي، وإن تناقض مع اتّجاه أمة جزائرية عربية مسلمة: لهذا اعترضت على هذه الاتفاقيات قيادة الأركان(الوطنية)على رأس (جيش التحرير الوطني) المظفّر يومئذ، بزعامة (بومدين) من دون تمرّد على تلك (الحكومة المؤقتة) التي زكّت تفخيخ حلم الجزائريين، ومصادرة جهاد استمرّ أكثر من قرن وربع قرن: في سبيل سيادة كاملة غير منقوصة، وغير مشروطة، أي غير مفخخة، فجعل أولئك (المفاوضون) الشعب الجزائري يصدق عليه المثل الشعبي «كمن صام عاما وأفطر على جرادة».

جاهد الشعب الجزائري من أجل السيادة والحرية التامة، فجاء المفاوضون (الفرانكوفونيون) ليجعلوا السيادة منقوصة، بالإبقاء على هيمنة (فرنسية) بقواعد عسكرية في أرض المجاهدين والشهداء الذين ماتوا من أجل ألاّ يرى الجزائري المسلم وجها لفرنسي: فضمنت (فرنسا) بفضلهم في (يوم النصر) هذا (المنهزم) لنفسها الحق في البقاء عسكريا في أكبر قاعدة بإفريقيا كلها، قاعدة (المرسى الكبير) بكل ما تمثّله: براً، وبحرا، وجوا، وبموقعها وتجهيزاتها، بل إن (المادة الثانية) في الملحق الخاص بهذا المركز في الاتفاقية تنص بلغة استفزازية واضحة هكذا: «للطيران الحربي الفرنسي وحده حرية الطيران في المجال الجوي لقاعدة المرسى الكبير الذي تشرف فرنسا على حركة الطيران فيه». كما ورد في الفقرة الرابعة أنه «إذا اقتضى الأمر تقوم السلطات الجزائرية بإجلاء بعض أو جميع السكان بناء على طلب السلطات الفرنسية».

كما ضمنت (فرنسا) لها الأولوية، في ابتزاز الجزائريين تجاريا واقتصاديا، فجعلت الاتفاقية «الأفضلية للشركات الفرنسية» تأخذ موارد الجزائريين الأولية بأبخس الأثمان، وتعيدها إليهم مصنعة بأثمان باهضة، تحدّدها هي، كما تحتكر بترولهم، وأشياء كثيرة من قراراتهم.

والأدهى والأمر من كلّ ذلك أن تبقى (الجزائر) في تبعية ثقافية عموما، ولغوية خصوصا لفرنسا، هكذا، في وطن كان قد أعلن فيه الجزائريون الجهاد من أجل الهوية، دفاعا عن دينهم، واستردادا للغتهم العربية: لكن يأتي المفاوضون (الجزائريون) الفرانكوفونيون فيقدمون على مصادرة (الجوهر) في (استقلال) والإبقاء على (العرض) في جهاد أمة بدأت مصادرته هو نفسه في اتفاقيات أطلقنا أخيرا على يوم توقيعها (عيد النصر) بينما هو يوم (هزيمة) موجعة شعر بها يومئذ في (جيش التحرير الوطني) الوطنيون، ولم يشقوا عصا الطاعة احتراما لشرعية، وحرصا على وحدة الصف الوطني الذي زرع في أرجائه (المفاوضون الفرانكوفونيون) شحنات من المتفجرات بتلك

الاتفاقيات التي بدأ فعلها لاحقا، وقد وجدنا أنفسنا رهن الارتباط بفرنسا، صار أخطرها الجانب الثقافي اللغوي، لا في التعاون فحسب، بل في (الهيمنة) التامة التي تقرّها مواد الباب الخاص بإعلان (المبادئ الخاصة بالتعاون الثقافي) فأيّ تعاون في حضور التصدع التام في موازين الحضور والإمكانات، و(الاستراتيجيات) الأيديولوجية المحكمة؟

وهنا تمّ بيع (الجزائر) بوجه آخر على أيدي (مفاوضين فرانكوفونيين) في يوم أطلقنا عليه (عيد النصر) أو يومه!

وقد جاءت الفرصة للعقيد (هواري بومدين) بعد انقلاب (19 جوان 1965) ليطرد الفرنسيين عسكريا، ويناضل لاجتثاث أخطبوطهم اقتصاديا وتجاريا، ولم يكد يعوّل على الخطوة المصيرية الحاسمة في اجتثاثهم لغويا وثقافيا حتى سقط في حبائل (الفرانكوفونيين) فزينوا له التريث، وعبّدوا له الطريق لخيانة (الشهداء) الذين ماتوا تحت راية (الله أكبر) شعارهم الوجداني (الجزائر وطننا، العربية لغتنا، الإسلام ديننا) وكلّها عناصر (لغمّتز) في (اتفاقيات ايفيان) كي (يغتصب) الانتهازيون والعملاء تضحيات غالية لأمة عظيمة صامدة.

ففي الوقت الذي شرع فيه (ديغول) يلقي أسلحته المختلفة الواحد تلو الآخر، تقدم أولئك الذين (رضعوا) لغته، كي يبقوا على رمقه، كي يستردّ عافيته، فيقول مجاهرا: فلننتظر المستقبل. ولم يطل حضور هذا المستقبل زاحفا على (الجزائر) البيضاء المجاهدة لتغرق في ليلها الطويل.. وبعض المفاوضين بالأمس المنعمّين الآن يضحك ملء الأشداق.. في داخل (الجزائر) وبين منتزهات (أوروبا).. ساخرا من ببغاوات سقطت في فخّه، فاعتقدت أن يوم (الهزيمة) هو يوم (نصر) يرقى لتضحيات مليونين من الشهداء، بين (1830م) و(1962م)

الجزائر، 1998/08/31.

(القول) .. و(الفعل) ..
بين نزقّ (شيطان) .. وتواضع (عالم) !

حين كنت أقرأ لكاتب فرنسي شيئا عن ذكرياته، وهو يعلن أحاسيسه المختلفة لتثمين قيم (التواضع) لفت نظري قول عرضي له، عن خطيب من فرط تواضعه يخجله حديث الناس عنه، أما هو فلم يتحدث قط عن نفسه.

استقرت من الإشارة في ذهني تماما صورة (العالم) المتواضع، التقي، المؤمن حقّاً أن «فوق كلّ ذي علم عليم» و«يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر» وكل من يدّعي شيئا تغيب عنه أشياء!

فالعالم المتمكّن الواثق من نفسه في ميدانه ذاته، المتواضع حقّاً، لا يمكن أن يمدح نفسه، ولا يستطيع شيطان (الغرور) أن يوسوس له بالزعم أن لديه فصل الخطاب، في علم، أو في فنّ، في تخصّصه نفسه، بل حتّى في تخصّصه الدقيق ذاته، يستحيل عليه أن (يزعم) أو (يدعي).. أما من تمكّن من نفسه نزق (شيطاني) فهو جاهز لادّعاء ما ليس فيه.. ولا ليس له.. نزق (الشيطان) يوسوس لأصحابه بالآثام.

أما رأيتم في حياتكم (شيطانا) من هذا النوع.. يملأ فمه بكلمة (أنا.. أنا).. وأنتم أدرى بقائل (أنا..) فخمة قوية.. رفضا لأمر الله.. جلّ وعلا! فيزعم أنّه يتحدّى غيره في أن يعلم علمه، ويتفوّق عليه في (ميدانه)؟ ما هكذا ينطق (العلماء) بل هكذا ينطق (الشياطين) أما رأيتموه ينتفخ (كطاووس).. وما أدراك ما الطاووس شحما ولحما! فيدور في (الحلبة) معلنا غضبه من (منافس) يريد أن يكون له رأي في موضوع بات (الطاووس – الشيطان) يعتقد أنه حكر عليه. أما رأيتموه يوما يتابع حديث غيره فيرسم على (شفتيه)

ابتسامة ساخرة، مبطئة بالحقد والغيرة، والضغينة والغرور؟ لأنّه كبر عليه أن يتكلم غيره ويصمت، لا لأنّه حرم الإدلاء بالرأي.. بل لأن لغيره رأيا.

لم أر (شيطانا) في صورة (إنسان) إلا مكابرا مغرورا، ولم أر (عالما) فاضلا إلاّ وهو يذوب حياء وتواضعا، يكابر (الشيطان) لفراغ في عقله وروحه، ونزق في ذاته، طبع عليه، ويتواضع (العالم) لغنى في العقل والرّوح وسمت في النفس والأخلاق.

هل لنا حاجة في الإشارة إلى ملامح أحد (النماذج البشرية) السلبية التي تجمعت لدي منها حشود منذ ربع قرن خصوصا، في فضاءاتها المختلفة، بينما تتوارى النماذج الإيجابية: فلا تكاد تدركها الأنظار (لزعيق) تلك، ونزقها وصمت هذه وسمتها.

من مصادر (الضيق) من تلك (النماذج البشرية) السلبية أن خطرها كبير على القيم الإنسانية، في الحياة العامة، حين يفسح لها في (القول) ظلما، وفي (العمل) إفكا وبهتانا: فمن باب أحرى في اتّخاذ القرار، أيّ قرار، فهي هنا (الطامة الكبرى) في الحياة الإنسانية بكل امتداداتها، وقد بات هذا (الشيطان) الآدمي، في خلقة عجيبة، وهو (ينتشر) في (كرسي القرار) فيخيل إليه أنّه صاحب الصولجان، خاصة إذا توفّر على صوت مدوّ، لا يختلف – شكلا – عن صوت (عرّض به القرآن) و– مضمونا – عن (عقل عصفور) بتعبير (د.زكي نجيب محمود) فتنتهي به خيلاؤه إلى أن يحسب (ريحا) تخرجه (بلاغة) تشنّف الأسماع، و(بيانا) في الأداء والإبلاغ.

كل شيطان آدمي أوتي القدرة على الهذر وطلاقة اللسان متيّم باللغط، فهو بطبعه (قوّال) لا (فعّال) فكلّ من طال لسانه قصر عقله وضاق فؤاده.

المعضلة العامة هنا أن معظم الناس في الحياة العامة كلّها سطحيون مُضللون، ومع أهوائهم سائرون، وإلى كلّ لئيم منقادون، لمعسول أقواله

منجذبون، تخفي سيّئات الأفعال والنيات لديه، أما قالها ذلك الأديب (العربي – الفارسي) عن أمثاله، في أدبه (الصغير): «من علامات اللئيم المخادع أن يكون حسن القول، سيئ الفعل» (ص: 333)

هو (ابن المقفع) الذي خالط (الخلصاء) ولاحظ (الفجار) فصاغ من التجربة النصح للأخيار، والحكمة للأبرار، حتى بتّ شديد الاهتمام بهذا الرجل لما يكشفه من (سيئات) بشرية، وما يُثمّنه من (صفات) إنسانية، فإن حصر بعضا من صفات (اللؤماء) في مواضع، فقد انتشر الحديث عن اللؤم وأصحابه في مواضع عديدة من مختلف كتبه، مقدما شواهد وعلامات عن لؤم (اللئيم) بما فيها عدم علمه «بمواضع ما يعلم» كضرب من (الجهل) الأعمى، الناتج عن (النزق) والقصور العقلي، الذي يسرّ به (اللئيم) الجاهل، بدل أن يخجل، فيقول في كتابه السالف الذكر: «خصال يسرّ بها الجاهل، كلها كائن عليه وبالا، منها أن يفخر من العلم والمروءة بما ليس عنده، ومنها أن يرى بالأخيار من الاستهانة والجفوة ما يشتمه بهم» ص:337.

ومن المنطقي هنا أن كلّ ما يدعيه (اللئيم) يحذره (الأريب) الورع: «من ورع الرجل أن لا يقول ما لا يعلم، ومن الإرب أن يتثبّت فيما يعلم، و... عمل الرجل فيما يعلم أنّه خطأ هوى، والهوى آفة العفاف» فممّا يدلّ على (العالم) الأريب إذن أن يكون (فعّالا) غير (قوّال): حسن «معرفته بما يدرك من الأمور، وإمساكه عمّا لا يدرك، وتزيينه نفسه بالمكارم، وظهور علمه للناس من غير أن يظهر منه فخر ولا عجب.... وتسويته بين قلبه ولسانه» ص:331 لأنّ الهذر اللفظي كان دائما صدى للخواء الفكري والعقلي، وكلّما ارتفعت (الأقوال) درجات تراجعت الأفعال درجات، وهو الأمر الذي جعل أجدادنا يحسنون الثناء على تقديم (الأفعال) الخيرة على (الأقوال) الواعدة كما أكّد ذلك (ابن المقفع) نفسه في كتابه (الأدب الكبير): «ليعرف إخوانك والعامة انك إن استطعت إلى أن تفعل ما لا تقول أقرب منك إلى أن تقول ما لا تفعل فعلت، فانّ فضل القول على الفعل عار وهجنة، وفضل الفعل على القول زينة» ص:299.

فهل يتركنا (ابن المقفع) نصارع (الأدعياء) والجهلة الذين شوّهوا وجه الحياة، ونعاني وحدنا سوءهم، إنّه يوجهنا الوجهة الإنسانية النّابعة من حضارتنا الإسلامية نفسها: «احترس من سورة الغضب وسورة الحمية وسورة الحقد وسورة الجهل.... ذلّل نفسك بالصبر على جار السوء وعشير السوء وجليس السوء.... للأمور محتملا، وفي الضرّ متجملا.. وللحزم مؤثرا، وللهوى تاركا.... وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مواظبا» ص:302.

لكنّه في الوقت ذاته ينبّهنا إلى أنّه لا حاجة إطلاقا إلى «رضى من رضاه الجور، وإلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة، فعليك بالتماس رضى الأخيار... والعقل» ص:283.

ثم إن الحرص على أن نعرف كيف نفرق في المواقف الصعبة، والنظر في الحالات وأصحابها، فمن الخير العميم الإصغاء للرأي الصادق وإن كان مرا، لكن نتائجه محمودة مضمونة في الحياة الإنسانية «عوّد نفسك الصبر على من خالفك من ذوي النصيحة والتجرّع لمرارة قولهم وعدلهم، ولا تستسهلنّ سبيل ذلك إلاّ لأهل العقل والسن والمروءة» ص:282.

فإن كان من دأب (الأشرار) على اختلاف أشكالهم وألوانهم: أنهم «يجمعون مع جهلهم العجب والاستغناء» ص:345. كما يقول (ابن المقفع) نفسه في (رسالة الصحابة) قوّالين دجّالين، فإنّ أهل الفضل البررة الأخيار يجمعون مع علمهم التواضع والصبر، فعّالين، صامتين، فإن كانت «حياة الشيطان ترك العلم وروحه وجسده الجهل» ص:332 والخيلاء، فإن حياة الإنسان العالم السوي نبذ الجهل وروحه التواضع والتقوى..فلننظر في المساحة.. بين (خير) يسطع نوره، و(شر) ينتشر عفنه، في حياة الإنسانية جمعاء، المطالبة دائما بنبذ الأساليب الشيطانية وهجر القيم الرخيصة، وتثمين القيم الإنسانية الرفيعة، في مجتمع طاهر مصفّى من شوائب الكبرياء الشيطاني، والتزلّف والنفاق البشري، مفعم بقيم الخير والبذل والنبل والفضيلة.

الدوحة، 1998/12/07.

عن العمليـة .. التعليـميـة !

كاتب هذه السطور، بكلّ تواضع سعد بالعمل في مختلف مراحل التعليم (الأساسي والجامعي) وما باشر جيله العمل في مرحلة بعد الحصول على المؤهّل العلمي إلا باجتياز دورات تكوينية تدريبية، يصل بعضها في (الجزائر) إلى سنة كاملة، تتوج بتطبيق ميداني أمام لجان تربوية وإدارية متخصّصة، تعطي الإشارة بمنح (شهادة الكفاءة التربوية المهنية) ذات المستويات، حسب المنصب التعليمي التربوي، ولا يزال العمل بذلك قائما رغم تدهور الأسلوب في التقييم، خصوصا فيما قبل الثانوي، ورغم أشكال التشوّه التي شرعت تتسرّب للمؤسسات التعليمية بفعل سوء في الإدارة واضطراب في التخطيط، وأخطاء قاتلة في وضع إداريين في مواقع ليسوا لها، وليست لهم، لا لعلة في المناهج التعليمية التربوية القوية، والتشريع المدرسي التربوي الدقيق جدا، المحدّد للحقوق والواجبات نفسها لكلّ الأطراف.

لكن التطور السريع والتشوّه (المتنامي) وسوء الإدارة المصابة بالعرج الطارئ: ممّا سمح بتسرّب بعض الآفات للمؤسسات التعليمية، لا في تعيين الإداريين الغرباء عن الميدان فحسب، بل حتى في تعيين رجال التعليم ونسائه، فشرع الأداء التعليمي يتراجع تبعا للسوء الإداري وبعض (المحسوبية) التي وجدت أخيرا في الظروف الاستثنائية بالجزائر بعض الغطاء لها يتدثر به (المرتزقة) و(الانتهازيون) خصوصا تحت معاطف ذوي (القبعات) المميزة الذين يعرف الجزائريون سوءهم جيدا، في مختلف المراحل من حياة (الجزائر) الضحية.

وهكذا بعد انقطاع ما.. عن الاحتكاك بالتعليم الأساسي في (الجزائر) وجدتني أمام ظواهر عجيبة تعكس المستوى الزاحف نحو التدنّي في الأداء

التربوي لدى المعلّم، مما لاحظت نتائجه تنعكس على أطفالي أنفسهم، ولا ألبث حتى أدرك أنّ البلاء خارج (الجزائر) أعظم، فهو بلاء عربي، في (المنظومة التربوية العربية) كلّها من دون استثناء، وهو موضوع أكتفي بالإشارة إليه ملتفتا إلى (ناقوس خطر) رنّ في سمعي وضميري.. ووجداني، بفعل أسلوب (معلمة) حكمت الأقدار على ولدي أن يكون تلميذها في المرحلة الابتدائية، وهو يعاني شيئا من ظاهرة تعبيرية في كلامه، كنا نلاحظها ونعالجها بهدوء في البيت: فبدل أن تتصرّف (المعلمة) وهي تصغي لإجاباته كمربية مزوّدة بأدوات علم نفس تربوي أساسية، قالت له: «لماذا لا تعالج عند الطبيب»؟ وليتصورّ أيّ (مرب) أي (معلّم مكوّن) وقع هذه الكلمة على طفل صغير تشعره معلّمته بنقص ما فيه!؟ وقد حمل (الطفل) إلى البيت الملاحظة التي أذهلني صدورها لفظيا عن (مربية) كان عليها أن تتصرف بحكمة (كمعلمة – مربية) في المعالجة، وفي الاتّصال بالأهل، إن كانوا على وعي بالظاهرة اللافتة للنظر، ومادامت لم تتوفر على التأهيل السليم تربويا (بيداغوجيا) ولا على الضمير المهني، فقد اكتفت بما ألقت به للطفل، مهماً عكس جهلها الفظيع، ومستواها المتدنّي جداً.

حين اتصلنا بها صحبة مديرها، للتنبيه والعتاب الودي العلمي، لم تكلّف نفسها جهد الفهم للتصرف. في حالات مماثلة، وقنعت بالعلم بالموضوع مع الاعتذار الودي على ما بدر منها: ولم نسع لشيء من اعتذار قط، بقدر ما كان الهدف أن نتبادل الرأي النافع لخدمة أبنائنا، في أمتنا كلها حيث تواجدنا، في الوطن العربي جميعه.

وعندما انتقل الطفل إلى المرحلة (الإعدادية) وقد فارقته تلك الظاهرة والحمد لله، وجد نفسه مرة أخرى أمام معلمة، أستاذة (!) هي طبق الأصل لسلفها، فلم تكن تستجيب لمبادرة الطفل حين يرفع يده للإجابة عن الأسئلة، فتتجاهله تماما. وحين يعجز الآخرون، أمام الأسئلة الصعبة خصوصا تلجأ

إليه: فأحسّ أنه (عجلة نجدة) للاحتياط، فانطوى على نفسه، وشرع يعزف عن المشاركة، ليغرق في ظاهرة (اللاّمبالاة) مع جميع المعلمين، الأمر الذي لفت أنظار البعض منهم، كما عكست ذلك درجاته في أول امتحان للفصل، لندرك قبل فوات الأوان – والحمد لله – أصل الداء في معلمة كانت جديرة بكل المواقع الممكنة إلاّ في (مؤسسة تربوية) تعليمية، هذه المرة احتجنا لمختص في (العلاج النفسي) ليزيل آثار جريمة على يد معلمة لم تحظ بأيّ تكوين تربوي قبل أن نضع بين يديها فلذات أكبادنا.

حين ذكرت هذه الصورة لزميلين من (مصر) و(العراق) قالا لي معا: مادامت هذه (المعلمة) لم تشجّ رأس الطفل، فهو محظوظ، فلدينا في البلدين (معلمات) تصلحن لرعي (البهائم) وحدها، لا رعاية (الصغار) ومع ذلك أبناؤنا بين أيديهن، فلا مناص، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

لم تلبث الصورة حتى اشتعلت أمامي حارقة موجعة في (الدوحة) وأنا أصغي لزميل من (الجزائر) ألحق ابنته بمدرسة (خاصة) تابعة لبلد عربي، لتجد نفسها في محيط جديد تماما، كان يفرض – تربويا – على (المعلمة) حيطة استثنائية، وجهدا خاصا في فهم تلميذاتها الصغيرات الغريبات عن بعضهن بعضا، وعن المدرسة نفسها فضلا عن المعلمات، لكن بدا أنّها (معلمة) من اللواتي خلقن لرعي (البقر) كيفما اتفق، لا لرعاية (الصغار) من (فلذات الأكباد) فحين أخلّت (الصغيرة) بانضباط ما – ربما – أو عدم إجابة: لم توجّهها (معلمتها) بل (عزّرتها) ضربا على اليد بالمسطرة الخشبية الموجعة فأدمتها.. وأدمعتها.. بل أبكتها كثيرا، فدخلت الصغيرة في معاناة نفسية، فجرّت الحنين الضاغط إلى (الجزائر) فنغّصت على أبويها حياتهما اليومية، وهي تتساءل صباح مساء ملحّة عليهما: (متى العودة إلى الجزائر)؟ أعيدوني إلى (الجزائر) أريد حينا، مدرستنا في حينا، فيها (فلانة) و(فلانة).

وكان على أبويها بذل الجهد، ومن حسن الحظ أن والدها خبير ميدان لمتابعة الحالة لابنته يوميا: لإزالة الآثار التدميرية التي أصابت وجدان

الصغيرة، وكادت تطيح نهائيا بمعنوياتها، فتبغّضها في كلّ ما له صلة بالمدرسة، بالكلمة، بالكتاب.ثم ألامس الصورة عن كثب من زاوية أخرى في ذهن تلميذ استقر في وعيه أنّه مطالب في (التعليم الأساسي) كله أن يكون آلة صماء، فيحفظ (ببغائيا) ليرد محفوظة غير المفهوم، كي ينصرف إلى حال سبيله، وقد باح لي طالب وصل إلى (الجامعة) حين عاتبته موجها على مستواه المتدني في (الفهم) فقال لي: (كان المطلوب مني في الثانوية الحفظ وحده) بل ذكر ما هو أبشع معترفا بأنه (استأجر واحدا) – هناك – في ظرفٍ ما للإجابة.. بدله في (امتحان) ما، لم يكن على نضج يسمح له بالتمييز بين خيره، وشرّ في عمله هذا، مادام الهدف النجاح ليس غير، فينبغي الظفر بذلك بأيّ ثمن! فالويح للضمائر الميتة!!

من هنا تبدأ في (الجامعة) معاناة الأستاذ و(متاعبه)، في محاسبة الطالب بصرامة تامة عن (جرم) ارتكبه غيره في حقه، معلنا بالقول الصريح: أنّه ضحية، لم يتعلّم غالبا في مدرسته إلا الحفظ.. الحفظ وحده.. مشوّها أحيانا.

حتى قواعد اللغة العربية هذه كأدوات أولية باتت حفظا، فنحن هنا لسنا متخلفين عن عصرنا فحسب، بل متخلفون عن عصر (ابن خلدون) و(نظرياته) التربوية منذ أكثر من سبعة قرون.. وهو يوجهنا لبناء عقول (تفكر) لا ألسنة تردد.

انتهينا إلى جعل طلابنا آلات تسجيلية مشوّهة، وهو ما أحسبه تقصيراً ضارا في بعض مناهجنا، وقصورا خطيرا فينا نحن أنفسنا، كرجال تربية علينا ألاّ نسهو على أبنائنا، وألاّ نخدعهم أو نغشهم، علينا بالحزم التربوي تجاههم، أن نجابههم بحقائقهم لخيرهم، وخير أمتنا العربية، المطالبة بشكل خاص بالاهتمام الجدي الحازم بلغتها، لغة علم ودين، لا يفهم ذلك استيعابا ولا هذا على وجهه إلاّ بها دقيقة قويمة صحيحة، تقف إلى جانب غيرها قوية معبرة بجدارة واقتدار.

الدوحة، 1999/01/11.

أول (الانكسارات) .. في نذر (الانهيارات) !

ردّ العتب أفضله في كلمات قصيرات أيّها الأخ.. القارئ العزيز، لتجد لي بعض العذر في ترك جراحات ما.. تنزف أمام ناظريك: فلم تعد لي حيلة في تجنبها وهي تأبى أن تندمل، لتعود منتكسة بما ينكأها في واقع تطحن فيه آمالنا طحنا، وتصادر أحلامنا الجميلة عنوة، في العتمة الموغلة في التيه، عبر دروب الانكسارات المتعرجة، في ليل.. الانهيارات المتتالية: انهيار يتلوه انهيار، ثم يتبعه انهيار، يردم كلّ توق عنيد لمستقبل سعيد: فيبيد ذلك كلّ حلم جميل بقيم الجهد والجد والخير والبذل، والتعاون والتآزر، على الصالحات، في زمن خلا أو كاد من المصلحين، والصالحين لحساب الطامعين والمنافقين.

هل هناك من يجرؤ على (المزايدة)؟ لكنّ المؤكّد أيضا أن ليس هناك من ينكر مصادر الانكسارات الموجعة، في مسلسل الانهيارات على امتداد السنوات الحافلة أيضا بالصمود والمعاناة، بين يُسر قليل وعُسر كثير، يُسرُ حياة رخية من نعم الله (البترولية) وعسر صمود ومواجهة لما كان يدبّر للوطن، وما يدفع إليه من مهاوٍ دفعا، بشتّى صيغ المكر والخداع: إنجازا لوعيد الأعداء حين رحلّهم بقوة السلاح بعد الإيمان المجاهدون الميامين في (1962م) متوعدّين بالاستفزاز الصريح: سنلتقي بعد ثلاثين سنة: فأنجزوا وعيدهم بدقة تامة متناهية: فانتبهنا بعد ثلاثين سنة أن مصير الوطن سقط بين أيپيڑدْ غير أمينة تماما، ولا مبرأة من الأهواء، وقد أحكم رجال الاستعمار – وراء واجهات ثورية – قبضتم عليه: فانتهى إسلامنا نفسه الذي حررّنا بروحه وطاقته الجزائر إلى أن يكون (إسلاما فرنسيا) أيضا!؟ واعجباه!

أتعجب أيها الصديق من هذا (المصطلح)؟ من حقك العجب، وأنت لا تدري ما وراء الأكمة، كما أنك لا تدري أن زعيما (كارتونيا) أباح لأبناء عملاء

(فرنسا) الانضمام رسميا إلى تيار وطني شريف: فأباح لهم حرية القرار في النهاية، ثم (القيادة) و(الإمارة) يا سيدي، وما أدراك ما إمارة جاهل، في زمن الجاهلية الجديدة!

أليست هي الفرصة الذّهبية لينتقم (الأبناء) للآباء العملاء الذين سقطوا برصاص المجاهدين الأحرار الأشاوس في ثورة العروبة والإسلام الجزائرية (1954–1962م) ومن نجا منهم هرب مع (فرنسا) متعزيا بوعيد (الجنرال ديغول) ذي المضمون الصريح: «سنلتقي بعد ثلاثين سنة»! وقد أنجز خلفه وعيده، لأنّه من أمة متحضرّة، تخطط بدقة، وتعمل على مهل بروية تامة، في مشروع تدميري انتقامي ينجز على مراحل بحذر، فيكمل الخلف مهمة السلف: فأنجز الأعداء وعيدهم: وبكّرت نُذُر (الإنجاز) بتحوّل فوهات بنادقنا إلى صدورنا: فبتنا نزايد.. ونتاجر بالجهاد والوطنية، وفهمنا ديننا بالمقلوب، وقد صار ديننا شعارات وحولّنا قيمه إلى (ترّهات) في أيدي رعاة انتهوا إلى سفك دماء الأبرياء وتجنّب المجرمين العتاة، وهم يسرحون ويمرحون، ومتى واجه المجرم مجرما؟ أليسوا في الحب والهوى سواء؟.. جميعهم.. أعهدّوا للانتقام من (الجزائر) المسلمة العربية الأبية الصامدة التي أعلنت جهادها بالروح الوطنية الخالصة، وبالإسلام الطاهر روحا لاشعارات انتهازية، الشعارات والبهتان بضاعة الذين أعدّوا للإجهاز على (الجزائر) ليعيشوا على أشلاء الآخرين المعنوية والمادية: في زمن بات كل شيء فيه صالحا للمزايدة: حتى الوطن والشرف!

هي القوى الإبليسية ذات الأجنحة المختلفة من داخل السلطة (المتطرفة) ومن (المعارضة) المريضة بأهوائها ونزقها وطيشها ورعونتها: فيبيح بعضها لنفسه التفويض لإملاء (مشاريع مجتمع) هو بريئ منه، ويفتي بعضها بالتكفير، وإصدار«صكوك الغفران» وهو لا يحسن (ترقيعا) في وضوء ولا في صلاة، فسهوا عن دينهم، وربهم، وهم في غيّهم سادرون «إنك

لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء» وإنّما «الأعمال بالنيات» الواعية، وما كانت (النيات) سوى أغراض مدخولة، وأهواء ظالمة أهلكت الحرث والنّسل، هي الخاتمة الأولى، وليست النهائية لرحلة العذاب الوطني، والانكسارات المختلفة الوطنية في نذر الانهيارات المتتالية، غير مفصولة عنها تلك الانكسارات الشخصية، وما أكثرها! وما أشدّ وجعها!

أول الانكسارات – ربما – أيّها الصديق العزيز تلك التي أصابت القلب وهو طري، خليّ من (هند) و(ليلى) عامر بحب (الجزائر) نجمة في سمائه، عظيمة في أحلامه، قوية في طموحه وأشواقه، عزيزة أبية شامخة كما لاحت له في كلّ شيء، في علمها الخفّاق بلونيه: (الأبيض) و(الأخضر) رمز طهر ورخاء، يحتضن نجمة وهلالا أحمرين تذكارا لأنهار الدماء الزكية التي كانت ثمن التضحية والتحرير.

احتضنت أيّها العزيز هذا (العلم) لأوّل مرة من على غصن شجرة في قمة جبل، حين استجبت مع غيري لأمر (جيش التحرير الوطني) الذي خاض معركة الجهاد بشرف (1954–1962م) فهجرنا الدراسة إلى حين، ولمّا يبلغ معظمنا الثامنة عشرة من العمر، ليفيد بما لديه من زاد معرفي على ضآلته. هناك في أحضان الجبل زغرد القلب وهو يحتضن العلم لأول مرة، فلم أبال وأنا أقضي ليلتي الأولى قرب (المخبإ) تحت الأرض، وحولي الثعابين زاحفة، فقال لي جندي (مجاهد): فلندعها، فهي لا تؤذي، الأذى من الثعبان الأكبر هناك، أي الاستعمار وأعوانه، وأشار إلى الفضاء تحت الجبل حيث الدروب التي تقبل منها جيوش الاحتلال الفرنسي، وفي سماواتها طائرات (الميراج) الصفراء.

ولم يطل الأمر، و(العلم الجزائري) يرتفع خفاقا في المدن، في (الثالث) الذي صار (الخامس) من (يوليو 1962م) لنعود إلى مقاعد الدراسة الهمّ الأكبر، ولم يفكّر معظمنا – فيما أحسب – في (بطاقة جهاد) أو (نضال) ممّا كان شاغل الانتهازيين والمرتزقة، هي البطاقة التي سرعان ما باتت مطلبا

يتكالب عليه ذوو المآرب والمطامع، فانقضّ عليها حتّى (العملاء) أعداء الثورة و(الجزائر) فابتاعوها فرادى وجماعات، آلافا، بل مئات الآلاف، والضمائر مخدرة، أو منحهم إيّاها ذوو الضمائر الميتة من أشباه (المجاهدين) المزيفين، باسم التعاطف (الجهوي) والميول (القبلية) في منطقة بالشمال خصوصا وهو التعاطف الذي جعل الأولوية للقرابة القبلية قبل الانتماء الوطني، هذه لم نحسّ بوجعها المؤلم إلا بعد عشرية مما نسميه (استقلالا) خدعنا فيه – يا صديقي – ببعض من الزعماء (الكارتونيين) كما خدعتنا فيه (الشعارات) التهريجية: فخدّرتنا.

دعني إذن – يا صديقي – أتوقّف قليلا عند أول (الانكسارات) لشاب يعود إلى مقعد الدراسة، وهو يحرز على أول شهادة ابتدائية، تنظم في عهد (الاستقلال) في (ديسمبر 1962م) بإمكاناته الخاصة، في الزّمن الصّعب، حين كانت الإرادة متمنة، خلقا وشرفا.

كان الوقت مساء من آخر أيام (حزيران 1962م) عندما انتهت الدورة الدراسية، وأفئدتنا تزغرد بالفرح ونحن نعدّ للحفل الذي سيحضره (الرئيس) بعد صلاة العشاء: فلم يتأخّر كثيرا، بعد طعام (العشاء) حضر يا سيدي العزيز في عزّ شوقنا وتوقنا، لكن (كيف)؟ من هذا السؤال عن الحال امتدّت النصال المسمومة في أحشائنا، فلم نعد ندري: أنحن في واقع أم نحن واهمون؟

الحقيقة أننا كنا نعيش (أوهامنا العسلية) و(رومانسيتنا الوطنية) في الزمن المتجهّم المداهم بكل الأوبئة، حين وصل (صاحبنا) ومعه وزير التربية و(مسؤولون) أخذ له موقعا متميزا في انتظار (عرض مسرحي) للمدرسة، وحوله على (الكراسي) من اليمين ومن الشمال: انتشرت (باقة) من (الحسناوات الفرنسيات).. يا وجعنا!؟ وعلى عدة أمتار (قبع) على الهامش وزيرنا المسكين، (وزير التربية) بعد (الحسناوات) فبنات (باريس).. بقين دائما أولى من الوزير بالرئيس! بنات (فرنسا) العدو الذي قتل أهلنا وذوينا،

ودمّر وطننا وأباد أرضنا: هنّ حول رئيسنا الزعيم (الأعزب)! في أبهى زينتهن، ووزيرنا الماسك بشؤون (التعليم) على الهامش، حتى بدا لنا أنّه في وضع (المنبوذ) فخيل لنا أننا وإياه «كالأيتام في مأدبة اللئام»!

هنا (الانكسار الأول) الذي أصاب قلبا طريا يا صديقي، فقضيت هناك آخر الليالي في (بوزريعة) معذبا، ممزّق المشاعر، فأتحايل على أحاسيسي لأوهمها بالإبقاء على الهالة الأسطورية لأولئك الذين اتكأوا على المشاعر الثورية النبيلة لشعبنا الجزائري الطاهر السريرة، الكريم المحتد.

لكن الأيام عبر مرور السنين أكدت لي أنّ ذلك (الانكسار الأول) لم يكن وهما، بل كان الحقيقة الأولى الموجعة المبكرة، كانت البداية.. بداية في مسلسل من نذر شرعت تترى، تعلن ما هو أسوأ.. وهذا موضوع آخر، ليس هذا وقته، ولا صحيفة (الراية) اليومية ميدانه: فأجدني لذلك أجنح لوضع القلم وأبتلع الألم.

وسلمت حيث كنت أيّها الصديق العزيز، وسلم وطنك، والعاقبة بالسلامة للجزائر: وطن الأحرار، والمتقين الأخيار: فسلام عليك أيتها الجزائر العزيزة حين تمسين مكفهرة لكن صامدة، وسلام عليك حين تصبحين باشة ناضرة، باسمة منتصرة.

الدوحة، 1999/02/20.

(الطاغيــة) .. المحظوظ جدا !

أعترف للقارئ الكريم بتجنّبي – غالبا – الحديث في كل موضوع يغدو مائدة (فقيرة) أو (دسمة) نتحلّق حولها جميعا، كلّ واحد يمدّ يده فيها بطريقته: فمن هذا المنطلق لم يستهوني الحديث عن (طاغية الشيلي) قبل اليوم، حتى لفت نظري فيه أمر بدا لي ذا شأن؛ هذا الأمر جعلني أدرك أنه (طاغية) محظوظ جدا، حين رأيت في بلده من يتعاطف معه؛ فيتظاهر أنصاره احتجاجا على حجزه في (لندن) استجابة للقضاء الإسباني المطالب بتسليمه للمحاكمة على جرائم إنسانية لحقت (الإسبان) منه، ثم حين رأيت ثانيا اليوم من ينقل عنه: أنّه لا يعترف إلاّ بالقضاء (الشيلي) وهو الذي (غيّب) القضاء في (الدهاليز) ببلده، كما ردم في (أعماق الأرض) وألقى في (أعالي البحار) الألوف من الأبرياء.

طاغية (الشيلي) الجنرال (بينوشيه) ذو القبعة التي تغطي رأسا عفنة عشّش فيها الحقد، وتموقع الإجرام والجبروت والفساد: اقترن اسمه وصورته ذاتها.. بأبشع الصور كواحد من أبرز (طواغيت) القرن العشرين الذين أفرزتهم المؤسسات العسكرية: فصادروا الحريات الإنسانية، وأشاعوا الرعب في البشر، حتى غدا هذا الرعب مع (بينوشه) نفسه كوابيس مقيمة على الصدور بالليل والنهار معا، وقد بات الأبرياء يساقون بأمره إلى حتوفهم في (مقاصل) أو في أعماق البحار أو في مجاهل الغابات، أو في غياهب سجون جهنمية يلذ معها للمضطهدين الموت العاجل هنالك بدلا عن معاناة سياط (الجلادين) وتنكيلهم تنفيذا لخطة (الطاغية) في سياسته الجهنمية بين مواطنيه المسالمين، الذين أراد (الطاغية) حجب (أوكسجين) الحياة دونهم، مع بعض التقّطير منه لعصاباته العسكرية والسياسية التي تخدم نهجه، وتحمي حكمه، كما تحمي طغيانه من (الاندثار).

حاكم (الشيلي) السابق (بينوشيه) محظوظ جدا، بشكل لا أكتُم القارئ أنّه أدهشني، فما كنت أحسب قط أنّه يوجد على وجه الأرض من يقف إلى جانب (طاغ).. متجبر صادر أرواح الناس بعدما اغتصب أرزاقهم وحقوقهم في المواطنة، كما أذلّ شعبه، وهو يحولّه (قطعانا) لا تصغي إلاّ لصوته (المتعجرف) المزمجر المسيئ للكرامة البشرية.

منتهى الغرابة في هذا الحظ، لوحش: ما دار بخلدي يوما أنّ على وجه الأرض من (البشر) من يكنّ له ذرة من (عاطفة) إنسانية، وتعاطف (وطني) حتّى شاهدت هذه المظاهرة في بلده تخرج إلى الشارع مطالبة (بريطانيا) بالإفراج عنه، والإفساح له، في العودة إلى وكر (جرائمه).

أيجوز أن يحدث هذا؟ بأيّ منطق تمّ ذلك؟ أي كيف ضمن (الطاغية) شيئا من عاطفة إنسانية في نفوس بشرية بعد ما حسبنا أنّه لا يحظى حتى بتعاطف من تجمعه وإياه اللعنة.. الشيطان ذاته، فهو منافسه في إفساد أمر الناس وتشويه حياتهم.

مع ذلك حدث ما تصورته مستحيلا، حدث التعاطف معه، حتّى في بلد (ديمقراطي) فأقدمت تلك (العجوز الشمطاء) نفسها في (بريطانيا) المسماة (مارغريت تاتشر) على التّعاطف مع رجل، معلنة حصانة ديبلوماسية له تفرض إخلاء سبيله: فقد جمعها وإياه أكثر من هوى (طغياني) بل أهواء، وهي التي استلذّت إبان حكمها (رئيس وزراء) في بلدها صفة «المرأة الحديدية» في سياستها وتسلّطها.

أمّا (بؤرة الشيطان العالمي) في (واشنطن) فقد تبادل النظرات (الثلاثي – الإبليسي) فيها: الصعلوك الكذاب المغامر رأس الثعلب (بيل كلينتون) ووزيرة خارجيته اليهودية الصميمة الشمطاء (أولبرايت) ووزير حربه الصهيوني الثعبان (كوهين) ليقرروا مرونة في الموقف الخاص بالطاغية، خوفا من محيط يمتلئ حرية وديمقراطية سمحت باكتشاف رأس الثعلب.. وذيله، في

مستنقع بائعة الهوى (مونيكا). ولولا تقاليد البلد الديمقراطية لوضع هذا (الثلاثي) التاج على رأس (الطاغية).. وخاض حربا لإطلاق سراحه، وما أهون قرار الحرب على الثلاثي (الإبليسي) الذي لا تعنيه المئات والآلاف من النفوس البشرية تزهق! أما فعلها؟ والطائرات والصواريخ تدكّ الحصون والقلاع في (العراق الشامخ) ببنيه، رغم المهانة التي ألحقها به بعض من ذويه والأقربين، فضلا عن (العملاء) و(الخونة) الملطخين بصفات (الخزي) وقد نما (لحميهم) و(شحمهم) من مال (العمالة) للغرب عموما و(أمريكا) خصوصا. فغدا [illegible] (الغرب) دما دفاقا في شرايينهم التي سكنها (الهوس) بحب ([illegible]) للشيطان، ولذة (الاستعباد) والاستكانة للغرب، أملا في وضع (تيجان) [illegible] رؤوسهم تتيح لهم التربّع على كاهل الشعب العراقي الصبور، كما فعل ([illegible] سوء) لهم، ليكونوا صورة أخرى للطاغية (بينوشه) يتناسخون.. وينتشرون كالأوبئة الفتاكة.

روح (العبودية) هذه في بعض النفوس هي التي جعلت للطاغية (بينوشه) أنصاراً في بلده، يتظاهرون للإفراج عنه: بعدما زرع في (شعبه) حب (العبودية) وليس (الاحترام) غرس فيه القابلية للاستعباد لا روح الأنفة والإباء، فالعبد تبعا لهذا لا تلذّله حياة بعيدا عن سياط الجلاد، مهما كان شكل العبودية ولو بالتبعية والوراثة في الاستفادة من ظل (الطاغية).

حين كان (بينوشيه) يحكم بلده بالحديد والنار كانت هناك من دون شك أدوات في يده تنفذ، وتوابع لهذه الأدوات مستفيدة، خانعة ذليلة، فتوارثت هذه الأدوات وتوابعها حب (العبودية) مع الوفاء التام لذي النعم الذي تكرّم عليهم بأن جعلهم (عبيدا) بدل أن يبعثهم إلى الدار الآخرة: فمن الوفاء أن يتظاهر (العبيد) المباشرون أو بالوراثة احتجاجا على تقييد حرية (الطاغية) الذي تخلو (الحياة) من قيمتها في غياب (قبضته) و(هراوته) مشرعة سافرة أو ظلا قائما.

(بينوشيه) طاغية محظوظ جدا، حقا، وفعلا، أحبّه (العبيد) بجنون وتظاهروا لصالحه، ولم (يغامروا) مع (عشاق الحرية) في (الشيلي) نفسها، من أبناء جلدتهم الذين أعلنوها في العالمين مدوية متظاهرين، أن خذوا (بينوشيه) فغلوه، وبسياط (العدالة) اجلدوه، وفي سجون (مدريد) دكّوه، ثم اشنقوه أو الجحيم اصلوه، ولا تعيدوه، وهو صوت كلّ المقهورين في (العالم) الذين عانوا.. الحيف، والقهر، والاستبداد العسكري.

مع ذلك يبقى (الطاغية) محظوظا، وهو الذي لم يلق من (العذاب) و(التعذيب) ما كان جديرا به وبأمثاله، لكنّ الأهمّ في الأمر هنا أن يصير (الطاغية) عبرة لسائر (الطواغيت) الآخرين الذين لا يزالون يسدون علينا منافذ الحياة، لكنهم ينتظرون من حيث لا يشعرون الدور في المجهول القادم لا محالة في يوم ما.

مصير (بينوشيه) – مهما اختلفت النتائج – هو مصير كلّ واحد منهم – إن شاء الله – بعد (الهزائم) النكراء، وصور (الإذلال) و(المهانة) التي ألحقوها بشعوبهم. مصائرهم لاحت من خلال (الجنرال بينوشيه) العربيد، وقد بات في (العراء) ككلب أجرب مقرور.. تاه في الأرض.. ضالا، ليحصد بئس ما بذر من آثام وشرور، وجرائم حرمت الناس الإحساس بالحرية والعدل والأخوة والحبّ، والأمن والأمان، في أرواحهم وأرزاقهم.

وعلى العتاة الظالمين تدور الدوائر دائما، فالله إن أمهل أحيانا، فهو لا يهمل أبدا، وضروب القصاص لديه أشكال، والجزاء ألوان، وهو وحده العزيز الجبّار يقرّر طبيعتها، وزمانها، ودرجتها نفسها.

الدوحة، 1999/03/22.

و.. هل (يتناطح) العلماء..
و.. (يتناحرون) ؟!

(العلماء)! ما أعظمها كلمة تنطق! فتلقي في القلوب مهابة وجلالا و.. إجلالا للموصوف، لمعارفه العلمية، ولصور النزاهة والموضوعية، وحسن الإدراك لديه، فضلا عن التّسامح، وسعة الصدر ونضج العقل والوجدان، وقد انتفت من ساحته.. الأنانية وصور الكيد والتآمر والغدر والنفاق والكذب، واطمأنّ الجميع إليه حكما بحججه، وسكنت نفوسهم إلى الإنصاف عنده، وعلوّ الحقّ الذي لا يعلى عليه لديه: فللكلمة إذن هيبتها واحترامها، فتنبغي إذن صيانتها من عبث العابثين ولهو المتشدقين.. حين تطلق صفة.. لهذا الموصوف أو ذلك.

(العلماء) صفة قد يغني (الأهم) منها، وربّما (المهمّ) من علم ينسب.. وعالم يوصف.. مع ذلك تبقى مصدر (حرج) و(إحراج) لمن يحترمون (دلالة الألفاظ) وظلال (الكلمات) وهو ما أحسّه هذا الصديق.. فأربك خطواته المضطربة وهو ينهض إلى (المنصة) استجابة للنداء، وقد شملته صفة (العلماء) في مناسبة تكريمية. ما المعايير في هذه (الصفة)؟

لم يكد يتراجع دويّ هذا السؤال في أعماقه حتى اكتسحه خجل جديد وأحد الأعضاء في (لجنة التحكيم) الجامعية – الذي التقاه لأول مرة – يقول له بعد كلمته على (المنصة): «لم نخطئ إذن حين قرّرنا لك الجائزة والتكريم» إشادة بموقفه الصريح الواضح على (المنصة) في إدانة (الرداءة) الفكرية والسياسية في (وطنه) من دون مجاملة ولا (دبلوماسية).

سعادة صاحبنا نغصتها عليه الصفة التي قد تعوزها الدقة، كما نغّصها عليه أن يتقدم في (الترتيب) على من كان يعتبره أستاذا له، بما قرأهُ من أعماله

قبل أن يزامله، وبقدر خجله من (أستاذه) هذا، كانت سعادة (الأستاذ) بترتيب صاحبه من دون حرج.. ولا ضيق، في حضور معايير علمية واضحة للجنة، فتعمقت مودّتهما واستحكمت.. ورسخت.. ولعلها ستستمر بإذن الله.. للمعطيات الواضحة.

ذكّرني بهذا الموقف البسيط العميق الدلالة مع ذلك: شيء من (مظاهر) مناقضة، مظاهر (وبائية) عديدة، حتى في (الجامعات) قلاع العلم والنزاهة والموضوعية، وسواها، فبتّ تبعا لذلك أستريب في (خلفيات) جوائز كثيرة في الوطن العربي، وفي مؤسسات (علمية) و(أدبية فكرية) وقد مضت الأيام تؤكّد الريبة لا في دواليب (عالم الفكر) وفي (دهاليز) هذه الجوائز السنوية الصاخبة: ماليا وإعلاميا التي كثيرا ما خدعتنا ببعض مظاهرها (البراقة) إلى درجة أنني سمحت لنفسي ذات يوم بأن أقترح على زميل تقديم ترشيحه لإحدى جوائزها المغرية: ماليا ومعنويا، لجدوى ذلك بالنسبة للحركة الأدبية في الوطن العربي، فنظر إلي (الزميل) متسائلا – في صمت – وعيناه تقولان: أأنت جاد؟

ثم نطق بهدوء وقد عركته الحياة عركا، وعركها معاناة، قائلا: هذه يا أخي «جوائز شللية» جوائز «عصابات لوبية» حيث تتبادل (لجان التحكيم) فيها و(وفود المترشحين) إليها المنافع والمغانم، من منطلق (التحيّز) المنفعي و(الجهوي) عربيا: فرأيت في ذلك صورة قبلية جاهلية متخلفة.

فقلت له، عبورا إلى نقطة أخرى، فاتحا بابا آخر على (عجل): ما رأيك في تأليف – ذكرته له – يسدّ نقصا، وقد يحرّك (هِمما)، فردّ بسرعة: لا عليك، هذا موضوع (تناحر) ميداني، و(تناطح) مصلحي، فيه (الغانم) و(الخاسر) حسب (الكفاءة) في (الوصولية) و(الانتهازية)..

وأكمل واقع الحال أنّ (الغانم).. بقي (يحلب) في القرب وفي البعد دائما.

(التناطح) و(التناحر) أين؟ أيجوز أن يكون بين (علماء)؟ بين (العلماء) التعاون والتكامل والتكاتف، بينهما (التنافس) الشريف على (الخير) بحب

ومودة، من أجل الإضافة والإثراء للحياة العلمية والأدبية والفكرية، بالجهد الصامت المتواضع، (التنافس) الشريف الأخوي الطاهر صفة (العلماء) الأخيار، و(التناطح) صفة (الثيران) و(التيوس) في (البراري) و(المروج).بالتنافس الشريف يتقدم (العلم) و(الفكر) ويصير الرجال (علماء) عاملين، يتألقون بجدهم، وجديتهم، وموضوعيتهم، وصمتهم وإخلاصهم، لمعانهم يأتي من ذواتهم، من جهودهم، هم في غنى عن تلميع (اصطناعي) إعلامي، يعشقه ضعفاء النفس، وفقراء الفكر والعقل والوجدان.

في (المحيط المشوّه) لعوامل ما.. تروج قيم (الصعلكة) و(الشللية) وأساليب (التلميع) الاصطناعي، وفي (المحيط الصحي) النقي الطاهر يشعّ اللمعان العفوي من العاملين المخلصين، كحال رجال سلف أخيار أطهار، كانوا يلمعون لمعانا حقيقيا ولا يزالون.. لا تلميعا اصطناعيا، يلمعون بالجهد والإضافة وليس بالصخب والاستعراضات الكرنفالية، والبهلوانية.. وسواها.. بربطات العنق المزركشة، و(المناديل) الجيبية، والصور الإعلامية الباهرة.. المبهرة.. في حمّى (مظهرية).. تنافس صور (التنزيلات) الظرفية والموسمية، وأخبار الراقصات و(المغنيات) و(اللاهيات) المشعوذات!

صدق صاحبي بتعبيره (جوائز شللية) وبات (الظن) لدي (يقينا) تاما حين دفعني الفضول إلى مراجعة جادة لقوائم (فائزين) خلال سنوات مضت في (جوائز عربية)!؟ ذات دوي إعلامي صاخب!

هذا الأسلوب (الجائزي) في (الوطن العربي) يسهم إلى حدّ بعيد في تشويه المناخ الفكري، وتلويث محيط.. يجعل (العلماء) الجادين يلوذون بالانسحاب.. من واقع لا يطيقونه.. فيبتعدون عن ساحات (يتناطح) فيها (الضعفاء).. المغامرون.. ويتناحرون، و(العلماء).. لا يفعلون، فهل (يتناطح) العلماء – الجديرون بالتسمية – و(يتناحرون)؟!

(التناطح) و(التناحر) (للثيران) و(التيوس).. لضعفاء الفكر، فقراء الإيمان والوجدان، أمّا العلماء.. فهم (يتنافسون) بحب.. للخير العام، يتعاونون.. من دون أحقاد، ولا ضغائن.. شعارهم في (الحياة) الدائم «وقل اعملوا، **فسيرى الله عملكم....**» كما ستدركه الأجيال اللاحقة، لامعا مُشرقا مشعّاً صادقا، لا ملمّعا.. مغشوشا، خادعا، مضللا.

الدوحة، 1999/03/29.

أ (تصفية) و(استئصال)؟
أم (تطهير عرقي)؟

لعلّها المرة الأولى التي سمعت فيها هذا التعبير «التطهير العرقي» في تلك المؤامرة الاستئصالية إبّان المواجهة بين إخواننا في (البوسنة) وأعدائهم: فكان التعبير يخصّ أبناء (البوسنة) و(الهرسك) فيصف وضعهم بأنّهم يتعرّضون (للتطهير العرقي).

كنت أقرأ ذلك على مضض، فيحزّ التعبير غير الدقيق في النفس، وأسمعه بضيق ومقت في القنوات التلفازية: لكن التعبير يعود اليوم صاخبا لا يبرح اعتراض أنظارنا في الصحف وأسماعنا في الإذاعات العربية والقنوات التلفازية، يصف إخواننا في (كوسوفو) بأنهم يتعرّضون، أو تتعرض منطقتهم «لتطهير العرقي» منهم، على أيدي قوى الحقد الصربية، فيعود إلى النفس (الضيق) بهذا التعبير، والمقت له، يوصف به أطهار شرفاء في (كوسوفو) وقد مضت تنكّل بهم قوى البطش والجبروت الاحتلالي الصربي.

فهل طغاة (بلغراد) وخنازير (صربيا) وثعالبها (أعراق طاهرة) وإخواننا المسلمون في (كوسوفو) (عرق نجس) ينبغي أن يطهّر منه العرق الصربي الأنيق؟

متى كانت القمامات الصربية ثوبا عرقيا ناصعا وحياة إخواننا الكوسوفيين فيها.. (نجاسة) تنبغي إزالتها؟

الإعلام الأوروبي إعلام عنصري مبطن دائما بالخبث والمكر، هكذا يفكّر، وهكذا يعمل لصياغة فكر الناس وسلوكهم، وهكذا استقرّ في وجدانه المريض بعنصريته: فيقدم المسلم وسخا: أي أنّ المسلم نجس والأوروبي نظيف طاهر،

من هنا يأتي التعبير في السياق طبيعيا بالنسبة إليهم، لكن كيف نستسيغه نحن العرب خصوصا، لو كنا نتوفرّ على الحدّ الأدنى من الحس اللغوي؟

كيف لا يخجل بعضنا وهو يلوك تعبير (التطهير العرقي) في إذاعة وتلفاز أو يتزحلق به قلمه على صحيفة؟ كيف لا يفكرّ في ذلك قليلا من يكتب في صحيفة ومن (يتلو) ومن يكتب له في إذاعة أو تلفاز، فيملأ فمه بذلك من دون أدنى إحساس؟ أليس من حق أنظارنا وأسماعنا أن تتأذى من هذا التعبير يوصف به إخواننا الذين يتعرّضون للاستئصال العرقي في المنطقة؟ للاجتثاث؟ أي للتصفية النهائية ليبقى الفضاء لخنازير (بلغراد) وثعالبها، وكلابها النّجسة، ووراءها دببة (موسكو) تستأسد وهي في الوحل غارقة، تستجدي بذلّة وخنوع رغيفا يابسا ملطخا بالمهانة من (البيت الأبيض) و(الشانزيليزيه).

أيّهما أدق – يا رجال القلم واللسان – في التعبير عن الحال الموجعة والمآل المظلم في عالم شلّت فيه الإرادات.. إرادة المسلمين بالذات؟ حيث حضر الصليب وغاب الهلال: فإن وصل متأخرا فعلى استحياء.. وبالهامش؟ أيهما أدقّ؟ أ (تصفية) و(استئصال) أم (تطهير عرقي)؟

الصواب: أنّه حين يطرد (الكوسوفيون الأطهار) أنذال صربيا من إقليمهم يكون الأمر تطهيرا فعلا، أما والأوباش يهجرون الأطهار ويبيدونهم فهو (استئصال) حقيقي، وتصفية المنطقة من أبنائها لتخلو للطامعين والطامحين والحاقدين.لم يعد الحاقدون الصرب وحدهم، بل حلفاؤهم في الحقد والكراهية، ألم يتباهوا بالفيل المعوق: (روسيا) أنّه معهم؟ ما قالوها إلاّ بعد وعد جدّي بالعون من (قيصر روسيا) المعاصر ذي الأرواح السبع! أما لوّح بترسانته النووية ضائعا بين الجد والهزل، كحال مخمور، ثم حرّك بواخره.. للضغط والابتزاز ليس غير!

ياله من (قيصر) معاصر طال أجله! ولم يتوان في إلحاق المهانة والإذلال بشعبه، فلم يكتف بدباباته تدك مباني (برلمانه) المتمرد ذات يوم كما لم

يكتف بتحايله الشخصي على (شعبه) والكذب عليه، وهو يمدّ يده إلى (واشنطن) يستجدي خبزا، فلم يخجل وهو يلتهمه بشراهة من هو في مجاعة، وفي الوقت ذاته يدير لسانه في فمه بتهديد (أميريكا) معلنا: نحن إلى جانبك يا (بلغراد) ويا أيّها الأطلسيون كفوا عن قصفها وإلا!.. فيضحك الأطلسي بملء فيه سعيدا، فابشر إذن «بطولة سلامة يا أطلسي».

قيصر (روسيا) المعاصر (يلستين) لا يخجل من أن يشحت طعاما من (واشنطن) باليمين، ويهددها بيسراه المشلولة، هو سبة عار في جبين بلده الذي كان قويا بوحدته رغم المصاعب: فبات (ردما) بعد تفككّه!

إنّه بئس الخلف لبئس السلف، سلفه (غورباتشوف) الذي كان أولى به أن ينتحر.. بعدما حولّ (الاتحاد السوفياتي) بكل ثقله وصولجانه في لمح البصر: أنقاض (زرائب) تعجّ بالحيوانات الهزيلة الكسيحة، فأمسى أطلال جسد وروح وحياه.

هذا (الغورباتشوف) نفسه لم يتأخر في وعده المعاضد للصرب الظالمين وبوعيده للأطلسي: فقال للأميريكيين والأطلسيين كصبي دون سن الرشد طبعا: إنكم تخطئون وأنتم تخططون للغارات الجوية على (يوغوسلافيا) العصية إذا اعتقدتم «أنّ بإمكانكم الاعتداء على دول تتمتع بالسيادة، وفي الوقت ذاته الإفلات من العقاب» مضيفا بعد هذا (الوعيد): إن العالم «سيواجه حربا باردة جديدة خطرها كبير».

يبدو أنّه كان في (حلم يقظة) فخيل إليه أنّه لا يزال رابضا على صدر ثاني قوة في العالم التي باتت أنقاظا، تعجّ بالغربان.. والزواحف.. والخفافيش!

لم أورد هذا ولا ذلك إلاّ للتنبيه إلى الأحقاد الرابضة في أفئدة أعداء المسلمين حيث كانوا، وما أكثر الدببة والفيلة والضباع الحاقدة على المسلمين!

ما موقف (الدب الأبيض) ذو الأرواح السبع وكذلك سلفه الأشبه في حاله بمروان (الحمار) إلا لرفع معنويات الصرب ليزدادوا ضراوة في (استئصال) أبناء (كوسوفو) الذين تحولّوا على الأقلام العربية! إلى (نجاسة) ينبغي أن يطهّر منها الثوب الصربي، ثم إلى (غنيمة) في يد (إسرائيل) ذاتها وهي تهجّر إلى (فلسطين) أكثر من مئة (كوسوفي) وعلى رأس كلّ واحد من هؤلاء المهجرين (قبعة) عليها نجمة (داوود)!

والمسلمون يتنابزون، وفي أحسن الحالات يتشاورون لحفظ ماء الوجه، لكن في (جنيف) لا في (الرياض) ولا في (طهران) ثم يتفقون على أنهم حقيقة لا يتفقون.

ويبقى إعلامنا يمارس الأذى على أنظارنا وأسماعنا، بلغة (التطهير) لا بلغة (الاستئصال) و(التدمير) والنفير! ويحنا من أنفسنا، من بعضنا! أفلا يحق الهناء إذن لأعدائنا؟ فلنقلها لهم: اعترافا بحقهم في العزة والقوة، فلنقلها لهم مدوية: (مرحى)! نحن التبعية والهزيمة، وأنتم الظفر والنصر! لكم: الفعل والقول والقوة، وعلينا التبلد والنظر والسمع والطاعة.. هو قدرنا.. من فعلنا بأنانيتنا.. وما فعلوه بنا.. إجنّما صنعناه بأيدينا!

الدوحة، 1999/04/20.

قوانيـن بيـن (يـد) و(رجـل)

لن يعنيني (منتصر) ولا (منهزم)! لا (منسحب) انتخابيا، بالجزائر في كواليس السياسة ودهاليزها، حتى يثبت ما ينم بوضوح عن صدق في النية، وإخلاص في العمل قبل القول.

لن أتحدث عن (منتصر) لعوامل، ولا عن (منهزم) لأخرى، ولا عن (منسحب) خوفا ممّا لاحت به النذر، أو احتجاجا على ما وشت به معطيات وقرائن، وماذا عساي أقول في ذلك وأنا - والحمد لله - لست طرفا في صراع، ولكنني فرد من شعب هو الضحية أولا وأخيرا، ضحية بين (مخالب) المتصارعين و(أنيابهم) منذ أطلق دستور (1989م) العنان للجمال الهائجة، والثيران المعربدة، وحتى الكلاب المسعورة التي طال قيدها النفسي والفكري في السلاسل والأغلال.

لن أتحدث عن شيء من ذلك مكتفيا منه بالغصة أعانيها والألم المقيم أخادنه، في أمور بات بعضها من تحصيل حاصل. ماذا يضيف لنا هذا أو ذلك أو غيره وقد قضى سنوات الوطن العجاف في بحبوحة بمغناه (الفيلا) أو قصره المنيف في (الجزائر) تارة، وخارجها في النظير تارة أخرى، ولا أخصّ أحدا من دون سواه، بل أعني كلّ أولئك الذين حولّوا السياسة إلى (ميدان) يمارسون فيه لعبة يغيرونها حسب المواسم والفصول وطقسها: فلم يخطئوا إذن.. بل أصابوا تماما حين عبروا عن تنافسهم في (الميدان) بمصطلح.. «اللعبة السياسية»!

هي(لعبة)لا بمعنى التسلية والترفيه فحسب، بل بمعنى (العبث) و(اللهو) فتتغير المواقف وتتبدّل الأفكار كالفصول، وحتى (الجلود) قد تتغير -

سبحان الله – فالفأر قد يبدو أسدا تارة، وقردا تارة أخرى، وثعلبا طورا، وربّما حيوانا غريبا مسعورا من دون شكل ثابت ولا لون متميز!

عفوا، نسيت أنني قلت ينبغي أن أبقى بعيدا عن السياسة التي فقدت معناها في زمن تلوّث فيه كلّ شيء، لا لأنني أبغضها فحسب في وجهها الكريه ولا أحسن التعامل معها، بل لأنني لا أريد أن أتفوه بما قد يفهم منه أنّه يخدم طرفا على حساب آخر، وإنما لأبدي امتعاضي من ظاهرة باتت (قارة) أسهمت في ضعف (مصداقية الدولة) وتلاشي هيبتها؛ فهيأت للاستهتار بقوانينها نفسها، وحولّت الوطن في النهاية إلى شبه (زريبة) خربة، تعرّضت لانتهاكات جمة، فتاه (القطيع) بين (الذئاب) الناهشة والكلاب (المسعورة) والخطر المتربّص في كلّ منعطف، وقد غاب الراعي، في سماء نعقت فيها (الغربان).

الظاهرة التي نويت الحديث فيها حين أخذت القلم، وأبحت له تسطير العنوان أعلاه، وتركته يندفع من دون كوابح: هي ظاهرة قوانيننا الوطنية في (الجزائر) التي يبدو أحيانا أننا نسنّها صباحا لنركلها مساء، وليس الفاعل واحدا مثلي لا حول له، ولا ملاذ غير هذا القلم حين يجد له فضاء من حرية بل ممّن كان صاحب القرار، وهي الحقيقة القائمة التي لم يعد يعجب لأمرها أحد، في الممارسات الحزبية بالوطن، وفي التصرفات الفردية بين (المسؤولين) أنفسهم في الجهاز التنفيذي، حيث نرى المسؤول يحرّر القوانين أو يوقعها بيده صباحا ويركلها برجله مساء، كحال (رئيس حكومة) أصدر قوانين تخدمه وهو في السلطة، وحين خرج من هذه ركل تلك، لأنّها لم تعد في صالحه خارج السلطة!

ألا نعذر في الصراخ: أن ارفعوا أيديكم عن الوطن الجريح! كفّوا عن الابتزاز؟ أما شبعتم (لعبا) يا سفلة؟ أما شبعتم (عبثا) يا مجرمين؟ كفى استهتارا!

من حقّي العجب، ومن حقّي وواجبي معا الصراخ وهو السلاح المتاح! من حقي أن أسأل (رئيس الحكومة) الأمي المغرور يوقع بيده قانونا باسم الدولة

صباحا وهو على كرسيه، ويركله برجله مساء وهو يغادرها، فعلها سابق، وأكملها لاحق، و(جراء الكلبة) في النظام متشابهة.

ومن (اللاحقين) ممن وقّعوا قانون تنظيم (المظاهرات) و(المسيرات) الخاضعة لضوابط، وحين أمسى خارج قصر الحكومة، ودخل في سوء تفاهم مع (السلّطة) أعلن النفير في (الغوغاء) احتجاجا، أن هلمّوا إلى (التظاهر) و(المسير) معلنا التعبئة في (قطعانه) احتجاجا على حق سياسي له رأى أنه اغتصب منه، فينبغي استرداده لا بالحوار، بل بالعنف اللفظي، والتظاهر الاستفزازي، المتجاوز للقوانين.

من السهل أن توقد نارا في (الهشيم) الجاهز للاشتعال، لكن من المستحيل إخمادها: ومن الصعب التحكم في ألسنة اللهب وامتدادها نحو الأخضر واليابس معا! ألم نجرّبها منذ ثماني سنوات؟

من السهل أن تخطب وتتشنّج وتدعو حتى (للعصيان) لكن من المستحيل بعد ذلك أن تتحكّم في الطوفان الهادر، وضبط مساره، أليس هو أسلوب الرعاع؟

عدم احترام القوانين، حتى قوانين الآخرين من قلّة النضج الفكري، وانعدام الحسّ المدني. القوانين ضوابط أملتها حاجة المجتمع، والدفاع عنها وحمايتها واجب مهما كان تعارض مصالح الأفراد معها، دوس القوانين أسلوب (غوغائي) احترامها موقف حضاري، أما رأيت أبسط القوانين في مدن العالم لا تزال لها حرمتها منذ أكثر من قرن؟ أما رأيت هذه الصيغة على جدران شوارع أوروبية تقول حتى اليوم «قانون 1884 يمنع استعمال الجدران للإشهار»!

لكن الرعاع – عندنا – لا يكتفون بالجدران تملأها الإعلانات الانتخابية، بل يمتد ذلك إلى هيكل سيارتك، وقد يدسون ذلك في جيبك بعد صندوق بريدك في زمن (اللهو) و(العبث).

ما يضير صاحبنا وهو غير معني بالهشيم ونتائجه؟ فهو آمن في بدنه وماله ومع أهله تحت حماية النظام نفسه الذي يمزق قوانينه جهارا نهارا، ماذا يعنيه من وطني يحترق؟ فيهشّ على غوغائييه، الدهماء الناعقة بما لا تعرف: فتهرف.

ماذا يعنيه وحياته آمنة، ومستقبل أطفاله مضمون، وحتى إقاماته في الخارج جاهزة إذا اقترب الحريق من بابه أو نافذته!

لا يعنيه شعب طيب عظيم وهب ثقته لغير مستحقّيها، فشرعوا يعيثون فسادا فيها منذ 1962، وحين أدرك هذا الشعب واقعه.. غرق في التيه والإحباط والحيرة والظنون التي استحالت خصومات وأحقادا، فمتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود يا رباه؟! أين – في هذا المحيط المتلاطم الأمواج – الربان غير الملوث بالأحقاد والمآرب والمطامع؟

لقد صمدنا وصبرنا على الأذى يصيب وطننا، وأبداننا وأرواحنا، فمتى الفرج؟ أليس وعدك حقا؟ «إن مع العسر يسرا»؟.. بلى! هنا ملاذنا الوحيد والأخير، وسلام على (الجزائر) النازفة، لكنّها الصامدة الأبية الشامخة، وعلى (غربان البين) معرضة، وللمرتزقة والخونة ساحقة، وبعنادها وتوقها واقفة، وعلى ليل الظالمين منتصرة!

الدوحة، 1999/04/26.

.. ومتى عرف (الدكتور) .. ما يقول ؟

لم يقدّم (الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي) يوما برهانا على وعي بما يقول في القضية (البربرية) أو (الأمازيغية) وألحّ على كلمة (يقول) لأنّ الأستاذ المذكور لم يقم يوما بعمل يذكر به في تاريخ شعبه، وهو يعبر محيطات مرتفعة الأمواج، منذ وصل إلى (وزارة التربية الوطنية) بعد انقلاب (19جوان/ يونيو 1965م) ثم (وزارة الإعلام) وبعد ذلك (وزارة الخارجية) مرورا بموقع مستشار الرئيس (بومدين) أولا، و(الشاذلي) ثانيا، وفي النهاية.

لماذا أذكر الأستاذ الدكتور(أحمد طالب الإبراهيمي)بهذه المناسبة وأنا الذي كنت أكنّ له وداً أدبيا، بصفته مثقفا أولا، وثانيا لأنّه ابن لأحد أعلام الفكر العربي المغربي الجزائري(محمد البشير الإبراهيمي1889–1965)؟

ربّما لهذه النقطة بالذات لم أقمع الرغبة الملحة في كتابة هذه الكلمة عنه، كنّا نتمنّى أن يكون (خلفا) بفتح اللاّم (فقط) لنعم السلف، وأن يكون (قوله) في مستوى رجل (الرأي) الذي هو نبراس الأمة، فلا يخذلها في المحن، وهي تدلج في ظلام إيديولوجي دامس.

لكن (الدكتور) فعلها بالأمس، ثم أعادها، وهو (يزكّي) التيار الاستعماري في الدعوة إلى اعتبار (الأمازيغية) لغة وطنية رسمية إلى جانب اللغة العربية، في شعب لا يبحث عن انتماء لعملاء فيه، بل يصرّ هذا الشعب (الجزائري العظيم) على وحدته في إطار انتماء عام شامل تقرّر بقوة الله والتاريخ والطبيعة، وإرادة الأغلبية: هذه الأغلبية التي لسوء حظها أنّها سقطت في قبضة (الأقلية الفرانكوفونية الجهوية) التي منها (أحمد طالب) منذ الاستقلال، فاستأثرت هذه الأقلية بكل شيء: سلطة ومالا، منذ الاستقلال، كما فعل النظام العنصري المقبور، في (جنوب افريقيا) قبل تحريرها.

فللشعب الجزائري إذن أن يحمد الله في صبحه ومسائه على (وقوع) السيد (طالب) دون كرسي الرئاسة، في (الجمهورية الجزائرية) لأنّه كان مهيأ لمصادرة شيء من إنجازات الشعب الروحية، فضلا على قابلية لدى الأستاذ (أحمد) للسقوط في أيدي العملاء بكلّ أجنحتهم: (الفرانكوفونية – البربرية – الشيوعية) لأن موقعه في (السلطة) منذ (1965م) قال ذلك، ولست متحاملا بل آسفا لرجل ما تمنّيت يوما أن تفقده (الجزائر) رجلا (فاعلا) فعلا إيجابيا. ومتى ترك (طالب) شيئا من (فعڒل) يعلن مروره في الموقع كأثر لتحريك السواكن المتطحلبة.

وصل الدكتور (أحمد طالب الإبراهيمي) إلى (وزارة التربية الوطنية في 1965م)، فتوقف تعريب التعليم بالمدرسة الابتدائية على أيامه في السنة الرابعة، وشرع (الفرانكوفونيون) يستأسدون. ووصل إلى (وزارة الإعلام) (فاستغول) فيها (الشيوعيون البرابرة الفرانكوفونيون) فعاثوا فسادا في أجهزة الإعلام الوطنية: استوطنوا، توغلّوا، حاصروا العناصر الوطنية ذات العمق الشعبي بروحها العربية الإسلامية، واستشرى التشويه في هياكل الوزارة نفسها، وامتدّ ذلك إلى (مواثيق الثورة) نفسها التي تصدرها الوزارة بفعل الأيدي العابثة.

ازدادت (وزارة الإعلام) تعفنا، كنا نراه طبيعيا، ونستسيغه في عهود آخرين غيره، من أميين وأشباه عسكريين جهلة: ينقضّون على المناصب الوزارية كالكواسر، لكننا لم نستسغه منه كمثقّف من بيت علم «عربي إسلامي».

لم يكتف (الدكتور أحمد) بذلك بل قمع على أيامه هنا الرأي الوطني، كما عبرت عن ذلك الأحداث وهو وزير للإعلام: حين وصل زميله (مصطفى الأشرف) أحد غلاة الفرانكوفونية إلى (وزارة التربية الوطنية) فعاضد (أحمد) زميله (الأشرف) حين اندفع هذا للقضاء على إنجازات المنظومة التربوية، وشن حملة شعواء على العرب والعربية في (الصحافة الفرنسية)

داخل (الجزائر) وفي (باريس) بلغة جارحة للغاية، في مقالات انطلق ينشرها كموتور في (LE MONDE) التي تصدر في (باريس) وجريدة (EL-Moudjahid) في (الجزائر) فتحرّك التيار الوطني متململا المقموع إعلاميا ولم يسمح له بردّ الفعل إلاّ في حدود ضيقة جدا، لجأ فيها إلى المراوغة، لكشف عملاء الثقافة الفرنسية، بل صدرت (التعليمات) للصحافة العربية التي كانت جميعها تابعة للقطاع الحكومي بعدم نشر ما يكتب في الردّ على (الأشرف) وتركه (يتقيّأ) على أمّة شريفة أبية، من خمس وعشرين مليون نسمة يومئذ. في هذه الفترة كان (الدكتور أحمد) يتغنّى في افتتاحيات مجلة (الثقافة) لوزارته: بالثورة الثقافية التي لوّح بها رئيسه (بومدين) فعبّر بذلك عن فقر فكري مدقع، فالرئيس (هواري بومدين) رفع شعار (الثورة الثقافية) تقليدا أعمى للثورة الثقافية في (الصين) التي أعلنها قبلئذ بقليل (ماوتسي تونغ) ناضجة، من موقع إيديولوجي واضح للتّغيير الجذري الذي كان المسلمون الصينيون هناك أكبر ضحاياه وأولهم، بينما انحصر فكر (الإبراهيمي) في فهم (الثورة الثقافية) أنّها إتاحة فرص التعليم للجميع، ممّا هو من تحصيل حاصل، في سياسة الدولة الطبيعية، الخاصة بالحقّ في التعليم للجميع، ومجانيته في كلّ المستويات، للرقي بالإنسان ماديا وروحيا.

ربّما كان موقع (الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي) الطبيعي أصلا هو (المستشفى) كطبيب، مع ذلك فإنني أعتقد أنّه لو عيّن يومئذ وزيرا للصحة لاقترح شعار (الثورة الصحية) لحماية المواطن من (الزكام) ونزلات البرد الوافدة، وضربات الشمس، وقد كان (بومدين) مدمن شعارات مدوية، أهمها «الثورة الصناعية» و«الثورة الزراعية» التي جنت على الفلاحة الوطنية الجزائرية جناية فاقت نتائجها آثار الأوبئة الزراعية في العالم: لأنّ تلك عاملها طبيعي، وهذه عاملها بشري تدميري عاصف.

من هنا وصل (الدكتور طالب) مستشارا لرئيس الجمهورية، مزكيا خطواته، وعلى النهج نفسه مضى بعد (بومدين) مع (الشاذلي) يصغي إليه

متأثرا (بخطبه) تأثرا يفوق درجات قصوى تأثّر مؤمن بآيات الذكر الحكيم يتلوها مرتّل قديرا! ومتى عرف (الأستاذ أحمد) لمن يصغي، بل متى عرف (الدكتور أحمد) ما يقول؟.. ولأول مرّة – ربمّا – تمنيت أن أكون على خطإ فيما أذهب إليه هنا، لأنّه يؤلمني أن أرى الرجل هكذا.

في فترة هذا الرئيس (الشاذلي) انتعشت انتعاشا تاما المؤامرة الفرنسية برعاية (جيسكار ديستان) في (باريس) لتحريك مظاهرات العملاء (1980م) في (تيزي وزّو) للردّ على إجراءات التعريب، في مصالح (الحالة المدنية) بوزارة الداخلية، المؤذنة بزوال تحكّم (الأقلية الجهوية والفرانكوفونية) في رقاب (الأغلبية) فاقترح السيد (طالب) يومئذ الاعتراف بالبربرية (الأمازيغية) لتجنب «عوامل الحقد» أيّة (أمازيغية) من (الأمازيغيات) يا رجل إن كنت تعرف ما تقول؟

وإذن يا (أحمد).. هنالك (حقد).. على (العربية) وهي تقتحم معاقل احتكرتها (الفرنسية) معاقل ذات صلة بحياة المواطن اليومية، من العار أن تبقى صورة للمسخ والتّشويه، (حقد) على العربية من دعاة (الفرنسة) و(التنصير) يحتمون بزنجية خادم هي.. (الأمازيغية) التي يباركها السيد (طالب)! من باب وقف (وجع الرأس).. لكن المسكنات الكيميائية إن أفادت في المصحات – حيث مجال عملك الأصلي – فهي غير ذات جدوى في حياة الشعوب.

في تلك المظاهرات شاهدت بأم عيني (أستاذة فرنسية) جنسية ووطنا، تعمل في (الجزائر) وتدرّس مادة (اللغة الفرنسية) في ثانوية (عميروش) بمدينة (تيزي وزّو): رأيتها تدفع طلبتها وطالباتها من داخل (الثانوية) إلى الباب المفضي إلى الشارع، محرّضة لهم، قائلة: «اصرخوا، اصرخوا: تحيا البربرية، حطّموا، دمّروا».

وكشف الشرفاء وحدهم في (القبائل) جوانب من خلفيات المؤامرة، ممّا غاب عن السيد (أحمد) أمس، ويغيب عنه اليوم أيضا، وغدا كذلك فقد فهمناه.

وما أسهل يا (دكتور أحمد) أن نتكلم، وما أصعب أن نفكّر!

وأعيد القول: ماذا تركت من أثر في (التربية) و(الإعلام) و(الرئاسة) وفي (وزارة الخارجية) نفسها، وجهنا الآخر أمام العالم الذي لم نعد نرسل إليه أو نستقبله في ديارنا إلاّ بما يكرّس فكرة (الجزائر الفرنسية) من دون الحديث عن أشياء أخرى يندى لها الجبين، في تشويه صورة (الجزائر) العظيمة، في الخارج.

غفر الله لي وللأستاذ الدكتور (أحمد طالب الإبراهيمي) مع أحرّ التّهاني للشعب الجزائري الأبي العظيم ذي القلب الطيب الطاهر الذي يعاني المحنة والألم، ويعاني في حياته ومعاشه، وقد لدغ من أكثر من جحر.. في غابة الجحور المظلمة.. أمّا أمثال (الأشرف) و(رضا مالك) وكذلك الدكتور (أحمد) فهم منعّمون مطمئنون.. هانئون في (المغاني) الأنيقة، بين (حيدرة) و(الأبيار) في (الجزائر) العاصمة، ونظيراتها في (فرنسا) و(كندا) و(سويسرا) وكذا (بلجيكا) و(بريطانيا) و(ألمانيا) أيضا!

لكن الله لن يخذل أمة الإيمان: بالله ربّا، وبالعربية لسانا، والإسلام دينا، والجزائر وطنا.

الدوحة، 1999/05/10.

حنين (العبيد) .. لسادتهم ..

جمعتني وإياه لحظة الخروج للمسجد في صلاة الجمعة، ذات يوم من شهر (أوت/أغسطس) وهو مسؤول إداري سام متقاعد، وكان طريقنا واحدا على الأقدام نحو منزلينا في حي واحد بهذه المدينة المستلقية على إحدى ربى الجزائر العاصمة، جمعنا اللقاء للتحية الخاصة، وكنا نلتقي في سنوات مضت: فيقتصر أمرنا يومئذ على التحية التقليدية العابرة الباردة، أمّا هذه المرة فقد كانت (خاصة) بعد غياب لي بضعة شهور، لينتقل من تحيته إلى السؤال عن سرّ غيابي، لتدفعه الإجابة عن ذلك لأسئلة أخرى عن (الخليج) عموما، و(قطر) خصوصا، كأنّه يبحث عن طريقه نحو (المريخ) أو أدغال افريقيا بينما (الغرب) عموما، و(فرنسا) خصوصا لا يراها تختلف أجواء عمّا حوله، في وطنه، ومدينته.

وجرّنا حديث (التحية) في هذا (اللقاء) إلى مقارنات في أشياء وتعاليق على أوضاع وآراء فيها، كان مصبّها الجزائر طبعا، ليعلن في ذلك ابتهاجه بالسياسة الجريئة للرئيس الجديد، ولم ينصرف ابتهاجه إلى إرادة الرئيس في العمل الصريح الجاد، وسياسة الجدية والحزم والحسم، والحرص على احترام الدستور مهما كانت قناعاته حوله، بل حصر إعجابه مركّزا على حديث الرئيس باللغة الفرنسية في بعض خطبه، ممّا كان يتحاشاه أسلافه، مضيفا أنّه آن الأوان لضرب هذه (الطابوهات) التي ترى في (اللغة) نهاية العالم، هنا اضطررت لحركة تلجم اندفاعه، فيكشف عن ضيقه بحرص الشعب الجزائري على التمكين للغته العربية التي لا يفهمها هذا الفرانكوفوني وإن صلّى بها صلاة محنّطة، التي لا تختلف في ذلك عن طبيعة إيمانه التقليدي الصرف، الذي هو مجرد إيمان (وراثي) شكلي مظهري وليس روحا متوغلة في كلّ الخلايا، المستقرة في الوجدان.

ربط الرجل ثناءه على الفرنسية بالانفتاح الأفضل على (فرنسا) فقلت: ولم لا يكون الانفتاح أيضا على (أميريكا) و(انكلترا) لم لا يكون التوازن بين لغتين فرنسية (غازية) ذات إرث إستعماري، و(انكليزية) حيادية ذات دور وظيفي. فقال ما خلاصته: إنّه لا يريد قيودا في مجال اللغة التي يتكفل الوقت بالحسم فيها.

فقلت بهذا المنطق بقينا نهدر الوقت، وندور في حلقة مفرغة منذ سبع وثلاثين سنة، مكنت فيها (إسرائيل) للغتها، وهزمتنا بإيمانها، لأننا مسكونون بحب الاستعمار وكل ما يمثله إرثه: من لغة، وعادات وتقاليد، وتبعية فكرية وسياسية في البداية والنهاية.

هنا أحسست أن الحوار بدأ يأخذ طابعا جديا، وليس من دأبي الحوار الجدي في الشارع، فبادرت بإنهاء الموضوع، قائلا للمجاملة وحسن التخلص: ينبغي أن نجلس لاحقا على (كوب شاي) ونناقش الأمر بمنتهى الصراحة والأخوة.

قلت ذلك رغم يأسي من إقناع (العبيد) الذين ما ينفك حنينهم يطرد إلى ظلال الاستعمار، والتشبث بكل مخلفاته.

هؤلاء (العبيد) هم الذين نصطدم بهم يوميا في (الإدارة الجزائرية) وهذا من أسرار بلائنا، وصراعنا، وقد وظفوا الإدارة نفسها لخدمتهم، وخدمة المحتل المستعمر ولغته، والتمكين لها، إنّهم (عبيد) يرفضون هدية (التحرير) التي قدمها مليون ونصف من الشهداء، ماتوا من أجل أن تعيش (الجزائر) حرة مستقلة عزيزة كريمة، لها شخصيتها، وهويتها.

هؤلاء (العبيد) في (الإدارة الجزائرية) انتهوا لجعل الإدارة في خدمة لغة الاستعمار، وخدمتهم، ورئيس الجمهورية بدا واعيا جدا بذلك، فأحسن التعبير عنه بقوله عن هذا الأخطبوط الإداري المتعفن بكونه أخطبوطا جعل الإدارة في

خدمته، بدل أن يكون في خدمتها، أي خدمة المواطن، وما جاء حديثه بالفرنسية إلاّ من موقع الثقة بالنفس ولغته العربية نفسها التي لا تضيق بجوار أية لغة، لكنّها تضيق بمنطق الاستعمار الذي تمارسه اللغة، مستثمرة القابلية للاستعباد في نفوس هدّها الضعف والخنوع، هذا لا يلغي احتجاجنا على الرئيس غير المتحفظ في الحديث بلغة المحتل لأرضنا بالأمس.

حنين (العبيد) في (الإدارة) ومواقع في سلم (المسؤولية) اصطدم به كلّما اضطررت للاحتكاك بذلك لمقتضيات الحياة اليومية، حتى في هذا المصرف حيث كبر على مسؤولة فيها أن أحرر لها النص بالعربية، وأوقع بها.

حنين (العبيد) وأبناؤهم لسادتهم الفرنسيين يعكسه بجلاء تام إذن الموقف من (العربية) أما تظاهروا وصرخوا، أحرقوا دمّروا، نعقوا، مارسوا (العويل) و(النداب) حين كان مرسوم تعميم اللغة العربية يدخل حيز التطبيق (يوليو 1998)؟

هؤلاء (العبيد) استغلوا منطقة (القبائل) في جيب من شمال (الجزائر) ليمارسوا حنينهم إلى سادتهم، أما عبروا عنها صراحة، حتى في ظواهر الأمور، اسم (بجاية) العاصمة الإسلامية التاريخية: اسمها مكتوب بحروف عربية وفرنسية تضيء على بعد، فتقرأ بوضوح على مسافة عشرين كيلومترا، كسروا اسمها بالحروف (العربية) وأبقوا على اسمها بالحروف الفرنسية.

والإشارات، واللوحات في الطرق العامة والوطنية بالمنطقة نفسها: تعرضت عليها الكلمات العربية للمحو والتشويه والخدش، وأبقي فيها على الكلمات الفرنسية أنيقة مغرية، منعشة يجد فيها (العبيد) سعادة وطمأنينة.

من أبناء هذه المنطقة المفكر الكاتب السياسي (مولود قاسم) رحمه الله كان (في السبعينات) حين يمرّ بهذه الطرق: يحمل معه طلاء، ليجمّل بعض

الحروف العربية المشوهة على (اللوحات) ويصحّح بعض الأخطاء الإملائية في كتابتها، وكثيرا ما صحّح (حذاري) لتكون (حذار) كاسم فعل أمر، تحمله بعض اللوحات للتنبيه في المنعرجات، ومواقع الانزلاق، هنا الفرق بين رجل سيّد يجلّ لغته ولسان حال حضارته وانتمائه، وبين غيره من (العبيد) الأذلة يحنون لسياط مستعبديهم، وحين يختفي الرجال السادة الأشاوس، يحضر بالضرورة (أشباه الرجال) من (العبيد) المتيمين بسادتهم وراء البحار.

رحمك الله يا مولود! وكان الله في عون قريتك، التي لم تفلح بعد في التخلص من (العبيد).. مهما كانوا أقلية، والأقلية المريضة داؤها أكثر فتكا بالأكثرية.

وسيبقى ذلك بل يتوطن، ويتوطن ما بقي العبيد، وبقي حنينهم لسادتهم، وسياطهم.

الجزائر – الدوحة، 1999/9/10.

السياسة .. و(سوس) الأرواح والأبدان!

حين أحس بالسوس يأكل روحه، وينتشر في خلايا جسده قرر الانسحاب، مع شيء من بقايا حنين إلى عالم بدا له.. جذابا ساحرا، مغريا، فيه المجد، والجاه، و(المغانم) المعنوية والمادية.

قال لي: كانت البداية عندما وجدتني بين مجموعة من الطلبة الموفدين للدراسات العليا، شممت الإهانة والاستفزاز في (السفارة) بالبلد العربي تصلها منحنا فتحفظها في (البنوك الربوية) بعض الوقت قبل أن تصرفها لنا ونحن نعاني، وكنا ندري، ونواجه ونراوغ، حتى استفزنا من يسمّى (الملحق الثقافي) الانتهازي، رغم صفته (الجامعية) التي انتدب بها من الجامعة في (الجزائر) وهو يقدم على التدليس، فينصّب (عصابة) يسارية تمثّلنا، فأعلناها ثورة عليه وعلى عصابته، أطحنا بالعصابة، وتأخرت الإطاحة به بعض الوقت، حتى سحب، وأعيد إلى جحره في (الدار).

صمت صاحبي، وفي صمته أسف غير كبير على تحوّل (أستاذ جامعي) إلى بيدق، وصعلوك انتهازي، في غياب الإجابة عن سؤال مفاده على أيّ أساس تصرّف في (السفارة)؟ يضيف محدثي: بدأت أدرك خيوطا من (دخان الفساد) الذي عكس ما كان يستشري كخلايا سرطانية في جسم الوطن، حيث الولاء للأشخاص والإيديولوجيا والجهة، من منظور متخلّف، كانت الأشياء الكبيرة المدمرة لا تزال بعيدة جدا عن إدراكي.

كنت في بداية الطريق، فقررت وأنا أحرز على شهادة الدكتوراه في (الخارج) أن أرفض (التدحرج) إلى (الداخل)، فأرفض الخدمة الوطنية نفسها أيضا (الخدمة العسكرية) مقتديا بما فعله انتهازيون سابقون، وأنصرف

للعمل في (جامعة عربية) حيث لقيت الاحترام والتقدير، لكنني وجدتني مرة أخرى وسط (جالية) من وطني، للنخبة فيها وزنها الكبير، وأول ما أساءني تدهور العلاقات بينها، بل انعدامها، وغياب أيّ دور للسفارة.. خارج حفلات (المشوي) الذي نشم (أريجه) ولا نراه، من دون أدنى عتب، حتى جاءت (الضربة القاضية) في الاستفزاز مرة أخرى، لمناسبة طارئة، و(عناصر) من الجالية تدعى (فأتطفل) معها لندرك أننا (قصرّ) علينا (أوصياء) غير شرعيين.

صمت صاحبي في حال من يقارن بين (وصي) شرعي (شرعية ثورية) و(وصي) جاهل جهوي نصاب محتال. ثم استأنف:

تفاجأنا بمسؤول السفارة يعلن فينا أسماء (ممثلي الجالية) الذين اختارهم حسب هواه الجهوي، والإيديولوجي، والمصلحي، ليكونوا ممثلي الجالية في القطر العربي، أمام المصالح الرسمية في ذلك الوطن المضيف، وفي (الجزائر) حيث تعد لهم (المهمات) و(الرحلات) فلم أتمالك وأنا أصرخ في وجهه:

إذا كان الأوصياء على وطن فوضوك ظلما وعدوانا لتمثيله، فمن سمح لك هنا باعتبارنا (قصرا) تنوب عنا في تعيين ممثلين لنا، ونحن هنا أحياء نرزق، وكيف سمح هؤلاء لأنفسهم بقبول المهمة خارج إرادتنا لو كانت لهم ضمائر حية.. وإحساس بالكرامة؟

متى كان ممثلو أية جالية (يعينون) في غياب رأي الجالية نفسها التي يمثلونها؟ أية شرعية لبيادق من صنائعكم تنوبنا من دون علمنا؟ أي من دون انتخابها؟ قد لا تكون لي تحفظات على (فلان) أو (علان) لكن على (الشكل) غير الشرعي!

بل إن هذا الحفل من خزينة (المال العام) جرم ترتكبونه في حق الوطن، إنّها حفلة (إخوانية) عليكم أن تدفعوها من جيوبكم لا من حساب الوطن المخدوع، وما أكثر ما خدعت (الجزائر)!

كنت أحسبني الوحيد المستاء، فإذا الحشد كان ينتظر الإشارة فقط التي بادرت أنا بها: فأطحنا بعد معارك طاحنة بالممثل وبيادقه الذين أرادوا أن يركبوا أعناقنا نحو غايات لهم مدروسة مسبقا، لكنني من هنا بدأت أدخل السياسة، وبدأت أدخل عالم المعاناة، بل سرعان ما فتحت لي أبواب السياسة التي بدت لي في البدء كجنات (عدن) لأدرك أنني أخطأت طريقي، فقد أحسست روحي الإنسانية تموت، كما يذوب الإنسان داخلي، ويولد الشيطان، فتعلمت الغش، والنفاق، والكذب، وإلغاء كلمة أو التنكر لها وهي لا تزال حارة على لساني بأخرى جديدة لحاجة تقتضيها المصلحة، مصلحتي أو مصلحة الشلة.

قلت لصاحبي أنت أدلجت في محيط لم تتهيأ له، ولا عرفت دروبه، وما اكتسبت المناعة الدينية والأخلاقية، التي تحول دون تأكسد الروح، وموت الضمّير! في مثل هذه الحال: السياسة (سوس) الأرواح.. تتآكل فيها الأبدان والضمائر كما هي عالم إنساني جميل رغم المتاعب.. لمن تحصّن فكريا بالعلم والأخلاق، واكتسب المناعة دينيا ووطنيا، والواقع الجزائري يعلن فينا (هياكل) بشرية خرجت من السياسة نتنة إلى عالم (القمامة) كما يعلن نفوسا طاهرة طيبة لم تستطع السياسة أن تلوّثها رغم الأمواج العالية والدهاليز العميقة، لتوفرها على الحصانة الفكرية، والمناعة الدينية والأخلاقية، وقد رأيت بعض هؤلاء من ذوي الحصانة الفكرية والدينية ممن لا يزالون في عنفوان الطهر الروحي، ونظافة اليد، وقد مثل أحدهم – رأيته منذ أيام – الجزائر منذ السنوات الأولى في ثورتها المباركة (1954–1962) وهو يتوقف عن الدراسة، ويلتحق بالثورة، فكان ممثلها في كلّ القارات، ابتداء من (آسيا) و(الوطن العربي) و(أوروبا) و(أمريكا) حتى صار شخصية عالمية، ولم يفسح مجالا في نفسه لما يفسد الروح، ويلوّثها، وينهك البدن بالخداع، والنفاق.

حتى أنّه حين سئل عن أمر جلل، و(الجزائر) في عز أزمتها، فلوحظ عليه ذلك في حوار على الهواء، فقال «نحن نفترض في تفكيرنا وعملنا حسن النية» حتى يثبت العكس. قال ذلك بعد أكثر من (خمس وثلاثين سنة) في عهد السياسة الدولية، وفي دهاليز (الدبلوماسية) الجزائرية. وحين أحس لأول مرة أن ما يدور حوله (مريب) تفوح منه (النتانة) فيه كذب وخداع ونفاق للمواطن قدم استقالته، فهل يضيع الشرفاء؟

أبدا! تلقفته في الساعات الأولى الأمم المتحدة ليكون صاحب المهمات الكبرى، ملاذ المتصارعين المتنازعين.. باستثناء (الجزائريين) فما من نبي نجح في (عشيرته) و(قومه).

ليس الذنب في السياسة، فبها على أيدي الرجال الأشداء الميامين ذوي المبادئ تبني الأوطان بالهمم العالية، والحب والصدق والأخلاق، وإنّما العيب في محيطها، وفي ممارسيها: فذوو الأنانية والطموح الشخصي الخالص الرخيص، في حضور (العوز) الفكري، و(الفقر) الأخلاقي والديني أرواحهم في السياسة مادة للسوس، كأبدانهم، أرواحهم مادة للتآكل لمختلف العوامل، كما تتآكل أشياء تحت مادة (روح الملح Esprit de sel) وما شابهها من مواد كيميائية أو طبيعية.

السياسة فيما سخرت له، وبرجالها، لا باسمها، فهي خاسرة انتحارية بأشباه الرجال، وهي بناء حضاري بالرجال الأفذاذ الذين وهبوا أنفسهم لأوطانهم وأممهم.

عش عاملا مخلصا، نظيفا روحا وفكرا، أو مت شريفا وإن فقيرا معدما مهملا.

نظر.. كضائع بين الأمواج العاتية، حتى عمل بالقرار: عد إلى موقعك، وتطهر من أدران علقت بك، وكفر عن سيّئاتك، فرحمة الله واسعة في انتظارك.

الدوحة، 1999/12/14.

حين يحدثونك عن (الديمقراطية)!

منذ سنوات يجري حديث البعض السحري عن شيء يسمونه (الديمقراطية) التي ترفل فيها المجتمعات الأوروبية والأمريكية، لكنها المنفية من أقطارنا العربية، وهم حين يكتبون فيها أو حين يحدّثونك عنها تحس في لغتهم ذلك الإعجاب إلى حدّ الانسلاخ، وذلك التوق إلى درجة الوله، فإذا سايرت بعضهم أدركت ذلك الهول الموحش ليس في فهم (الديمقراطية) كضوابط مقننة بين حاكم ومحكوم فحسب، بل في النظر إليها كأنها هبة نزلت من السّماء على (الغرب) مفصولة عن معطياتها وكلّ آلياتها السياسية والقانونية والفكرية والثقافية والاجتماعية وسواها، وعلينا تبعا لذلك أن نستوردها مع حاجاتنا المختلفة، ومن هنا تأتي تلك (الغربة) الفكرية والنفسية لبعضنا عن مجتمعاتنا العربية، كما تبرز النتائج السلبية في النهاية مفصحة عن أشكال من السلوك والرؤى التي تربط الحياة الديمقراطية بالأنظمة الاستعمارية، إعجابا بالمستورد غير القابل للحياة بيننا الذي (صنع) كمصطلح لا كنظام منذ قرنين وزيادة في الغرب، معرضة عن المحليّ الثابت في حضارتنا منذ أربعة عشر قرنا، القابل للحياة لدينا بكل المضامين الإنسانية الرائعة التي تتجاوز (المستورد) سياسيا وإنسانيا، فقبل إعلان (الاستقلال الأمريكي) في (1776) و(الثورة الفرنسية) في (1789) و(إقرارهما) حق الناس الذين ولدوا أحرارا أن يعيشوا «أحرارا متساوين في الحقوق والواجبات». قبل ذلك كانت حقوق الأفراد وواجباتهم في حضارتنا الإسلامية حقيقة قائمة، وتشريعا إلهيا، بدأ بالقرآن الكريم، والسنة النبوية، وسياسة الخلفاء الراشدين الأفذاذ قبل أن تتلوث حياتنا الإسلامية بظلم الحكام الفاسدين (الأباطرة) المستكبرين، وأشباههم عبر مختلف العصور.

فقد كانت الأوامر الإلهية في ذلك واضحة «وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل» فكان هناك الإنذار من مصادرة حقوق الناس، كما الحرص على كبح جماح الهوى لدى الحاكم وسواه. والتمكين للعدالة التي جاء بها الأمر الإلهي «فاحكم بما أنزل الله». «فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم...»

فيبقى المواطن والحال هذه في مأمن من ظلم غيره، كما يبقى الحكم الفصل للأغلبية بمقاييس العدل «وأمرهم شورى بينهم» فيصير ذلك أمرا ملزما للحاكم نفسه اقتداء بصاحب الرسالة. لدرء كل أشكال الاستبداد «وشاورهم في الأمر» ثم تمكينا لقيم العدل، والإخاء والروح الإنسانية العالية من أجل بناء مجتمع سليم «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون».

وهذا ما وجد صداه القوي في السيرة النبوية، وأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم): «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» و«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

هو المنهج الديمقراطي الإسلامي بمصطلحات أخرى، المتقدم جدا عن (شطحات الغرب) وولع المعجبين به، هو منهج سياسي فكري اجتماعي متقدم طبقه الخلفاء الراشدون بصرامة على أنفسهم قبل المواطنين، فأعلن (أبو بكر) رضي الله عنه وهو يتلقّى البيعة: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم!»

ولم يحدْ عن ذلك (عمرُ بن الخطاب) رضي الله عنه، بل أمعن فيه منبها بقوة «أيّها الناس من رأى في اعوجاجا فليقوّمه» حريصا على تنمية الحسّ الديمقراطي في المواطن المسلم، وإشعاره بالمسؤولية تجاه حكامه، وقد

بات هذا المواطن على مستوًى عالٍ من هذا الشعور، مما جعل أحدهم يقول لعمر نفسه بحزم: «لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا» تعبيرا عن الصرامة، مماّ أثلج صدر (عمر) وجعله يحمد الله على أن في أمته من يُقوِّم اعوجاجه بالسيف، وهو المبدأ الذي ثبت عليه، ولم يحِدْ عنه قيد أنملة، فكان يحاسب انطلاقا منه حكام الولايات، وصرامته من قصة (عمرو بن العاص) وولده الذي ضرب (القبطي) معروفة، وتوبيخه لحاكم مصر مشبع بالظلال الديمقراطية التي تضمن حقوق الإنسان في وطن الإسلام «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟» ولم يكتفِ بذلك، كقاضْ أعلى، وهو يطبق حقوق المواطنة بين أبناء الأمة الواحدة، فأمر (القبطي) الصغير ليضرب (ابن الأكرمين) ولد (عمرو بن العاص).

هي روح الديمقراطية وقمتها، وقوة الشفافية، وسمو الموقف تجاه حقوق الإنسان التي تتجاوز متقدمة مبكرا بقرون الإعلان العالمي نفسه لحقوق الإنسان (1948) في المعرفة والحريات والإعلام، إلى حقوقه أيضا في العدل والإحسان والتكافل، فضلا عن حقه في الحماية من الآفات والمظالم «إن اللَّه يأمُرُ بالعدَلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذِي القُربَى وينْهَى عن الفحشاءِ والمُنكرِ والبغْيِ يعظكُمْ لعلكُمْ تذكَّرون». وهو ما لا ترقى إليه صيغ (الحريات العامة) في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة (10 / 12 / 1948).

و(التكافل الاجتماعي) صيغة إنسانية رفيعة في فضاء شوري (ديمقراطي) إسلامي عادل، قبل (البدَعِ) الأوروبية وجمعياتها (الإنسانية) التي أسماها (رفاعة الطهطاوي) في باريس (1825–1830) جمعيات «فعل الخير» فجسدتها في حياتنا الإسلامية مبكرا (الزكاة) المفروضة، تضاف إليها صيغ أخرى كالصدقات والتبرعات، فحقوق المسلم على المسلم قائمة لعلاقة المواطنة بطابعها الإنساني «وفي أموالِهم حقٌّ للسائِلِ والمَحْرومِ». «والذينَ يكْنِزونَ الذَّهَبَ والفِضّةَ ولا يُنْفِقُونَهَا في سَبيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعذَابٍ أليمٍ».

فنحن لسنا في حاجة إلى (النظريات) الأوروبية، بقدر حاجتنا إلى (الثقافة الديمقراطية) المستمدة من تراثنا وفكرنا، هي القيم الشُّورية (الديمقراطية) التي جعلت المجتمع مجتمعا خيرا متماسكا قبل أن ينقضّ عليه أعداؤه، وخصومه، من داخله ومن خارجه، فانحرف الحكام إلى الاستبداد، ولم يجدوا من يُقوِّمهم لا بالرأي ولا بالسيف، وإن وجدوا ففي حدود: كان المشايع فيها على الظلم المستفيد منه أكثر عددا وأعلى صوتا من المنافح عن الحق الذائد عن الدين، والقيم الإنسانية الرفيعة فيه.

بهذا البلاء سقطنا، وبهذا البلاء استمرّ (أشباه الرجال) ممن نسميهم إفكا (رجال الرأي) يُزيِّنون للحكام أخطاءَهم بدل النصح والتوجيه لبناء أمة قوية واثقة متماسكة الصفوف.

فالمسؤولية إذن في غياب (الديمقراطية) لا يتحملها بعد رحيل (الاستعمار) الحاكم وحده، بل يتحملها معه المجتمع، والحاشية، ورجال الرأي أولا وأخيرا الذين عليهم أن يروا أن من طاعة (أولي الأمر) إسداء النّصح لهم وإعانتهم على الخير، وصرفهم عما لا يفيد الأوطان، في أمتنا الإسلامية التي انتصرت بعقيدة التوحيد، وقوة الإيمان، والصدق في الرأي، والإخلاص في بذل النصح لخير الجميع: مجتمعا وحاكما ووطنا، بهذا تستمر الديمقراطية الحية، الفاعلة في وجدان الناس، لا تلك التي يحدثونك عنها باللسان، ويبيدون بالأفعال، ولا يرونها إلا في حلة أوروبية زاهية تخطف الأبصار، لكن في حناياها رياح السموم والموزّت الزؤام للضعفاء والمضطهدين والمقهورين!

الدوحة، 2000/01/10.

عبيد (فرنسا) يعربدون في (الجزائر) فما الحل ؟

قضية (اللغة الفرنسية) في(الجزائر) وراء قناعها المكشوف: (الثقافة الأمازيغية) تبقى الورم المقيم بالقبائل، في (الجزائر) التي دفعت مليونا ونصفا من الشهداء من أجل هويتها في فضائها الحضاري الذي تضيق به (فرنسا) ورجالها الفرنسيون في (باريس) والجزائريون بالبطاقة في (الجزائر) .

وبما أن العداء سافر منذ أكثر من قرنٍ ونصف قرن في (الجزائر) بين (العربية) وفضائها العربي الإسلامي و(الفرنسية) وفضائها الأوروبي الصليبي، فقد أبدع الغرب الاستعماري (جارية) لتخدم (فرنسا) و(الفرنسية) بامتدادها الديني بالوقوف في وجه(العربية)بامتدادها الديني أيضاً،هذه الجارية القناع هي (الأمازيغية) التي رعتها اليهودية والصهيونية وغلاة المستعمرين قبل ان ينشئوا لها (الأكاديمية البربرية) في (باريس) وبعد ذلك، لتصير هذه (الأمازيغية)في(الجزائر)اليوم دابة الاستعمار وبغله وحماره، كذريعة للانتقام من شعب ضحّى كثيرا ، فابتلي بمارقين يحرصون على عودة الاستعمار من النافذة في زمن التميع السياسي بعد الطرد المتردّد من الباب، وأعادوها مرات مستغلين ضعف الحكام، وهو أسلوب الجبناء في الغدر والخيانة، وكرمه وأريحيته ، وكان النظام المهترئ يتحاشى دائماً لعدم شرعيته التامة القوية ضرب الخونة والغادرين بالتي هي أعنف جراء نكران الجميل.

إن الأقزام تنكر (جميل نظام) أعطاها بسخاء في حين تلقى الحرمان معظم أنحاء الوطن ، فعائدات البترول نفسها يذهب اكثر من ربعها إلى تنمية منطقة القبائل: مؤسسات، وجامعات، ومصانع ، وشق طرقات، وشبكات هاتف

وكهرباء فضلاً عن (الثورة العمرانية) التي حولت مدينة (تيزي وزو) نفسها من مجمع أكواخ في (1962) إلى واحدة من كبريات المدن الحديثة بعماراتها الشاهقة وفللها الأنيقة وأحيائها المترفة التي تمتد في كل اتجاه. فتحت خزينة الدولة على مصراعيها لتنمية المنطقة بعائدات (البترول) التي يحرم منها أبناء الوطن الآخرون بمن فيهم أبناء الجنوب الذي يتدفق من أعماقه هذا الذهب الأسود لصالح ناكري الجميل قبل غيرهم، بتمييز واضح مكشوف .

مع ذلك لا يتردد عملاء (فرنسا) في الاستجابة لأوامر الاستعمار في أية لحظة ليكونوا أداة طيعة في يده ، وعامل غدر لتحريك الشارع القبائلي، مستغلين ما أمكن من ظروف تسهّل عملهم ، وكان آخرها اليوم اضطرابات أواخر شهر (أبريل 2001م) التي سقط فيها قتلى ، بعضهم اختار –ربّما– حتفه عامداً للخلاص من حياته اللاهية أو فشله العام ، فيهرع بطبيعة الحال الإعلام الفرنسي لنقل كل صغيرة وكبيرة من ذلك ، فبرزت في السياق إحدى المعربدات من المنطقة على إحدى القنوات الفرنسية لتقول: إننا نتظاهر ضد «الحقرة» أي الاحتقار الذي يمارسه علينا (العرب) .

كلمة «الحقرة» والاستخفاف أو الإهانة من حق سائر أبناء (الجزائر) أن ينطقوا بها باستثناء منطقة (القبائل) التي دللّها النظام حتى (البطر) الذي جعل العملاء فيها ينقلبون على نظام اتسم هو نفسه بالعشائرية في عمله السياسي، فبقي حريصاً على إرضاء (المعربدين) مشددا الخناق على الوطنيين المخلصين .

من حق الشعب الجزائري اليوم محاكمة نظام بدأ ييسّر العربدة للعابثين منذ خمس وأربعين سنة،يكفي ما أهدر النظام من أموال للعابثين الذين أجرموا في حق أنفسهم ومنطقتهم ففي كل مرة من حركات الاحتجاج يخربون مؤسسات وهياكل بمليارات الدينارات، ليعيد النظام بناءها من خزينة أمة تعاني في معاشها كلّ شيء، وعليهم ان يدفعوا اليوم قبل الغد من حسابهم، فقد حوّل

العملاء منطقة (القبائل) من منطقة إسلامية صلبة مجاهدة أنجبت(المقراني) و(فاطمة أنسومر) الى بؤرة للنصرانية والعمالة ، ومصدر استنزاف لإمكانات الأمة المالية ، التي تستمتع بها (المعربدات) و (القردة الحزبيون) بينما تنزل «الحقرة» أو(الإهانة) الحقيقية بكل ثقلها على كاهل أبناء(الجزائر) الآخرين القانعين الصامتين الطيبين. لم يكف ما ألحقه النظام الأعرج بالمناطق الأخرى،بل لاحقنا في أرض العرب وأشباه العرب ، فلم نسلم فيها هي نفسها من قوى البغي المعوقة:قومياً فضلاً عن الإعاقة الفكرية والبدنية.

يقول المثل الجزائري الشعبي «الشبعة ضبعة» أي الرخاء المفاجىء لغير الحر يجعله يصاب (بالبطر) و (السعار) وهذا هو الحاصل مع عملاء الاستعمار الذين يهيّجون منطقة (القبائل) في الأوقات المناسبة، وفي ظروف الجزائر الصعبة .

ولا حل للمعضلة الورم إلا بالصلابة السياسية المقرونة بالردع القانوني والمادي ، والكي آخر علاج للأورام المزمنة ، نحتاج في ذلك الى نفحة من نفحات (الرجال) الأفذاذ للضرب على أيدي الأنذال بهراوة من حديد ، فهو الحل الأنجع ، كما عرفنا في التاريخ وعلمتنا الأيام.

فلا مساومة أمام المساس بكرامة الوطن والأمة ووحدتها، فليكن الحل بما تحل به المشاكل الكبرى من دون هوادة مع عملاء الاستعمار وأذنابه .

لقد حلت (أمريكا) مشاكلها بالقوة وبذلك فهي سيدة العالم ، ودركيّه، كما فعلتها (إسبانيا) و(فرنسا) نفسها. وبالقوة الرادعة ذاتها في اليمن (1994م) بالدبابة والمدفع والطائرة، حسمت (اليمن) أمرها وحمت وحدتها، وتمَّ دحر الانفصاليين إلى الأبد ، فلا مساومة ولا مهادنة ولا لعب سياسياً في مواقف تمس شرف الوطن ومهابته واستقراره. فلنكن دولة قانون وسلاح قوية، تحمي حرمتها ووحدتها بشرف او فلتندثر ، ليعيش كل واحد بإمكاناته، حيئنذ فقط —ربمّا— تدرك (القبائل) ما أعده العملاء لها، من أبناء جلدتها، بمنطق القبلية

والعشائرية، وحينئذ يكون قد سبق السيف العذل يا من بقي من فضلاء (القبائل) من أحفاد (المقراني) و(أنسومر) بعدما سحقتكم بسلبيتكم وصمتكم: قوى الغدر والعمالة والنصرانية والتهويد في صفوفكم.

هذا ما يريده عبيد(فرنسا). يريدون (الجزائر) صورة أوروبية ممسوخة لغة وعقيدة، تستدعي إرادتهم التي أملاها أعداء الجزائر عليهم ولقنوهم إياها: موقفاً حازماً وحلا جذرياً من جنس الفعل، فيبقى العمل الوحيد إذن المواجهة بحزم الرجال الأفذاذ الذين لا تزال (الجزائر) تتوفر على كثيرين منهم، ليفصلوا في الملمات بين الحق الناصع والباطل المعربد الغادر.

صنعاء : 2001/4/30 م

الردة (المنطقية)!

منذ سنوات في ذكرى تأسيس (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) كتب الأخ الزميل (د.أحمد القديدي) في (الشرق) القطرية أن زمن التنصير في (الجزائر) انتهى، فاضطررت يومئذ أن أعقب من الجزائر على حكمه بأن الحقيقة غير ذلك، وأنه متفائل أكثر مما ينبغي، فإذا كانت الحركة التنصيرية في (الجزائر) إبان الاحتلال عملت تحت جناح الاستعمار الفرنسي، وبدعمه ورعايته، وصمد الوطن في وجهها ولم تنجرف إلاّ فئة قليلة جدا من أولئك الذين «لا دين لهم ولا ملة» وراء ما يلوح به الاستعمار مما يسكت جوعهم، ويكسي عريهم فإنه بعد الاستقلال قد خلّف من ينوبه، من هؤلاء الذين تعهدهم بالرعاية: فأشربهم حب (فرنسا) بحقيقتها الاستعمارية التدميرية: حبّ لغتها، ونصرانيتها، وقد مكثوا يعملون في الخفاء إبان قوّة الدولة في عهد الرجال الصناديد الذين تلاشت (بقاياهم) بالمرحلة البومدينية، وما أن ضعفت الدولة حتى أطلت كل الزواحف والحشرات في مستنقع جديد لسياسة عرجاء امتطت ديمقراطية مشوّهة، دفعت إلى الواجهة الحزبية فئراناً وصراصير (cafads) وأفاعي وبوما، تعددت أشكالها، وتلونت وجوهها، مما أفسح للنشاط التنصيري للبروز إلى (العلن) يقوده عملاء الغرب من الحزبيين وخدمهم من المنبوذين، حتى كتبت صحيفة (الشروق العربي) الجزائرية الأسبوعية (جانفي/يناير2001م) أن عام 2000 «كان عاماً للتبشير المسيحي في الجزائر، حيث استغل المسيحيون بذكاء وبإتقان الفجوات التي تركناها ودخلوا حتى بين الأنامل، فتم توزيع الأناجيل بأيد جزائرية في عز رمضان في (بجاية) و(تيزي وزو) و (بلعباس) و (الجنوب) .. وأصبح الإفطار في رمضان موضة طلابية في الجامعات، وانتهى الكرنفال التبشيري إلى إقامة قداس مسيحي بالهقار ..»

وقد أشرت عدة مرات إلى أيادي الخفاء للاستعمار الفرنسي التي تركها وراءه في كل المواقع من دون استثناء، وهو يمدها بالعون والتوجيه القائم على استراتيجية محكمة وخطط مدروسة لا مجال فيها للعشوائية وصولا إلى الأهداف المرسومة للإبقاء على الجزائر فرنسية الانتماء، والعمل على جعل أكبر ما يمكن منها نصرانيا، في اللغة أولّا، وفي العقيدة ثانيا، ففيهما يكمن حب (فرنسا) وهو ما تستغله الحركة التبشيرية في أزمنة الضعف والهوان، فعلت ذلك إبان احتلالها الجزائر احتلالا مباشراً(1830–1962) واستمرت فيه بعد رحيلها مخلفة وراءها شكلا آخر من الاحتلال لا يبدو وجهه أحيانا لبعض الجزائريين، وهي تفعل ذلك اليوم في الدفاع عبر عبيدها عن لغتها في وجه (العربية) و(الإنكليزية) نفسها كما ينشط رجالها في التنصير، مستغلين كل شيء، في ظروف الهوان السياسي والاجتماعي، حتى بات في مقدور الاحتلال أن يحقق له رجاله العملاء ما لم يحقق هو نفسه جزءا في المئة منه إبان وجوده، وما لم يحلم به قط، وهكذا فإن الجزائر التي بقيت قلعة منيعة في وجه (الفَرنسة) و(التنصير) أكثر من قرن وربع قرن، وبقيت إسلامية، من دون طائفية: فيها اليوم باعتراف (غابرييل) –بطريرق الشرق الجزائري– ما يزيد كثيرا عن ثلاثة آلاف مسيحي كاثوليكي (جزائري بالبطاقة) هذا والكلام له «إضافة إلى بقية المذاهب المسيحية، ناهيك عن عددهم المرتفع في فرنسا وبقية الدول الأوروبية»

وللأخ الدكتور (القديدي) ولغيره أقول : إن الحقائق على أرض الواقع أكثر جلاء وأشد وخزا، وأن معركتنا مع الاستعمار (الراحل–الباقي) لم تنته قط يوماً، ولن تنتهي في جيلنا، فهي معركة طويلة شرسة تعوزنا فيها الإمكانيات لمقاومته ممثلا في أذنابه، فضلا عن ظروفنا الصعبة وقد انضم سياسياً إلى أولئك الأذناب لفيف قريب منا، من أدعياء (إسلام) و(إسلامية) في حركات شوهت اسم الإسلام في الجزائر المجاهدة التي انتصرت –صوريا على الأقل– تحت راية (حي على الجهاد) و (الله أكبر) .

وقد كانت (الجزائر) مهيأة لإقلاع حضاري فريد عربياً فأجهض العملاء مشروعها الوطني،كما أجهض أدعياء في قيادة(حركة إسلامية) حلمها في التمكين الشامل لهويتها: لغة وعقيدة، القيادة المغرورة الضالة المُضهلّة المضلّلة في (حركة إسلامية) حين انساقت جهلا إلى المأزق المسلح مكنت لخصومنا بتشويه رسالة الإسلام، وهي تعلن بهتانا «الجهاد» للفتك بالأبرياء، بمن فيهم من بقي من المجاهدين الذين أسهموا في تحرير (الجزائر) سنة (1962) التي تعرضت لاغتصاب قوى البغي والاستعمار، على مراحل .

هؤلاء (الرعاة) نعم (الرعاة) المغرورون الضالون المتشبهون«بالدعاة» هم الذين أجهضوا البعد الحضاري الإنساني للوعي الإسلامي، فرأى في سلوكهم (المرتدون الجدد) اليوم صورة (الإسلام) الذي تنبغي مغادرته إلى المسيحية الأكثر رحمة وهي تعطي طعاماً، وكساء، وتحمي سياسياً عند الملمات .

الردة التي عرفتها شرائح ضيقة من الجزائريين هي ردة (منطقية) إذن حسب مستوى المرتدين ووضعهم: هي منطقية في واقع ضعفت فيه السلطة، وجبن الدعاة الحقيقيون وانتهى منها الرجال وعلا شأن الأشباه، كما ضاعت من أيدي المخلصين القلائل فيها وسائل الردع القانوني والمادي والوطني، في الوقت الذي كانت تحقق فيه قوى الغرب الاستعماري انتصارات على أشلائنا مسخرة في الأساس عملاء حزبيين يقتاتون من خزينة الدولة الجزائرية (الكريمة) نفسها، ويطعنونها في الظهر كل يوم، وقد استغلت تلك القوى: خيبة وطمعا معا لدى ضعفاء العقيدة ليسقطوا في (الردة) تحت الترغيب والإغراء بوسائل تبشيرية نفسية اجتماعية (بيداغجيه؟) ينهض بها مثقفون نصرانيون مختصون على قدر كاف من العلم والمعرفة والتكوين العلمي المنهجي لخدمة النصرانية لا جهلة غوغائيون مهرجون استفزازيون ذوو مآرب شخصية ضيقة في السياسة والمال والصيت، ذوو هذه المآرب الخاصة بهم وجدوا فقط في (حركة إسلامية) لدينا ضلت طريقها إلى

الإسهام في خلاص (الجزائر) من محنها، وفي الانطلاق بها قوية صلبة واثقة في فضائها الحضاري الطبيعي.

إن كانت الردة المحدودة (منطقية) في واقع ملأه الضلال والفساد، ونجاح الخصوم بقوتهم وإمكاناتهم، فإن غير المنطقي هو الاستسلام لذلك من رجال فكر ورأي استبد بهم القنوط ومن (علماء دين) باتوا حتى في أحاديثهم التلفازية مجرد (دراويش) يمارسون الأحاجي أو صامتين عن الجهر بالحق في وجه المناكر المرتكبة في حق الوطن وعقيدته من كل الأطراف.

ويبقى اليأس منبوذا في عقيدتنا وعرفنا، والنصر وعد من اللّه لعباده الذين لن يستثنى منهم الجزائريين الشرفاء، والجزائر الضحية الشامخة مع ذلك رغم أنف الاستعمار وأذنابه في الأولين والآخرين!

صنعاء : 2001/5/21 م

.. فلنبدأ بالصهاينة الذين بيننا ؟

كل مصائب الوطن العربي ومحنه وانكساراته وهزائمه المتكررة: مصدرها داخلي قبل أن يكون خارجيا، فنحن منهكون من الداخل بعملاء بيننا يعملون لصالح محتلينا، من الغرب الاستعماري، وصنيعته (اليهودية) التي لا يقتصر أمرها على أرضنا العربي الإسلامية الفلسطينية بل هي متجذرة بنسب مختلفة في هذه (الرقع) من الوطن العربي المهزوم من داخله، لصالح هزيمته من خارجه.

لقد تنبه لذلك في (الجزائر) في ثلاثينات القرن العشرين رجل الفكر الإصلاحي (عبد الحميد بن باديس) وهو يدرك بفكره الثاقب ورؤيته النافذة: ألاّ نهوض للجزائر مهما اجتهدت قبل التحرير أو بعده في حضور (القوى الفرانكوفونية) التي صنعها المحتلون، وتعهدوها بالرعاية والتوجيه، فمنها كل البلاء المقيم المستديم، داعية للاندماج في (فرنسا) ثقافة وسياسة وفضاء، فهم الخونة الذين ينبغي اجتثاثهم، لذا صرخ ملحا:

«واقلع جذور الخائنين　　　فمنهم كل العطب»

وهذا في ندائه المدويّ:

«شعب الجزائر مسلم　　　وإلى العروبة ينتسب»

ولم نعمل بوصية الرجل (1889–1940م) حين كان يرى الفاعلين بيننا يعملون لصالح عدونا داعين للاندماج فيه: سياسة وثقافة، وانتماء حضاريا، لهذا حرص المحتل بدوره على استغلالهم وزرع بذور الفتنة بيننا حين اجتهد في خلق المشكلة (البربرية) أو (الأمازيغية) لنا منذ أربعينيات القرن العشرين وصنع يومئذ عملاء له يبشرون بالقضية، فانتهى بعضهم بفعل اليقظة الوطنية إلى (مزبلة التاريخ) ولا يزال بعضهم ينتظر دوره فيها من (بقايا) أبناء تلك المرحلة ولاحقيهم من الأحفاد.

هؤلاء (الأحفاد) هم الصهاينة الجدد بيننا في (الجزائر) كصناعة فرنسية إبليسية، وكان يتعين البدء باجتثاثهم قبل الاجتثاث (الناقص) للاحتلال الفرنسي المباشر في (1962) وقصورنا وتقصيرنا في ذلك جعلهم يتناسلون برعاية محتلنا بالأمس، ليكونوا حجر العثرة في كل نهوض بالجزائر، وعامل إرباك أساسي في التحرر التام، منذ اليوم الأول للاستقلال (الشكلي) وحتى أحداث الشهر الماضي، أي (أبريل 2001م) في (تيزي وزو) و (بجاية).

لقد كشفت الأحداث أن الصهاينة الذين بيننا في الوطن العربي عموما أكثر خطرا من صهاينة الخارج في (فلسطين) المحتلة، وقوى الدعم القوي خارجها في (أوروبا) و(أميريكا) صهاينة الداخل هم الذين ضيعوا (فلسطين) في (1948) فكانوا من أسباب هزيمتنا في الحرب مع الصهيونية منذئذ حتى قال منذ أيام بوجع واضح أحد مجاهدي تلك المرحلة من ضمن القوة العسكرية السعودية الذي لا يزال على قيد الحياة: إننا حين أوشكنا على سحق الصهاينة صدرت إلينا الأوامر من القيادة العامة في (الأردن): «بإيقاف الهجوم ووقف إطلاق النار والعودة لمواقعنا وهذا لغز لم نعرف له حلا إلى هذا اليوم» (أنظر مجلة اليمامة، عدد: 654، في 2001/5/5م) فهم الصهاينة الذين لم يندثروا بيننا لا في حرب (1967) ولا في حرب (1973) هم صهاينة متعددون في مختلف أنحاء الوطن العربي في أكثر من شكل ولون في التعليم، وفي الإدارة، وفي السياسة والأمن والإعلام، فضلا عن مواقعهم العسكرية.

ألا ترى نعاقهم اليوم مستمرا في الإعلام نفسه داعين لمسالمة مغتصبي فلسطين، في صحافة تسمى(عربية) داخل الوطن العربي، وفي المهجر، حيث تتسع المساحة لصهاينة الداخل الذين تتعدد أشكالهم، وتتلون وجوههم، كحال ذلك (العفيف الأخضر) ذي الجنسية الأصلية التونسية، من (بقايا) هشيم المرحلة (البورقيبية) العلمانية في (تونس) فمقالاته (الغزلية) لحبيبه الحميم (شارون) قد يتورع عن كتابتها حتى (صهاينة) إسرائيل الذين

يحترمون أقلامهم، ويقدرون مسؤولية الكلمة، ومع ذلك تتسع له صفحات (الحياة) اللندنية، وتنفتح جيوبه للطرفين فيتدفق الجزاء من حساب (الجريدة) وحساب (الليكود) أما شاهدتموه على قناة (الجزيرة) منذ ثلاث سنوات يفقد صوابه، فينزع شنبيه المستعارين ويقوم برميهما على طاولة (د.فيصل) في(الأستوديو) ليكون مادة للتندّر بين المشاهدين، ومع ذلك لم يحترم الدكتور (فيصل) مستوى هذه القناة العربية الرائدة فدعاه مرة ثانية في: (الاتجاه المعاكس) عن الصهيونية والنازية كوجهين لعملة واحدة يوم (2001/5/15 م) في مواجهة الكاتبة الباحثة الإعلامية العربية اللبنانية الرائعة: (د.حياة الحويك) لتتألق كوجه عربي مشرق أصيل زاده العلم بالموضوع، وحجته الحقائق المكتوبة، ومنطق الموضوعية والوطنية الفذة، ومع ذلك لم يصغ إليها ذلك (الأخضر) المتيبس الفكر والوجدان وهي توجهه: كن متأدبا، كلامك سوقي، عد إلى الموضوع يا أرعن ! فماذا كان زاد ذلك (الأخضر) الهشيمي من (بقايا) زمن لا يزال فاعلا في صناعة الصهاينة بيننا؟

كان زاده كزاد كل السوقيين المنبوذين من شعوبهم الذين تتسع لهم مع ذلك مساحات في صحف (عربية) كان زاده الكلمات السوقية للنيل من رموز فكرية وسياسية، فالمفكر المسلم الفرنسي اللامع (رجاء جارودي) في نظر هذا (الأخضر) ليس سوى مزبلة «يكتب زبالة» لأن (جارودي) هداه الله للإسلام الذي يضيق به (الأخضر) كما تفرغ (جارودي) آخر حياته مع شرفاء غيره من فرنسيين وسواهم لفضح الأكاذيب الصهيونية عن (المحرقة) وأكذوبة «شعب الله المختار» فناله مع آخرين فرنسيين وغيرهم الأذى الصهيوني المادي والمعنوي، في العاصمة الفرنسية نفسها، بينما يعيش أمثال (الأخضر) هناك في نفس المكان منعّمين، في بحبوحة من العيش الناتج عن رضى الصهيونية وأوروبا وأميريكا التي يخدمونها .

ومن هنا فعند هذا (الأخضر) حزب الله برجاله البواسل في جنوب (لبنان) هو«حزب إرهابي» مثله مثل (الطالبان) في أفغانستان وأمثالهم، يتجاهلون (الإعلام) فلا يظفرون «برضى الغرب» . هكذا كلام (الأخضر) حرفيا المتيم بالصهيونية وصانعيها كحال كل (العبيد) الباحثين عن (رضى الغرب) وقد مضى مندفعا في شتائمه على (الهواء) للأحرار، بينما كانت الدكتورة (حياة) العربية الرائعة ذات الذهن المتقد، تقدم الحجج الساطعة عن (نازية الصهيونية) التي أثبت سبر الآراء الذي قامت به (الجزيرة) أن أكثر من ثمانين في المئة من أكثر من اثني عشر ألفا يعتبرون (الصهيونية) أكثر بشاعة من النازية، تتضاعف بشاعة (النازية الصهيونية) بعملائها في داخل المجتمعات العربية المستبسلين في النيل من أمة عربية إسلامية، و(الأخضر العفيف) نموذج لهؤلاء الصهاينة الذين بيننا وقد تكفلت الصدف بفضحه، لكن الآلاف غيره يبقون بيننا صهاينة متسترين يموّهون بأفعالهم وأقوالهم وجميعهم يخدمون غرضا واحدا لتكريس الهزيمة فينا ونصرة الصهيونية العالمية النازية الفاعلة في داخلنا وخارجنا .

فلنبدأ إذن إن أردنا الفلاح بالصهاينة الذين بيننا في داخل مجتمعاتنا لنستطيع التفرغ للعدو الخارجي السافر الشاكي سلاحه الناري والفكري في مواجهتنا، فالصهاينة الذين بيننا رسل فتنة وألوية تخريب من الداخل بوسائل تختلف باختلاف الأقطار، هدفها تدميرنا من الداخل للتمكين لعدونا من الخارج، ولن نقوى على دحر الصهاينة الذين بيننا ثم الذين في مواجهتنا إلا بدحر أسباب الفتنة والخلاف التي تغذيها أيضا بأشكال مختلفة الأطراف الحاكمة، والسلط، المتغطرسة على شعوبنا الخانعة، بسياساتها الظالمة وتبعيتها لسادتها الأوروبيين الأميريكيين .

صنعاء : 2001/05/28 م

(ديبلوماسيون) يمثّلون قبائلهم . . لا دولة!

لن يملّ أيّ امرئ ذي إحساس بأوجاعنا في الجزائر من القول : إن كل مصائبنا الوطنية مصدرها (الطابور الخامس) و حواشيه و هوامشه برعاية استعمارية فرنسية مدروسة محبكة ، و هذا الطابور متموقعة أجهزته في نظام الحكم ، من (الوزير) إلى أبسط المديرين أو المسؤولين في المؤسسات الجزائرية المختلفة .

فكيف لنا أن نتلاءم مع وضع تطبعه الخيانة و العمالة ؟ فكيف و الحال هذه لا يلتمس لي ذلك الصديق العربي الإعلامي عذرا ، فلاحظ لي يوما بودّ ظاهر بما معناه و بشيء من لفظه: «ألا تحاول شيئا من المواءمة» ؟ من أجل الأمن، و المسالمة ، فمن نسالم ، و كيف نستطيع العثور على مواءمة مع قوى باغية صادرت تضحيات الشهداء لحساب العملاء و(لحَرْكة) واغتصبت استقلالنا غضّا فتيا ؟

منذ مطلع هذا الاستقلال الذي تحوّل إلى استقلال شكلي بدأت متاعبنا مع العملاء، ليس بإعلانهم حروبا جهوية، بل بزرعهم في أجهزة الدولة ليقوّضوها من الداخل لحساب الغرب، وتبعا لخططه التي أوكل إليهم تنفيذها، فطغوا حتى على الرئيس الوطني الثوري (هواري بومدين) فبات تحت تأثيرهم ، منساقا لإرادتهم ، و لم تجده بعض (الهبّات) التي كانت تصدر عنه من حين لآخر، لأن معظم وزرائه أنفسهم ينفذون ما يريد أعداؤنا الاستعماريون لا ما تقتضيه مصلحة الوطن .

كثيرا ما أحسّ الرجل بأخطائه ، ليعلن أحيانا في بعض « هبّاته» ضرورة «الرجل المناسب في المكان المناسب» ليرى المواطن في الحياة العملية السياسية و الاقتصادية و الإدارية الصورة مقلوبة ، مما أدى بنا إلى المهالك، في مهاو بعضها أسطوري لاقعر له ، كهذه الهاوية من الصراع والتشرذم والخيانة التي نعيشها منذ العشرية الأخيرة من القرن العشرين ، وما ذلك إلا لقلب صورة «الرجل المناسب في المكان المناسب» بفعل أجهزة إدارية مختلفة، وبرجالها العملاء، مدراء، و وزراء، وخبراء ، ليجري العمل من أجل إبعاد الرجل المناسب عن المكان المناسب ، هل المؤامرة جزائرية ؟

روى لي صديق عربي قصة ذلك الرئيس و وزيره في بلد شيوعي، حيث أكّدت للرئيس الاستخبارات (السوفياتية) عمالة وزيره للغرب، و لم تكشف تحريات الرئيس المكثفة عن قرينة واحدة تدين وزيره و تؤكد رأي استخبارات الأصدقاء ، و خروجا من معاناته في النهاية : استدعاه ذات مساء و وضع فوهة المسدس على صدغه قائلا له: أعرف الآن أنك عميل لكن لا أعرف طبيعة عملك بالضبط، بقي عليك فقط أن تحدّد لي دورك في العمالة ، و حينئذ فقط أعفو عنك و أقيلك بسلام ، فإن لم تفعل أطلقت عليك الآن النار، فرد الوزير بهدوء اليائس : حضرة الرفيق : أشكرك و قد ضمنت لي العفو والأمان، وأقول لك صادقا: أن دوري غير مرئي، و هو محصور في إرباك المسيرة التنموية والسلامة الإدارية، أي العمل الجدي دون أن يكون «الرجل المناسب في المكان المناسب» .

و هذا ما يريده الاحتلال لابقاء البلدان في التخلف تتآكل من الداخل، وما هذا التآكل إلا نتيجة حتمية للسياسات الخاطئة الداخلية و الخارجية، حتى في الممثليات السياسية التي تنتج عن سوء اختيارها النتائج السلبية، وفي تشويه صورة الوطن، من دون خدمته، بل كثيرا ما رأيت في (الممثليات الديبلوماسية) الجزائرية نفسها في (أوروبا) و (المشرق العربي) أشكالا من

الإساءة عجيبة، و ما ذلك إلا لغياب آليات (الرجل المناسب في المكان المناسب) آليات الكفاءة و الوطنية والإخلاص مع التشبع بحسّ سياسي وطني برؤى مستقبلية نافذة.

شاهدت في (سفارات) و (قنصليات) جزائرية أشباه (رجال) يخدمون مصالحهم، لا دولة أوكلت إليهم أمانة، ولامجتمعا ينتسبون إليه حقا أو باطلا، و هم في ذلك ليسوا استثناء كبيرا عربيا للأسف، لكن الاستثناء الذي بدا لي واضحا في (ممثليات جزائرية) —وأنا لا أعمم— (ديبلوماسيون) فيها يمثلون قبائلهم و عشائرهم في (الجزائر) لا دولة أوكلت إليهم المسؤولية، وتنفق عليهم، وتلمّعهم، و تعدّهم خطأ لدعم جهازها (الديبلوماسي) بينما يعلن واقع أفعالهم أنهم الوباء الفتاك في الجهاز السياسي الإداري (الدبلوماسي).

أقولها لأنني اكتويت به في مواقع عدة، و أنا أدخل هذه السفارة أو تلك القنصلية، لأجد (السفير) السكير، و(القنصل) المهرب، و«الديبلوماسي» القبلي، فكيف لا يتوغل الألم في نفسك و أنت ترى سفير بلدك في سكر دائم، صحوه نادر، كيف لا يزداد الألم توغلا في نفسك ونوعية استقبالك في سفارة بلدك يخضع لعلاقاتك القبلية، بل كثيرا ما وجدتني في مواجهة (ديبلوماسي) يخاطبني بمنطق قبيلته، و حزبها الجهوي، فأحس على الفور أن الرجل سفير لقبيلته، و حزبه فيها، لا لدولة تفرض على المسؤول في كل المواقع التحلّي بالروح الوطنية، و السمو عن الحسّ القبلي، أو إخفائه بعنف في أسوإ الحالات انضباطا مع مهامه في الحكم.

ظاهرة (الديبلوماسيين) الذين يمثلون قبائلهم وعشائرهم وأحزابهم لا الدولة بدأت تلفت نظري منذ منتصف تسعينات القرن العشرين، حتى وجدتني أكثر من مرة في أكثر من سفارة (لبلدي) في حمّى نقاش سياسي: خصوصا مع أعضاء حزبيين مهيكلين: يدافعون بحمية عن (أحزابهم) وتوجّهاتهم، كما يدافعون عن قبائلهم و مطالبها، لدرجة تجعلك تكفر مكرها

بنظام يخرب سياسته بيديه، ويستقرّ هذا اليقين في نفسك من فعل الاستعمار الحريص على ألاّ يكون الرجل المناسب في المكان المناسب، في الشعوب الطموحة الرافضة أغلبيتها الوطنية الشعبية للهيمنة الأوروبية، كرفض التبعية للاستعمار: سياسة و اقتصادا و ثقافة.

(الديبلوماسيون) الذين يمثلون قبائلهم وأحزابهم صورة أخرى لمعاناة (الجزائر) الشامخة بقيمها وأصالتها، و إن تجنبت من البدء التعميم فلأن من الرجال (الديبلوماسيين) الشرفاء من شاءت الأقدار والصدف أن يكونوا في مواقعهم ليشرفوا وطنهم ، و قد لقيت من هؤلاء أيضا من سعدت به، وحمدت اللّه على الخير الذي لم يندثر كله.

الجزائر: 2001/10/08 م

خاتمة

هذه الموضوعات لا يزعم صاحبها عصمة في رأي أو حكم، لكنه سعيد بتعبيرها عن اقتناعه بما يراه حقا ينبغي تثمينه، و ما يراه باطلا تجب إدانته، انطلاقا من رؤية وطنية في منأى عن كل الأشكال الحزبية، والأهواء الإيديولوجية..

وتبقى في اعتقاده قطرة من بحر التعبير عن معاناة (الجزائر) الجريحة التي أصابتها سهام الغدر، و فعل الخونة، و غدر رعايا (فرنسا) في الجزائر .. وإصابتها في أكثر من مقتل كرمز وطن و أمة..تخلّى عنه حتى أشباه (المجاهدين) الذين باعوها قانعين بالسيارات الأنيقة و(الإقطاعيات) المتميزة في السياسة والمال بوتيرة (البطاقات) و ما تضخه من (امتيازات) وقد باتوا رديفا لمجاهدين مزيفين حظوا بنفس الامتيازات، بعدما عملوا في صفوف الجيش الفرنسي، من (حَرْكة) و(جواسيس) ونحوهم، ليظفروا ببطاقات تعطي الواحد منهم اسم «المجاهد» . . و قائمة من (الغنائم) فكان حالهم كحال كلب سقطت عليه خبزة وهو نائم، كما يقول المثل الشعبي الجزائري .

قطرة من بحر الحقائق الوطنية المعبرة عن معاناة الجزائر في عشريتي السوء، السوداء و الحمراء في خاتمة القرن العشرين، و مطلع القرن الواحد والعشرين أيضا.

شهادة، و اجتهاد، مع الاعتزاز بأنها تعبير صادق في النهاية عن رأي صريح، و رؤية خاصة أطمح لصوابها أملا في الأجرين، وإلاّ فأنا راض بالأجر الواحد من الله العلي القدير، عليه توكلت، وإليه أنيب، حسبي الله ونعم الوكيل.

وتبقى الكلمة الأخيرة للقارئ الشريف: طاهر القلب والفكر، نظيف العقل مشرق الوجدان، سواء حضر اليوم، أو تأخر حضوره إلى الغد أو إلى ما بعد غد في الأجيال الجزائرية التي نعلق عليها كل آمالنا في الثأر للجزائر، والنهوض بها قوية عملاقة شامخة .

المحتوى